مع الكتب في سبيل المعرفة

محمد لطفي جمعة

إعداد ومراجعة

رابح لطفي جمعة

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ت: ٣٩٢٦٤٠١

مع الكتب
في سبيل المعرفة

إعداد ومراجعة

رابح لطفي جمعه

١٩٩٨ - ١٩٩٩

هذا الكتاب

رابح لطفى جمعه

هناك من الكتب والمؤلفات العربية والإفرنجية مايملك على القارىء حواسه ويستولى على نفسه ويترك تأثيراً قوياً وعميقاً فى فكره وعقله ، لما يجلب عليه من اللذة العقلية والمتعة الروحية والفائدة المعنوية ، وربما أعاد قراءة بعضها أو استعاد بعض فصولها مرات ومرات لشدة أسرها وعمق موضوعاتها وسعة مجالاتها وقوة تأثيرها فى تكوين عقله وتزويده بمختلف ألوان العلم والمعرفة .

وفى هذا الصدد تختلف وجهات النظر وتتباين الميول والاتجاهات وتتنوع الأمزجة والأذواق ، فما قد يراه قارىء كتاباً مفيداً فى تغذية عقله وروحه وتنويره وتثقيفه وتبصيره بحقائق لم يكن ليعلمها وتنمية معارفه ومداركه ، قد لايراه كذلك قارىء آخر ، وهذا راجع بداهة إلى طبيعة النفس البشرية واختلاف الميول والاتجاهات عند الأفراد .

فى حين أن هناك من يرى أن كتباً بعينها تعتبر رائدة فى بابها وموضوعها ، قد تركت أثرها العميق وبصماتها الواضحة فى الفكر

والحضارة الإنسانية بعامة ، بغض النظر عن تأثيرها هى فى نفس قارئها، ومن هنا نجد مؤلفات تتحدث عن كتب رائدة فى التراث الفكرى والعلمى والأدبى العالمى سواء عند العرب أو غيرهم من الشعوب الأخرى .

والكتاب الذى بين يدى القارىء لمؤلفه محمد لطفى جمعه هو من الكتب التى تحدث فيها المؤلف عن الكتب التى كان لها أثرها فى تكوين عقله وهدايته الى سبيل المعرفة ، وهى كتب تجمع بين ألوان مختلفة من الثقافة والفكر الإنسانى وتتناول موضوعات شتى وتجمع بين مجالات مختلفة فى الأدب والعلم والتاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد والفنون والرواية والمسرح والقصة ، ومن هنا جعل المؤلف عنوان هذا الكتاب « فى سبيل المعرفة ، تاريخ تكوين عقل » .

وبديهى أن ماتناوله المؤلف فى هذا الكتاب من كتب قرأها فى أوربا ومصر من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩٤٠ لمؤلفين عرب وأجانب ، ليست إلا نذراً يسيراً جداً مما قرأه واطلع عليه فى مختلف ألوان العلوم والفنون والآداب على مدى نصف قرن من عمره (سنة ١٩٠٠ - ١٩٥٠) .

وقد وضع المؤلف لهذا الكتاب مقدمة ضافية أحاط فيها بالغرض من تأليفه والكتب النادرة التى وقعت له بطريق المصادفة المحضة والكتب التى يؤثرها على غيرها ، والدافع له فى تقديم خلاصة ثمرات عقول مؤلفيها وهو

أن يفتح الباب ويمهد الطريق لتنوير القراء فى مصر وأن يدفع بالناشئة من شباب هذا الجيل إلى القراءة الجادة المفيدة النافعة المغذية للروح والعقل ، المهذبة للنفس والطباع بدلاً من أن ينصرفوا إلى تزجية أوقات فراغهم فى اللهو والعبث أو فيما لايفيدهم ، أو قراءة أنواع مبتذلة من الأدب البخس الرخيص والقصص الذى يوحى بالشر والإجرام.

وأود أن أنبه هنا على أننى أضفت إلى ماكتبه المؤلف فى هذا الكتاب ، ماكان قد كتبه من مقالات نشرت فى الصحف والمجلات عن كتب عربية وإفرنجية فى مختلف الموضوعات والمجالات ، وقد نبهت على ذلك فى موضعه من هذا الكتاب ، اعتباراً بأن حديث المؤلف عن هذه الكتب وثيق الصلة بموضوع الكتاب الذى نحن بصدده .

ولاشك فى أن هذه الكتب التى تحدث المؤلف عنها فى مقالات نشرت بالصحف والمجلات كان لها عنده من الاعتبار والأهمية ماجعله يتحدث عنها تعريفاً بها وعرضاً لها أو تقريظاً لها وإعجاباً بها أو قدحاً فيها ونقداً لها ، ومن هنا لانستطيع أن ننكر ماكان لهذه الكتب من أثر فى عقل المؤلف وإدلاله إلى ألوان من المعرفة فى مختلف المجالات ، الأمر الذى جعله يؤثرها بالكتابة عنها بالذات دون سواها من الكتب التى قرأها .

وبعد ...

فإننى أترك القارىء الكريم مع هذه الصفحات الشيقة الممتعة عسى أن يكون له فيها لذة عقلية ومتعة روحية ودافع الى قراءة مافيه منفعته وفائدته وتثقيفه وتنويره ٠

والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل ،،،

القاهرة فى ١٨ يناير سنة ١٩٩٩

رابح لطفى جمعة

في سبيل المعرفة

[تاريخ تكوين عقل]

محمد لطفى جمعه

١٩٤٢

مقدمة
بقلم المؤلف

الكتب كالنساء من حيث تأثيرها فى الرجال ، بعض الكتب تستنزل الوحى والإلهام ، وبعضها يشحذ الأذهان والأقلام ، وبعضها يوقظ النفس من رقدتها ويبعث الأحلام ، وبعضها يثير الأشجان والآلام ، وبعضها يحدث النشوة ويبعث السرور ، وبعضها يرقص القلب ويفعل بالروح والعقل فعل الخمور ، وبعضها يقلق الموتى فى مضاجعهم وينبش القبور ، وبعضها يخضع النفوس ويغريها بالتوبة والرجوع ، وبعضها ينفخ فى النار التى بين الضلوع ، وبعضها يحرك الأحزان ويستدر الدموع ، وبعضها يمر بالفكر مر سحابة الصيف ، وبعضها يدخل رحاب العقل ويخرج الضيف ، وبعضها يهيج العواطف ويعصف بالعقول ، وبعضها يهمس فى أذن القارىء همساً غير مسموع ، وبعضها يخاطبك بلسان غريب فلا تدرى مايقول ، وبعضها ثقيل الوطء فلا تلبث أن تراه حتى تودعه ، وبعضها خفيف الظل من حقه أن تسمعه، وبعضها جاهل مغرور يستحق أن تردعه، وبعضها بغيض الظل تأنف بعد لقائه أن تودعه ، وبعضها طائش مخبول

تأسف على الوقت الذى أضعته معه ، وبعضها كالصديق العزيز العفيف تحنّ أبداً إليه ، وبعضها كالحبيب البعيد تذكره فتعطف عليه ، وبعضها كالأفعى المطيّة تحذر أن تمد إليه يدك ، وبعضها يحمل بين دفّتيه أحقاداً تخشى إن قرأته أن يحسدك ، وبعضها كالغانية الغريرة إن غازلتها تفضحك ، وبعضها كالعالم كلما زرته ينصحك ، ومنها مايغريك ظاهره ، ومنها ما يخدعك حتى تضيع وقتك ومالك ، ومنها مايستدرجك ليخيب آمالك ، ومنها مايحتال عليك حتى يستغل فكرك ووقتك ، ومنها مايخفى حقيقته الزرية وراء جلدته الذهبية ، ومنها مايستر تجاعيد سحنته وراء دهان وطلاء ، ومنها مايشبه الدرة التيمية المخفية فى حفرة مظلمة ، ومنها مايحكى النحاس المموّه بالذهب ، ومنها ماهو إلى المنجم أقربُ ولكن ترابه أكثر من تبره ، ومنها ما نستكثر عليه ثمن الورق الذى نقش عليه ، والمداد الذى كتب به ، ومنها مانندب حظ كاتبه وطابعه وناشره وقارئه وبائعه ، ومنها ماتندم على صحبته ندمك على شراء العبد الذى لا عصا معه ، ومنها مايزاحم كرام الكتب بمناكبه ، وحقك أن تقتص بالجلد من كاتبه ، ومنها مايطل عليك من أرفف المكاتب ، كالمرأة التى ليس لها صاحب ، ومنها ما تشفق عليه بعد قراءته إشفاقك على التلميذ الراسب ، ومنها لو وثقت من إحساسه لصفعته حتى يفيق ، ومنها ما لو قربته لاكتشفت بعد

قليل أنه بئس الرفيق ٠

ولما كانت الكتب تدل على عقول مؤلفيها ، والأسفار من دأبها أن توقظ الشعور وتنبه الأذهان وتشحذ القرائح ، فقد تحدثت فى هذه الصفحات عن بعض الكتب التى قرأتها فى مصر وأوربا خلال الفترة من سنة ١٩٠٨ الى ١٩٤٠[١] ، سواء عن طريق شرائها أو استعارتها من المكتبات العامة أو الخاصة ، أو وقعت لى بطريق الصدفة المحضة مثل كتاب « الأمير » لميكياڤيلى الذى ترجمته الى العربية ونشر سنة ١٩١٢، فقد وجدته مصادفة فى إحدى مكاتب الاسكندرية الإفرنجية سنة ١٩٠٥ فى الصيف وكانت أيدى بعض المرتادين تمتد اليه مع يدى فى وقت واحد ، ولكننى أخذته بمصادفة مدهشة ، كذلك كتاب « يوليسيز أو عولس » للكاتب الشاعر الناثر الأيرلندى چيمس جويس الذى التقطته فى بورسعيد من صاحب مكتبة بورسعيدى اسمه عبده ولا أتذكر باقى الاسم ، فهذا الكتاب النادر العجيب كان لقطة لا تتاح إلا مرة فى العمر ، ومهما قلت فى هذا الكتاب فلا أنتهى من الإعجاب به وحبه وتقديره وقد قرأته على مدى أربع سنوات[٢] .

---

(١) أضفت الى هذه الكتب ماكتبه لطفى جمعه فى بعض الصحف والمجلات كنقد أو عرض لبعض الكتب العربية والإفرنجية ونبهت على ذلك فى موضعه ٠

(٢) اقرأ فيما بعد ماكتبه المؤلف عن هذا الكتاب ، ص ٩٣ – ص ١١١ .

كذلك كتاب مونك Munk وهو مزيج من فلسفة العرب واليهود ، وقد استعنت به فى كتاب « تاريخ فلاسفة الإسلام » .

كذلك الكتب الأولى التى عرفتنى بالجاحظ وأناتول فرانس وجى دى موپا سان وشوبنهور والمتنبى ، فكل هؤلاء التقطتهم فى صغرى وبمحض المصادفة لأن زمنى لم يكن فيه شىء منظم لإرشاد الباحثين ولم تكن ثمة دراسات منظمة فى الأدب والفلسفة .

لقد كان من أكبر لذاتى أن أطوف مكاتب كل بلد أنزل به أو القاهرة التى أنا مقيم بها وأشترى معتمداً على الله وعلى المصادفة كل ماتحدثنى نفسى باقتنائه ، وقد حرمت من هذه اللذة منذ بضع سنين وهى شراء الكتب الجيدة ، أى منذ أصبحت أرى مايحتاج اليه البيت أحق من شراء الكتب الجديدة .

إن القرآن الكريم بوصفه كتاباً يعدّ فى نظرى أحسن الكتب على الإطلاق بعد قراءته وفهمه من جميع نواحيه البيانية والتاريخية والفنية ، لا من حيث أثره فى الأجيال أو فى غيرى من الناس ، فهذا موضوع يطول فيه البيان . فالقرآن هو الكتاب الأول الذى أحب أن أقرأه وأتفرغ له[1] .

---

(١) وضع المؤلف كتاباً بعنوان « نظرات عصرية فى القرآن الكريم » وقد تم طبعه ونشره سنة ١٩٩١ عن طريق دار عالم الكتب بالقاهرة .

وأحب بعده فلسفة أفلاطون ولا سيما كتاب الجمهورية والحوار والمأدبة والقوانين ، وكان من حسن حظى أننى فى العشرين من عمرى نقلت المأدبة أو المائدة الى اللغة العربية ولا أدرى ومازلت لا أدرى الباعث القوى الذى دفعنى الى نقلها بعد قراءتها الى اللسان العربى وفرغت من ترجمتها سنة ١٩٠٧ ولكنها لم تنشر قبل سنة ١٩١٢ لأننى أخذت المخطوط معى الى أوربا كما أخذت كتاب الأمير لميكياڤيلى ولم يطبع هو الآخر إلا فى سنة ١٩١٢ لأنها كانت سنة عودتى الى مصر من أوربا ٠

والكتب الأخرى التى أحبها بعد القرآن وأعتبرها أحسن الكتب بعد فلسفة أفلاطون – دواوين هومير وهى الإلياذة والأدويسة وبعدها تراجم العظماء لبلوطارخوس وكل التراجم تهمنى جداً وكل ما يكتبه الرجال عن الأشخاص العظماء ، ومن ذلك حوليات تاسيت Tacite وتاريخ هيرودوتس وخطب ديموستين ومآسى سوفوكليس ٠

والعجيب أننى أميل إلى كل الأدب القديم ولاسيما اليونانى العتيق وكل ماكتبه الإغريق يطربنى إلا واحداً وهو أرسطو ٠

ثم كل ماكتبه الرومان لايعجبنى بغير استثناء وربما استثناء واحد هو شعر ڤرچيل ، وأنا لا أحب اللاتين ولا الطليان ماعدا ماكياڤيلى لطول عشرتى له فى كتبه ، فلا الأدب القديم ولا الحديث لهؤلاء القوم يطربنى

ولكن تاريخهم يسليني ، فأحببت كتاب تاريخ روما تأليف مومسن Momsen الألماني ، وأعجبت بتاريخ روما تأليف چيبون ، وكان عقل مومسن أقوى وأشمل وفهمه للأشياء أدق وأعمق .

وأحب في الأدب العالمي جوته ولاسيما « فاوست » وشكسبير ولاسيما « هاملت » ، والروسي أحب منه دوستوفسكي وترجنيف ولا أحب تولستوي ولا جوركي ولا أحمل عليهما ولكن أتكلم عن هواي فهو مع هذين دون سواهما ، ولا بأس بتشيكوف وأندرييف وإن كان هذا الأخير يرعبني، والقصص التي تسليني مؤلفات كونان دويل Conan Doyl ، و س . موم S. Mougham .

ولم أجد طعما في جحيم دانتي ولا نعيمه وأجده ثقيل الوزن ، وبعد قراءة فصل من الأوديسه عن « هاديس » لا أستطعم دانتي مطلقاً .

ومن كتب الفلسفة التي أطربتني كانط وشوبنهاور وفردريك نيتشه ، وهذا اكتشاف آخر غير مقصود لأنهم كلهم ألمان ، وقد أبغضت هيجل وفيخت وشليجل وشلنج .

ومن الفرنسيين أحببت من قديم أوجست كومت لأنه يحرك شفقتي ، وبرجسون وإن يكن صعب المراس إلا أنه عنده مايقوله ، ويعجبني جايو Gayau بكل مؤلفاته ، ولكن فوييه Fouillet لم يعجبني ولا جول

سيمون، وأحببت ديكارت لبساطته ، وأشفقت على روسو لطول عشرته للنساء ولم أتعلق بڤولتير ولم أعلق عليه أهمية .

وفى الأدب العربى أحببت ثلاثة ، الجاحظ والمتنبى والمعرّى بقضهم وقضيضهم .

فالجاحظ كنموذج للأديب أدبه معلوم ، والمتنبى كنموذج للشاعر أهم مراجعه ديوانه ، وقد كتبت عنه ثلاثة كتب لا بأس بها ، كتاب محمود شاكر وكتاب شفيق جبرى ، وكتاب سامى الكيالى عن سيف الدولة كتاب ردىء ، ولكن شعر المتنبى فيه الكفاية ولا سيما مانظمه فى مصر .

أما أبو العلاء المعرى كنموذج للفيلسوف ، فأهم شعره اللزوميات ، وأهم نثره رسالة الغفران ، ولايهمنى مطلقا قراءة ماكتب الأجانب عنه ، فإنهم لايغنون عن دراسة ماكتبه فتيلا .

وإعجابى بالجاحظ والمتنبى والمعرى لايمنع إعجابى بكتاب الأغانى والكامل والشعر الجاهلى ولاسيما المعلقات وأهمها فى نظرى قصيدة زهير وطرفة ، أما امرؤ القيس فطبل كبير فاحش .

وفى القصص الحديث أحببت بروست Proust الفرنسى وموباسان وفلوبير ، ولم أتذوق أحداً بعد هؤلاء ، وأمقت بول بورچيه لتصنعه ولكن أغفر له التصنع لأجل كتابه André Cornelis وإن تكن منقولة عن هملت .

وفى القانون أحببت القانون الجنائى وأميل الى قراءة المرافعات لفحول المحامين Procés Cellebres ، وفى الجملة تلخيص القضايا العالمية بأقلام كبار كتاب الفرنسيين والإنجليز .

أما الكتب النادرة التى قرأتها فى حياتى فهمى :

كتاب الأمير لماكيافيلى وكتاب عولس Ulysses تأليف چيمس چويس وكتاب الانحلال Degenercense تأليف ماكس نورداو وهو تاريخ انحلال الأخلاق والعقول فى أوربا ، وكتاب انحدار الغرب The Decline of the West تأليف أوزوالد سبنجلر ، وهذا الكتاب أوصانى به المرحوم السيد محمد إقبال شاعر الإسلام فى الهند سنة ١٩٣١ وقرأته بعد ذلك بأعوام ولخصته[1] . وكتاب تكوين القرن التاسع عشر The Foundation of the 19 th. Century تأليف شمبرلين وهو مزيج طريف من التاريخ والفلسفة والاجتماع والسياسة ، وكتاب العلم والعلماء للجوزى وهو تلبيس إبليس كما يسميه ويتوهم أن الشيطان أفسد عقول جميع الطوائف من فلاسفة وصوفية ... إلخ ، وكتاب محنة الحلاج Passion d,Hallag لماسينيون وهو كتاب عظيم ، وكتاب محاضر جلسات الأحاديث الروحية تأليف أو جمع وتدوين حسن شوقى باشا صهر

---

(١) انظر فيما بعد ماكتبه المؤلف عن هذا الكتاب ، ص ٧٠ - ٨٠ .

مختار الغازى وقد رأيته بيد ولده محمد على شوقى الهان ، وحضر بعض مجالس القراءة الأستاذ وهيب دوس المحامى .

وكتاب اعترافات چان چاك روسو ، نعم إنه كتاب قديم ومعروف ولكنه طريف جداً لصراحته وسلامة نية مؤلفه .

وكتاب حياة هتلر تأليف رجل ألمانى باللغة الفرنسية .

وكتاب حاسة التاريخ Le Sense de L'Histoir تأليف ماكس نورداو السابق ذكره .

وكتب الجاحظ الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والرسائل ، وكتاب الأغانى للأصبهانى كله طريف ، وحوليات تاسيت وعولس لهومير ، وكتاب عهد الانحطاط فى الأدب الإنجليزى Decadence تأليف ...(١)

ومسرحيات إبسن Ibsen ، والنقد المسرحى لثلاثة مؤلفين هم سارسى وبريسون وبوردو .

وكتاب رأس المال Das Capital لكارل ماركس ، وفلسفة نيتشه وكانت وشوبنهور ، وكتاب الجمهورية لأفلاطون والدرامة اليونانية القديمة لسوفكليس وأربيدس وآخيل وغيرهم ، ورباعيات الخيام ، وكتاب الإنسان ذلك المجهول لكارليل Carlyl ومذكرات تروتسكى ومؤلفات فلوبير ولا سيما مدام بوڤارى ، وموباسان ولاسيما قصصه القصيرة ، ومؤلفات

(١) فى الأصل على بياض .

ستفنسون الإيقوسى Stevenson وكتاب الثورة الفرنسية وتاريخ حياة لينين .

ولا أذكر هنا كتب السيرة النبوية ولا سيما لابن هشام فليس هنا موضع ذكرها وإن كانت من الكتب النادرة التى قرأتها فى حياتى .

وقد أصبح يلزمنى الآن كتب أكتفى بها دون سواها وهى القرآن الكريم ويوليسيز والجاحظ والمتنبى والمعرى وشوقى وشوبنهاور ونيتشه ويلنت وأفلاطون والتصوف وهوستون شمبرلين وسبنسر وتاريخ فلسفة اليونان .

لقد عكفت على قراءة هذه الكتب وغيرها فى سبيل المعرفة ، ولذلك أطلقت على هذه الصفحات عنوان « تاريخ تكوين عقل » وقد حرصت فيما تناولته من الكتب على أن ألم ببعض ماجاء بها وما عالجته من مسائل الأدب والنقد والتاريخ والفلسفة والفن والسياسة والاجتماع والاقتصاد والمسرح والقصة بقدر حرصى على أن أقدم لمحة عن مؤلفيها الذين أسدوا للإنسانية من خلالها أجل الخدمات وقدموا خلاصة تجاربهم وعصارة أفكارهم .

ولعلى في تقديم خلاصة لثمرات هذه العقول إلى القراء فى مصر أن أدفع بالناشئة من شباب هذا الجيل الى القراءة الجادة المفيدة النافعة المغذية للروح والعقل المهذبة للنفس والطباع ، بدلاً من أن ينصرفوا الى

تزجية أوقات فراغهم فى اللهو والعبث أو فيما لايفيدهم أو قراءة أنواع مبتذلة من الأدب الرخيص والقصص الذى يوحى بالشر والإجرام ٠

فقد انتشرت فى هذه الأيام ظاهرة طبع كتيبات صغيرة بقطع الكف ملونة بصور ذميمة المغزى وعليها أسماء بشعة مثل « القاتل الخطير » و « اللص الظريف » و « جزيرة الموت » و « جريمة الأخوين » و « ملك المحتالين » وغيرها من الأسماء والنعوت المغرية للأطفال من الأولاد والبنات والمفسدة للذوق والأدب والمسممة للعقول والمغرية بالإجرام عن طريق الإيحاء ٠

وهذا الوباء العقلى والسموم المطبوعة كلها من نوع واحد وهو بسط وقائع خيالية جعلوها خليطاً من الحب والقتل والخداع والتجسس ونسبوها كذباً وجهلاً الى بطلين من أبطال القصص البوليسية هما شرلوك هولز وأرسين لوپان ، فى حين أن هذه القصص لاتمت بصلة ما إلى هذين الشخصين الخياليين من قريب ٠

وهذه السلاسل من القصص تنطوى على جرائم أو اكتشاف أسرارها ، وهذه الجرائم لاتعدو أن تكون قتلاً وانتقاماً وسرقة بإكراه واعتداء على الأعراض وتزييفا للنقود واتجاراً بالرقيق الأبيض والأسود وتعاطى المخدرات والمقامرة وحكايات المحتالين والشطار وخيانة الأسرار

الحربية وتسخير النساء فى شر أعمال الجاسوسية والعبث بالطفولة البريئة وخطف النساء وألوانٍ من الفسق والفجور وجرائم المجانين ومرضى العقول والأخلاق وشرح القضايا الجنائية شرحاً خيالياً واصطناع المفاجآت اصطناعاً يهز أعصاب القراء ، وبالجملة تمجيد الجريمة والمجرمين ووصف أحط البيئات فى أدنأ الأوساط وأخطر الرجال، والسخرية من نظم الاجتماع ومحاربة القوانين وانتهاك الحرمات وشق عصا الطاعة على الوالدين وتشويه حقائق المجتمع فماذا يكون العلاج إذن؟

عندى أن أول مرتبة من مراتب العلاج مراقبة الوالدين وحظر مطالعة تلك الكتب أو شرائها على بنيهم وبناتهم ، ثم مراقبة المدارس والتشديد على التلاميذ أن لايقتنوا تلك الكراسات المسمومة السخيفة وفرض عقوبات رادعة على كل من يضيعون مالهم ووقتهم فى قراءتها ، وثالثة المراتب لفت نظر مصلحة الصحافة والثقافة إلى وجوب مراقبة هذا النوع من المطبوعات، فإنه أولى بالتقييد من غيره .

وأهم من هذا كله انبراء لفيف من رجال الأدب لوضع كتب للشباب تضمن لهم قراءة صحيحة سليمة مطهرة غير ملوثة ، مرغبة غير مغرية ، مقومة لأخلاقهم غير مفسدة ، وهذا منهج بعيد المدى واسع النطاق .

إننا إذا نظرنا إلى ماتخرجه المطابع الأوربية من سلاسل الكتب النفيسة المطبوعة طبعاً أنيقاً على ورق ثمين وعرضها على الجمهور بأبخس الأثمان ، إذن لعلمنا كيف أن الأوربيين قد عالجوا هذه المسألة علاجاً شافياً ، فإنهم لم يقصروا كتبهم على القصص ، بل أضافوا اليها كتب التاريخ والأدب والعلم والاجتماع والحكمة ، والكتاب من هذه الأنواع يباع ببنسات معدودة أو سنتيمات لاتعجز أفقر الجيوب . وحتى القصص التى تنشر فى هذه المجموعات يشرف على اختيارها لجان من فطاحل العلماء والأدباء ، وتكون فى الغالب من النوع الاتباعى أو المدرسى « كلاسيك » أمثال مؤلفات ولترسكوت وديكنز وثاكرى وويلز فى انجلترا وهيجو ولامارتين وشاتوبريان فى فرنسا ودانتى ودانزيو وماتيلدا سيزاو فى ايطاليا ، فهل تعجز الحكومة والوالدون والمدارس والصحافة والرأى العام عن معالجة هذه المشكلة وعن إنقاذ الشبان والفتيات من التدهور والانحطاط ؟

وهل يعجز لفيف من الأدباء عن وضع منهج لاختيار الكتب النفيسة القديمة والحديثة ونشرها على صورة مغرية تجعلها تحل فى السوق محل هذه الكتب المزرية بالأخلاق والأدب ، ولا سيما أن فى خزائن الأدب العربى كنوزاً لاتزال بكراً لم تمسّها يد ولم تبتذلها المطابع ولم يعرفها معظم القراء

معرفة تجعلها مشهورة مثل مؤلفات الجاحظ ومؤلفات ابن مسكويه في التاريخ والحكمة وجامع التواريخ وتاريخ أبطال العرب والإسلام وأخبار العرب في الجاهلية وفتوح البلدان ورسائل الأدب في القرون الأربعة الأولى وأسفار السائحين المسلمين أمثال ابن بطوطة وابن جبير وكثير من الأدب الشرقي كالهندي والفارسي إلى غير ذلك مما يمكن نقله الى العربية من الأدب الأوربي المهذب[1] ؟

وبهذه المناسبة أذكر أنني في سنة ١٩١١ إبان أن كنت في فرنسا وضعت للشبان المصريين مشروع تعيين ألف كتاب نافع باللغات الأجنبية والعربية ، كل كتاب منها مصحوب ببيان موجز عن ماهية مايحتويه تشجيعاً لهم على القراءة وتشجيعاً لحركة الترجمة والتأليف في مصر[2].

مصر الجديدة سنة ١٩٤٢ — محمد لطفي جمعة

---

(١) لعل في برنامج « مهرجان القراءة للجميع » وكذا « مكتبة الأسرة » التي تصدر لشباب مصر سلاسل تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الأدب والفنون والتاريخ والفكر في مختلف فروع المعرفة الإنسانية – ما يحقق ما نادى به لطفي جمعه منذ حوالي ستين عاماً.

(٢) تجدر الإشارة هنا الى أن وزارة التربية والتعليم في الستينيات أي بعد حوالي أكثر من خمسين عاماً من مشروع لطفي جمعه الذي اقترحه سنة ١٩١١ – قد اضطلعت بمثل هذا المشروع الذي أطلق عليه مشروع الألف كتاب الذي هدف الى إخراج سلسلة كتب سهلة تضم كل فروع المعرفة مابين مؤلف ومترجم بأثمان معقولة يقدر عليها الجميع تشجيعاً للشباب على القراءة .

في سبيل المعرفة
[تاريخ تكوين عقلي]

في بيان الكتب التي قرأتها في أوربا بطريق الاستعارة من المكتبات العامة من ١٩٠٨ ـ ١٩٤٠ .

(أ) جون سايموندز

نهضة العلوم وإحياء الفنون بإيطاليا

هذا عنوان الكتاب وموضوعه ومؤلفه جون سايموندز العالم المؤرخ البحاثة الإنجليزي من أهل القرن التاسع عشر وقد دلني على هذا الكتاب صديقي أوجست دامانسكي عندما رأى اهتمامي بدراسة عصر الحضارة في إيطاليا فوجدت أن اسم المؤلف على حقيقته جون أدينجتون سايوندز وقد عاش من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٩٣ أي ثلاث وخمسين سنة فقط وأنه من أهل برستل في مقاطعة ويلز وتعلم في مدرسة هارو وجامعة أكسفورد وساح في أوربا وتعلم اللغات وأقام إقامة مديدة في إيطاليا ولا سيما مدينة فلورنسا « فيرنزة بالإيطالية » وهذا الكتاب الشهير The Renaiss - ance in Italy قرأته في مكتبة فلورنسا العامة باللغة الإنجليزية وهو

مترجم الى اللغات الألمانية والإيطالية والفرنسية وقد لخصته باللغة العربية إعدادا لمحاضرة ألقيتها فى ٥ نوقمبر سنة ١٩١١ بنادى المدارس العليا بالقاهرة بحضور رجال المحاماة والقضاء والسلك السياسى الأجنبى ولا سيما سفراء إيطاليا وفرنسا الذين دعاهم لسماع المحاضرة المرحوم عمر لطفى بك رئيس النادى وكان هذا أول عمل قمت به فى القاهرة بعد عودتى من أوربا .

والكتاب يقع فى ثلاثة أجزاء كبيرة وهو من أجمع الكتب فى موضوعه يدل على سعة علم مؤلفه وقد كتبه بلغة عالية الأسلوب مزهرة التعبير فنية الوضع .

ولهذا المؤلف نفسه ترجمة تاريخ حياة ومغامرات بنڤنتوتشيلين وهو من أشهر الكتاب فى تاريخ عصر الإحياء ، وهذا الرجل المترجم له كان مثالا وفنانا من أهل فلورنسا ومن أشهر آثاره الفنية تمثال المدّوز ذات الشعر الثعبانى وهى من شخصيات الميثولچيا اليونانية والتمثال من البرنز وموضوع فى لوچيا وهو متحف فى أحد أركان ميدان القصر العتيق .

أما كتاب سايموندز فقد قسّمه أقساما أذكر منها الكلام على الملوك والحكام الظالمين - تاريخ البابوات - المؤلفون فى الإحياء أمثال نيقولا مكياڤيلى والقسم الثالث فى تاريخ الفنانين أمثال ليوناردو داڤنشى

وروفائيل وميكال أنجلو والقسم الرابع أو الخامس فى الحالة الاجتماعية والإصلاح الدينى على يد جيوروولومو سافونارولا الكاهن المصلح الذى لقى حتفه فى ساحة القصر العتيق ، وقد أفدت من هذا الكتاب فوائد جمة ورأيته مغنيا لطالب التوسع عن كل كتاب عداه ماعدا كتابى سسموندى فى تاريخ الجمهوريات الإيطالية وآخرَ لمؤلف ومؤرخ ألمانى نسيت اسمه ، فهذه الكتب الثلاثة كافية لإشباع نهم المريد لمعرفة تاريخ هذه الفتره المجيدة من الحضارة الأوربية ، وفى نظرى يُعد تاريخ تلك الفترة معادلاً لتاريخ الدولة الرومانية بأسرها لأنه من أسس الحضارة الإنسانية ، فقد كانت تلك الحركة أو النهضة بمثابة ثورة فى الأدب والفنون الغربية فى القرنين الخامس والسادس عشر ، وسبب هذه النهضة المباركة ظهور الآداب والفنون اليونانية والرومانية القديمة ويقظة الطبقات المثقفة لدراسة هذه العلوم والفنون فى آفاق عالية غير محدودة بالتعصب الدينى فاستلهمت تلك الطبقات كبار المؤلفين والخطباء والشعراء الأقدمين وسعت فى تحرير العقل البشرى من قيود الجهل وظلمات المظالم التى كانت سائدة على أوربا فى القرون الوسطى أو المظلمة .

وكانت هذه الدراسة بالنسبة لى فتحا جديداً أدخلتنى الى آفاق فسيحة من الفكر وعرفتنى بفلسفة لوكريس وسياسة مكيافيلى وجنة دانتى

وآثار المصورين والمثالين التي ماتزال ماثلة في مدينة فلورنسا نفسها ، وأدت بي للاستمرار في ترجمة كتاب الأمير لمكيافيلي (نشر بالعربية في سنة ١٩١٢ بالقاهرة) وأعجب مافي هذا الأمر انحصار تلك النهضة على ماظهر لي في مدينة فلورنسا التي أقمت بها ردحا من الربيع والصيف في سنة ١٩١٠ فرأيت أرضها خصبة وموقعها على ضفاف نهر الأرنو غاية في الجمال ووجوه أهلها رجالا ونساءً من أصبح الوجوه ومبانيها من أفخم مباني الدنيا وأكثر مطابقة لقواعد الفن ولاسيما الكنيسة العظمى والقصر العتيق وقصر تيتي ومباني الحكومة أوفتشي المحلاة بتماثيل العظماء من أهل فلورنسا ، وفي المدينة نور وفي الهواء خفة ولطف يتنسم المقيم فيها ولو أياما روائح التاريخ والفن ولايقع نظره إلا على الجمال المجسد ، ومن أمتع الأحاسيس ماكنت أشعر به بعد القراءة في الكتب مشاهدة الفنون في المتاحف وهي شاهدة باختيار العناية لهذه البقعة النادرة لمظهر الجمال الروحي والمادي وقد أقمت فيها بالمنزل عدد ٦ شارع ليوناردو دافنشي وقضيت بها أسعد أوقات الحياة .

(٣) تورجنيف

الحياة الداخليه في روسيا

La vie intérieure de la Russie par Tourgeneiff

هذا الكاتب الروسى من أهل القرن التاسع عشر كان فى زمنه أحد اثنين بلغت شهرتهما فى أوربا عنان السماء وصاحبه الآخر هو ليوى تولستوى ويرجع لمؤلفاتهما أكبر فضل فى خلق روسيا الجديدة وتمهيد الطريق للانقلاب العظيم الذى حدث فى سنة ١٩١٧ ، وقد وضع تورجينف أكثر من ٢٠ كتابا كلها قصص روسية اجتماعية وسياسية وأشهرها مما قرأت الأرض البكر والنيهلزم أو الفوضوية الروسية و (دخان) وهذه الكتب تعد صوت روسيا الحية الناهضة فى نصف القرن التاسع عشر وهى التى غذّت الثورة وبعثت فيها الحياة بجانب كتب تولستوى .

أما هذا الكتاب فلم يكن قصة بل كان بحثا فى الحكومة والأسرة والعدل والاقتصاد ووصف حياة الفلاحين وكانوا أرقاء ومماليك لسادتهم من البارونات والدوقات والكونتات الذين امتصوا دماءهم وتركوهم طعاما للفقر والأمراض والجهل واستعبدوهم ليستمتعوا (السادة) بثمرات جهود الفلاحين بالعيشة فى قصور بترسبورج وموسكو فى كنف الدعارة والفساد والتبذير والسكر والعربدة وفى بلاط القيصر نفسه بينما كان أكثر من مائة وخمسين مليون من الفلاحين (موچيك) يعيشون عيشة البؤس والضنك ، فكان صوت تورجنيف أول صوت رفعه أديب فنان عالم من طبقة الأشراف للدفاع عن الضعفاء ، كان قبله أصدر كتاب مذكرات صيّاد وصف فيها

حياة الريف وصفا دقيقا .

والكتاب الذى نجن بصدده الآن فيه تشخيص الداء وتلميح للدواء وهو الإصلاح الاجتماعى والسياسى مردداً كلمات الثائرين الذين هاجر معظمهم وطنهم ونفى بعضهم إلى سجون سيبريا ٠ وقد راقبت الحكومة القيصرية المستبدة تورجنيف نفسه فاضطر الى المهاجرة فأقام ثلاثين عاما فى فرنسا وألمانيا وسويسرا وكان شديد الإعجاب بالحضارة الإنجليزية ولم يكن له غير ابنتين أدخلهما مدرسة داخلية للبنات وقضى حياته بعيدا عن وطنه فيما عدا أسفار قصيرة كان يعود منها إلى روسيا للإشراف فيها على طبع كتبه بلغته بينما كانت تطبع منقولة الى لغات أوربا الشهيرة٠

(٣) النكته والحكمة فى التلمود

Wit and Wisdom of the Talmoud

التلمود أحد كتب اليهود وهو بمثابة تفسير التوراة وتعليق على حوادثها بجانب المشناه ، ويوجد تلمود مصرى وتلمود عراقى وثالث فلسطينى ، وقد تعاون فى كل بلد منها بعض الربابنة على تأليف هذه الكتب ، ومدارها على تاريخ الشريعة الموسوية وانقسام اليهود إلى طوائف كالقرائين والربانيين والإشكناز وتفرقهم فى الأقطار وتمسك كل طائفة

منهم بتاريخها وتقاليدها وكذلك مجالسهم الدينية ومحاكمهم وعاداتهم وتفسير تاريخهم .

وأصل لفظ تلمود هو تلميذ أو انتقال التعليم من المعلم إلى المتعلم كما أطلقوا لفظ مدراش (مدرسة) على مجموعة من أخبار وأساطير الأولين، وقارىء كتاب النكتة والحكمة فى التلمود يرى الروح الأدبي التى أراد مؤلفه أن يستنبطها من النصوص الجافة ، وهذا الكتاب وجد رواجا كبيرا عند الإنجليز لأن كثرة منهم تمت بصلات دينية وتاريخية للشعب المختار .

ويفهم من هذا الكتاب أن دين اليهود قائم على ماألفه علماء سواء فى بلاد اليونان أم فى مصر أم فى فلسطين أم فى العراق (أور الكلدانيين) وهو الوطن الأول لإبراهيم الخليل ، وقد وضع المؤلف لفظ نكتة ليدل على فطنة المؤلفين والقراء ، ونكتة اليهود عامة والتلمود خاصة جافة جامدة ولكنها لاذعة ، والقارىء للتلمود بصفة عامة يجد فيه محاولات فكرية وخيالات شعرية وتقاليد وتطبيقات لأحكام التوراة وإشارة إلى عهد الأسر ولا سيما فى تلمود العراق أو بابل .

ومن الكتب الأخرى الجمازة والهجادة والجلاشة وكلها بمعنى التفسير والتعليق والشرح ، وهى فى الحقيقة فى معظم مادتها تأليف من

أقلام الحاخامات وتلقيح للشريعة من الآداب والعلوم التى اطلع عليها اليهود فى مختلف الممالك قديما وحديثا ولاسيما بعد أن اتصلوا بحضارة اليونان فى عهد فتوح الإسكندر .

وهذا الكتاب الذى نحن بصدده صورة مخففة من هذه الطريقة واستدراج للقارىء العادى للدخول فى تاريخ هذه الأمة وعقائدها وتطورها وجهودهم فى هذا السبيل مفخرة لشعبهم ومن دواعى إعجاب الناقدين باجتهادهم وتمجيد لرجالهم حتى أنهم وصفوا ابن ميمون واسمه بالعبرى موشيه بن ميمون بموسى الثانى أى جعلوه نبيا بعد موسى بن عمران .

(٤) أفكار تولستوى

هذا كتاب مستخرج من مؤلفاته فى الاجتماع والتاريخ غير القصص ، وكان تولستوى مصلحا إنسانيا عظيما جعل حياته طبقاً لأفكاره وليس هنا مجال المقارنة بينه وبين صديقه ومزاحمه فى المجد ايفان تورجنيف .

وأفكار تولستوى فى هذا الكتاب تدور حول إصلاح الشعب والحكومة والاجتماع والإحسان فى توزيع الثروة بين طبقات الأمة والإقلال من المظالم الاقتصادية حتى تزول ومحاربة الأقوياء والظلمة بإنارة عقول

الشعب ومقاومة الكبرياء والمغالاة في السلطة والأنانية والرجوع الى العقيدة الدينية بغير تعصب واتخاذ حياة الأنبياء مثلا عليا للاقتداء بها ولا سيما عيسى عليه السلام الذى جاء بدعوة الحب والوفاء والإخلاص لله وللناس ، ومعظم الأفكار فى هذا الكتاب مستلهمة من حياة تولستوى نفسه فى البيئات المختلفه التى مر بها والتى كان لها صدى قوى فى حياته ولا سيما اقتناعه بالدعوة الى المذهب الشيوعى والاشتراكية المتطرفة ومحاربة الفقر والجهل .

وفى هذا الكتاب نبذ كثيرة عن حياة محمد النبى العربى وكثير من آرائه ، وقد جعل بعد ذلك لحكمة الرسول العربى كتابا خاصاً.

وهذا الرجل العظيم يعد مصلحا اجتماعيا ومؤلفا قصاصيا ومتصوفا شريف النسب عالى الحسب ولد فى تولا وتهذب فى موسكو وخدم فى الجيش وفى بلاط القيصر ثم استقال وساح فى أوربا ثم عاد الى وطنه وأقام فى أرضه بقصر اسمه اسمايا پوليانا وتزوج من مرأة جعلت حياته جحيما وسودت أيامه فتحملها تحمل الأنبياء وصبر على جهلها وغفلتها وطمعها وضيق عقلها صبر أيوب ، وتقشف واختلس من الزمن أياما وليالى أحياها فى تأليف كتبه ، وفى سنة ١٩١٠ أى فى الثانية والسبعين من عمره فرَّ من بيته فرار العبد الأسير الآبق ليثبت لنفسه ولربه

والعالم ثورته على حياته الخاصة واختناقه فى جو الأسرة ، وكان معينه فى سفره وفراره من مخالب زوجته الكونتيسه كبرى بناته وطبيبه الخاص وكانا مستودع سره فأخفيا مقرّه عن العالم عشرة أيام ، وكان انفعاله وحزنه وهجرته فى سبيل الموت والخلاص سببا فى مرضه بالتهاب الرئة فقضى نحبه فى ديسمبر سنة ١٩١٠ بعيدا عن بيته ، وقد أبى أن تحضر وفاته تلك الزوجة النكود ودفن بأعلى جبل فى أرضه وكان قد وزعها بين الفلاحين من عبيد آبائه الذين حررهم .

(٥) هيبوليت تين

تاريخ الأدب الإنجليزى فى خمسة أجزاء

قرأت لهذا المؤلف كتابين الأول تاريخ الأدب الإنجليزى والثانى سياحات صباحية بين آثار فلورنس ، وفى الكتاب الثانى يشبه چون راسكن الناقد الإنجليزى وفى الكتاب الأول يشبه أرنست رينان وهو على كل حال عالم وفيلسوف ومؤرخ وفنان وناقد جمع بين أسلوب رينان وفلسفة ستوارت ميل وطريقة چون راسكن وهو من أكابر مفكرى فرنسا فى القرن التاسع عشر وأظن كتابه تاريخ الأدب الإنجليزى أعظم مؤلفاته ومن أهم الكتب فى هذا الموضوع ، فقد كان يتقن اللغة الإنجليزية ويفهم شكسبير

ويقدر على ترجمة توماس كارليل أشد كتاب الإنجليز تعقيدا وغرابة وإمعانا فى الغموض .

ويعد تين من أكابر ممثلى الفكر الأوربى فضلا عن أنه فى الصف الأول بالنسبة لكتاب فرنسا وقد عاش حوالى سبعين عاما وولد مع تولستوى فى سنة واحدة ومات فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر وقد نشأ فى الأرياف وتعلم فى دار العلوم الفرنسية واشتغل بالتعليم ردحا من الزمن ثم استقال مرغما باشتباه السلطات فى آرائه الفلسفية واتهموه بالإلحاد وساح طويلا ووضع كتابا فى الفلاسفة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ومذكرات عن الحياة فى بلاد الإنجليز ، وكانت مؤلفاته الأولى المفتاح الذى فتحت به مغالق المذهب الطبيعى للأدب وقصده تشجيع المؤلفات القائمة على أساس علمى ، وكان تأثيره فى أواخر الامبراطورية الثانية الى نهاية حياته عظيما جدا ولم يشتغل طول حياته إلا بالفلسفة والنقد والتاريخ وكان لكتابه (الذكاء) تأثير كبير جداً وقد حمل فكرة الكتاب المذكور فى نفسه ٢٠ عاماً ، ولم يكن أقل فى التفكير الفلسفى من سبنسر وستوارت ميل ولكن هنا ليس المجال للكلام على فلسفته .

أما كتابه فى تاريخ الأدب الإنجليزى الذى نحن بصدده فله فيه نظرية وهى أن الأدب الإنجليزى هو إنتاج الشعب الإنجليزى المتأثر بالبيئة

الطبيعية والجو المحيط بالجزيرة والعقائد الدينية وحوادث التاريخ ، وأظهر ماتكون هذه النظرية فى مؤلفات شكسبير وملتون وتلسن وقد ضرب مثلا بالعيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ تأليف لافونتين وأثبت أنها خلاصة أخلاق أهل مقاطعة شمبانيا بفرنسا وطن المؤلف لافونتين وعاداته العقلية والمجتمع الفرنسى فى القرن السابع عشر والمأساة الفرنسية والتقاليد العتيقة فى بلاط لويز الرابع عشر ، ويظهر لنا أن هذه الفكرة تابعة للمذهب الطبيعى الذى تملك عقل تين ، فإنه كان يرى أن الشاعر والكاتب يولدان في كل بيئة من حكم الطبيعة ليعبرا عنها وهذا أمر فى نظر تين محتوم ولكن العظمة للكاتب أو الشاعر غير محتومة أى أنه كان لابد من ظهور شاعر فى موطن شكسبير وعصره ولكن لشكسبير وحده فضل العظمة ولو أنه نشأ ضئيلا لكانت له خيبة المخطىء وعيب المقصر ، فكان تين يرى أن كمبة الأدب والمعبر عنه محتومان أما الكيفية فيرجع الفضل فيها للشاعر أو الكاتب ، وعيب هذه النظرية التى نجترمها راجع الى حسبان النبوغ ومظاهره عملية رياضية .

وأعجبنا كثيرا كتاب الأصبحة الفلورنتية وهى إحدى ثمرات سياحة تين فى إيطاليا وقبس من فلسفته فى الفنون وكان متأثرا بمذهبه الطبيعى (ناتوراليست) فهو يطبقه فى التماثيل اليونانية والتصوير الإيطالى والنقش

الهولاندى ويرد كلا من هذه الى البيئة القومية سواء فى أثينا أو فى فلورنسا أو هولندا ، ومهما يظهر على هذه النظرية من الجفاف فإن تين يعتقد أن غاية الفنّ تقليد الطبيعة لا تقليدا تاماً ولكن تقليدا يشمل العناصر المهمة التى تميز الأشياء المتباينة فى الطبيعة ، فأهل إنجلترا يعيشون فى بيئة بحرية وكذلك أهل هولندا ولكن هناك فروقا كبيرة بين الشعبين ، هذه الفروق وإن كانت كبيرة إلا أنها دقيقة وهى التى يفهمها الفنان ليبرزها ، فإن الإنجليز يصيدون السمك ويجوبون البحار ويزرعون البطاطس ، أما الهولنديون فيصيدون السمك ويجوبون البحار أيضا ويزرعون الأزهار ويتفننون فى إيجاد النوابغ من الخزامى والنرجس، وهو يحب أن يجد تقسيما وتبويبا وتصنيفا للفنون . وقد تمكن تين من تطبيق هذه القواعد على الأدب الإنجليزى كما طبقها على الفلسفة والنقد الأدبى عند الأقدمين والمحدثين :

وبالجملة كان تين فى الكتابين اللذين قرأتهما له وفى كتاب الذكاء الذى عالجته واضحا جليا مفرطا فى التفصيل رياضى النزعة ، وهذا لا يستغرب منه فقد كان عقله متعدد النواحى وكانت عبقريته ذات ألوان شتى ولا يمكن لمثله من كبار الموهوبين أن يتخصص فى شىء على الطريقة العقيمة التى تحتم على كل مفكر أن يحصر مواهبه فى دائرة ضيقة رجاء

الإتقان المزعوم ، فإن العقل البشرى عند النوابغ يستطيع الإحاطة بعلوم وفنون شتى والعقل العاجز وحده هو الذى يقتصر على علم أو فن واحد، وفى الحقيقة لايوجد تعدد ولا اختلاف بين الفلسفة والأدب والتاريخ والفن ، فإن هذه كلها غصون أربعة فى شجرة مجتمعة وصاحب الواحد منها مندفع بفطرته إلى الثانى والثالث والرابع ، غير أن تزاحم البلداء والأغبياء فى القرن العشرين دعا الى نعرة التخصص هذه وإن صحّت فى الطب أو فى الهندسة أو فى الكيميا فلا تصح فى الآداب والفنون وعلم ما بعد الطبيعه ، ومع هذا فإن من الأحياء فى الشرق والغرب من جمع بين العلم الكيمائى والأدب الرفيع وبين الطب الحديث وفن الكتابة وبين الشعر والطب، وكذلك نرى من المهندسين شعراء ومن القضاة كتابا أدباء كما رأينا فى ابن رشد قاضيا فليسوفا وفى رجال السياسة كتابا وخطباء بلغاء .

فإن يكن تين محتاجا إلى فضل يضاف إلى فضله فهو أنه أثبت للملأ فى آخر القرن التاسع عشر أن الفليسوف يكون أديبا ومؤرخا وناقداً وفنانا .

(٦) ألفونس دوديه

ثلاثون عاما فى باريس

هذا الكتاب يشبه فى مجموعه كتاب هنرى دى رينيه الماضى الحى[١] وتكاد تكون الفترة واحدة عند الكاتبين غير أن الأول لم يتقيد بالزمان والثانى جعل فترة تأريخه جيلا من حياة الإنسان وقد احتسبها من سن العشرين الى الخمسين وقد ذكر كثيرين ممن ذكرهم هنرى دى رينيه وقال إن فكتور هيجو عندما عاد الى باريس من منفاه قوبل بها مقابلة الفاتحين وكان قد كلله المشيب ووصل الى سن عالية ومقام كبير بعد العشرين سنه التى قضاها فى منفاه وقد ذاعت شهرته فى العالمين بسبب قصائده ضد مظالم بونابرت وقد شهد هيجو سقوط نابليون الثالث وعودة الحرية الى وطنه فجعله العظماء والأدباء الناشئون بمثابة معبودهم وجعلوا قصره المنيف فى عدد ٦ بلاس دى فوج هيكلا لتقديم تكريمهم إياه واستلهام الوحى الفنى مما يدور فى مجلسه من الحديث . فكانت قاعة استقباله فى الدور الأعلى أشهر صالون فى باريس ، وقد زرنا هذه الدار الفخمة التى لم يستمتع بمثلها أديب فى الشرق إلا إذا كان وزيرا فى العهود القديمة أمثال عبدالحميد الكاتب والصاحب بن عباد ، وكل ماحصله هيجو من الثروة ناتج من مؤلفاته التى راجت فى حياته رواجا عظيما ومن

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف عن هذا الكتاب ، ص ٢٨ – ٤٠ .

أشهرها كتاب البؤساء الذى نقل إلى لغات العالم جميعا ، وكانت زيارتنا فى بيته سنة ١٩٠٦ فى مستهل هذا القرن وجعلته الحكومة الفرنسية متحفا عاما يدفع الراغب فى زيارته درهما (فرنك) ، ودهشنا عندما رأينا شدة المحافظة على سائر آثار هذا الرجل حتى محابره وأقلامه وبعض كراساته ماتزال محفوظة ، دع عنك أثاث منزله الهائل وفراشه ومقاعده ، وقد قلت بصوت مسموع لنفسى فى ذلك اليوم لاينقص الدار إلا صاحبها ، وبلغ الحرص بالحفظة أنهم أبقوا على المقاعد التى كان يجلس عليها فى نفس وضعها القديم ولم يعمل هذا العمل لأحد من الكتاب إلا لڤولتير فى قرية فرنيه على أبواب چنيف ٠

أما الفونس دوديه نفسه فقد نال من التكريم فى حياته نصيبا كبيراً سواءً فى انجلترا أم فى فرنسا عند زيارته ، فقد كان سبع الساعة وهو يصف فى كتابه حياة بعض الأدباء فى عصره ولا سيما الأخوين دى جونكور اللذين ابتكرا الكتابة الفنية أو النثر الفنى ووقفا جزءا من مالهما على تأسيس أكاديمية ذات ١٠ أعضاء تحمل اسميهما وتمنح جائزة مالية لأفضل قصة فى كل عام ، وكان دوديه متأثرا فى حياته الأدبية بفنهما وبالأستاذ إميل زولا ولكنه لم يتبعهم اتباعا يخفى شخصيته ، وطريقته فى التأليف أن يبنى قصصه على ما يشاهده فى الحياة ، ولذا كان كتابه

ثلاثون عاما في باريس نبعا لاينضب اتخذ منه كثيراً من موضوعات كتبه كما أنه وصف شخصيات زمنه واستعان بالقضايا الشهيرة المعاصرة والسابقة لعصره ولم يهمل كل ماوصل الى علمه من أخبار الناس وغرائب واقعات الحياة كأنه طبيب يجس نبض المجتمع حتى أن بعض المحاكم اتخذته خبيراً في علم النفس واعتمدت في بعض أحكامها على آرائه ولم يؤثر علمه الوضعي في أدبه الرقيق وإحساسه المرهف ، فقد كان إحساسه قويا يهز روحه بالآلام والمسرّات وكان شديد العطف على الإنسانية مع ضبط النفس عند الكتابه يجمع بين المضحك في قصة تارتاران الترسكوني وبين المزعج المبكي في روستمان بطل قصة نياب وقد قال كثير من النقاد إنه وصف شخصية ليون جامبتا الذي قيل إنه إيطالي الأصل مع أنه كان أعظم وطني فرنسي في حرب السبعين .

وكان دوديه أول من تعطف على حياة العمال والفقراء والمساكين في مدينتي باريس وليون فجمع بين الافتطار النفسي وبين حسن الصياغة دون أن يبرز ذاته أو يحلل أحاسيسه الشخصية ، وكل من يقرأ هذا الكتاب يجد بذرة لأحد كتبه الشهيرة وقد درس كثيراً من ناحيات الحياة فألم بحياة المحاكم والأديرة والمصانع والسياسة والأكاديمية الفرنسية والبيوت الفقيرة وألقى ضوءاً على حياته الخاصة في كتاب رسائل من مطحني

جعلها تفريجا عن أفكاره أثناء أجازة قضاها فى مطحن هوائى مهجور .

ولعل من أبعث الكتب للتسرية عن النفس والضحك البرىء كتابه تارتاران الترسكونى ، فإن هذا الكتاب العجيب على صغر حجمه يبذ كتاب بيك ويك من تأليف شارل ديكنز . غير أن دوديه حاول هذا النوع من الكتابة الهزلية مرة أخرى فى كتاب تارتاران ، وهكذا جمع دوديه فى قلبه بين المضحك والمبكى وترك كتبا خالدة شرفت وطنه مدينة نيم ، وأصيب أثناء حياته بمرض خطير جداً فى العمود الفقرى فتألم آلاماً فظيعة صبر عليها صبر أيوب ولم يصفها فى أحد كتبه متبعا المبدأ السليم وهو أن لايجعل لنفسه شأنا لدى القراء .

(٧) هنرى دى رينيه

الماضى الحى

هذا الكاتب الفرنسى أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية شاعر وناثر من أعلام القرن التاسع عشر ومن مؤلفى القصص المسرحية أراد فى هذا الكتاب أن يخلد ذكريات الماضى القريب بعد حرب السبعين وتأسيس الجمهورية الثالثة ونهضة فرنسا فى السياسة والاجتماع والأدب ، فأشار فيه الى جمهرة من كتب عهد الانحلال Decadence وهو العهد الذى

بدأت فيه أوربا الغربية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فذكر عودة ڤيكتور هيجو من منفاه فى جزيرة جرسى الإنجليزية التبعية الفرنسية الأخلاق واللغة بعد أن قضى عشرين عاما بعيدا عن وطنه أثناء حكم نابليون الثالث ، وهو العهد المسمى بالامبراطورية الثانيه من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٨٧٠ ، وكيف أن شعراء فرنسا وأدباءها كانوا يتلمسون الطريق للخروج من الأدب الرومانتيكى وابتكار أدب جديد ، فنشأت المدارس الريالستية والناتورالستية والتأثرية وظهر كتاب أماثل كجستاف فلوبير وإميل زولا وجى دى موبسان وهوسمن وذكر هنرى دى روش فور الصحفى النبيل الذى أقلق الامبراطور نابليون الثالث بجريدته الثورية المصباح (لالنترن) وما أعقبه من الاستخفاء والفرار ثم القبض عليه والحكم بالنفى فى لاجويا وفراره العجيب وظهوره المفاجىء فى استراليا .

وتكلم هذا المؤرخ للأدب عن بول فرلين وأندريه جيد وزعيمهم أناطول فرانس وعن نشأة الصحافة الحديثة كالمجلات الأدبية الكبرى والصحف اليومية وعن الشعراء أمثال مؤلف سيرانو دى برجراك وعن فرانسوا كوبيه وباربى دورڤيلى وهنرى بتاى وعن نشأة الحكومة المشاعية وظهور الاشتراكية وصالونات زعيمات الأدب والسياسة أمثال مدام جوليت آدم وكبار الخطباء مثل ديرلويد وچان جوريس ومارسيل سيمبا وليون جامبتا ،

وأشار المؤلف إلى أن الأدب والسياسة صنوان ورفيقان لايفترقان كالحكمة والشعر وأن كل كاتب شهير بدأ شاعرا صغيرا وأن كل شاعر حاول أن يكون له نصيب فى النثر فلم يصب خيراً كبيراً ، وضرب مثلا بقصص فيكتو هيجو الذى لم يوفق فى البؤساء والرجل الضاحك وأحدب نوتردام وتاريخ جريمة وعمال البحر توفيقه فى دواوين شعره مثل الجزاء الحق وأساطير الأولين ... إلخ .

وبالجملة أراد الأستاذ هنرى دى رينيه - وهو كاتب وشاعر ومؤلف لايقل شأنا عن هؤلاء الذين أرخ لهم وترجم حياتهم ووصف مؤلفاتهم بل كانوا جميعا من أنداده ومعاصريه وهذا لون من الأدب الرفيع والفن الراقى على الطريقة الاتباعية - أن يقدم تحيات للنوابغ من أبناء فنه والإشادة بذكرهم وإرشاد الشباب من الخاصة الى الاقتداء بهم ، وللمؤلف نفسه قصص طريفة نثراً وشعراً وكان فى يوم من الأيام أحد أبطال المسرح الفرنسى .

(٨) هنرى دى رينيه Henri de Regnier

العشاق الغريبو الأطوار

قدمنا أن هذا الكاتب الأكاديمى كان شغوفا بدقة الملاحظة ودراسة

الأخلاق وانتقاء كل أمر غريب لإدخاله فى الأدب وهذه طرافة دفع إليها بحكم مذهب الرمزية الذى شارك فيه بقسط وافر حتى أصبح من أساتذته، ويمتاز أسلوبه فى النثر بما يشبه الإيقاع فى الموسيقى وعاطفته قوية فى الشعور وبحركة الحياة والأشياء ، فتراه يدرك أزلية الوجود فى كل ماهو عابر وذاهب إلى لا رجعة فى ظن البسطاء ولكنه فى الحقيقة خالد ، وهو فى هذه القصة يروى على الطريقة الرمزية الغامضة التى لانحبها فى الأدب سواء أكانت شعرا أم نثرا قصة شاب جميل عشق فتاة نبيلة وتعلق بالرغبة فى زواجها وبذل فى سبيل ذلك كل غال ورخيص وحنق عليه أبو الفتاة لما سببه لها من الفضيحة ، وكان كبار الفرنسيين من النبلاء يتشبهون بالعرب فى أن يرفض الرجل زواج كريمته أو أخته من رجل اشتهر بحبها قبل الزواج تفاديا للفضيخة واحتفاظا بالشرف وتقديسا لاسم الأسرة ، فلما اشتهر أمر هذا الشاب وحنق عليه أبو الفتاة دعاه وأكرمه ووعده بالزواج من ابنته بشرط أن تتم الحفلة والزفاف فى الظلام الحالك زاعما أن هذا الشرط أحد تقاليد الأسرة ، فقبل الأمر مرغما وحضر إلى القصر وزفت إليه عروسه فى سواد الليل فلم ير منها وجها ولا أصبعا وقضى ليلته فى مغازلتها والفرح بلقائها وهى تجيبه على كل سؤال إجابه العارفة بتاريخ حبهما وقالت له إنى أعلم ياحبيبى والأسف يملأ

جوانحى أنك لن تبقى لى أكثر من هذه الليلة وهذا مكتوب علينا ، فظن أن أباها يدبر مقتله فلم يبال بذلك ولما أشرق الصباح كانت مصيبة هذا العاشق الولهان كبيرة ، فقد تكشفت له عروسه عن عجوز حيزبون درديبس دميمة الوجه عوراء وكان هذا انتقام الوالد .

(٩) چورچ مريديث George Meredith
ممثلو المأساة والمهزلة

هذا الكاتب الإنجليزى أشهر مؤلفى القصة فى القرن التاسع عشر وأشهر كتبه تاريخ (حياة بوشان) وقد حاولت قراءته فلم أستطع لشدة ما اعترضنى من الملل والضجر وكثرة التدقيق والتأنق فى الأسلوب والإمعان فى ذكر تفصيلات من الحياة الإنجليزية فى الطبقة الارستقراطية تزهق النفس ، والكتاب طويل جدا ويشعر قارؤه بأن مؤلفه فنان عظيم ولكن فنه لايطاق فهو من قبيل كتاب سالامبو تأليف جوستاف فلوبير .

أما كتابه الثانى فأبسط وأقصر وموضوعه أهم، فإن بطله فرديناند لا سال الزعيم الاشتراكى الألمانى الشاب الذى أدخل المذهب الاشتراكى فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر وكان مشهوراً بالشجاعة والإقدام

والشهامة والنجدة ولم يعمر أكثر من ٤٠ عاما ومات سنة ١٨٦٤ ولكنه يعتبر مؤسس المذهب الاشتراكى في ألمانيا ودرس فى الجامعات وساهم فى ثورة سنة ١٨٤٨ وسجن فى سبيل مبادئه ولما خرج من السجن أسس جمعية للمساواة فى الانتخابات ، أما موضوع الكتاب الذى نحن بصدده فمستنبط من الحياة الحقيقية .

فإن لاسال فى أواخر حياته القصيرة أقام فى سويسرا ووقع فى غرام سيدة نبيلة كانت مخطوبة لنبيل من بنى جنسها ولم تكن تميل اليه وأرغمت على الزواج منه فحاول لاسال تخليصها لنفسه لاجئا الى كل وسيلة من وسائل الحيلة والشدة حتى اضطر إلى منازلته بالسلاح فجرح لاسال جرحا قاتلا وكان يظن أن السيدة المعشوقة تنتحر بعد موته ولكنها لم تكترث له ، وبعد أن كان بطل الحرية أمسى من شهداء الغرام ، ولكن هذا لم يقلل من شأنه فى نظر المعجبين به ، وهذه الواقعة الحقيقية هى التى حاك منها چورچ مرى ديث قصته وهى على مانرى غير جديرة بفنه العظيم الذى أجمع أهل عصره على تمجيده ، واختلف النقاد فيما بينهم على تمييز الكتاب الخالد من كتبه ولم يكن لنا نصيب فى قراءة المستأثر The Egwest وهو أشهر كتبه ولا يقل عن تاريخ حياة بوشان السالف الذكر وقد عمر چورچ مرى ديث طويلا ولعله بلغ ٩٠ عاماً .

(١٠) مـارتينــو

الشرق فى الأدب الفرنسى

درج بعض الكتاب الفرنسيين على إيجاد علاقة بين فرنسا والشرق بعد الحروب الصليبية وذلك لمطامع بعض الحكومات الفرنسية فى بلاد الشرق ، وقد قويت هذه الرغبة بعد الحملة الفرنسية في مصر وسوريا ودقت فرنسا إسفيناً لها فى لبنان والشام ثم استولت بالخداع على الجزائر وتونس ومدت عينها الى مراكش . أما فى لبنان فقد زعمت أنها حامية حمى أهله من النصارى واستكانوا لها فلعبت أدواراً شتى مع الدولة العثمانية وكانت تارة مناصرة وطوراً معادية إلى أن تمت معاهدة الاتفاق الودى بينها وبين انجلترا سنة ١٩٠٤ فتخلت فرنسا لبريطانيا عن مصر نهائيا مقابل كف انجلترا يدها عن منازعتها فى أنحاء العالم ، وهذه المعاهدة التى حذق عقدها إدوارد السابع ملك انجلترا وإميل لوبيه رئيس جمهورية فرنسا هى التى كسرت قلب مصطفى كامل وقلوب الفرنسيين العظماء الذين كانوا يكنون المحبة والاحترام لمصر ويعطفون على آمال المصريين .

ومازال الشرق يفتن أهل فرنسا مذ نشأ فيهم علماء الشرقيات أمثال

رينان ودى ساس ، وهيوار والأدباء منهم مفتونون بجمال الشرق وسحره وغموضه ، وساسته مجذوبون بالمصالح الاقتصادية والنفوذ الحربى ، والمستشرقون راغبون فى استكناه أسرار اللغات والأديان وكل الفرق مدفوعة بالمطامع أولا والتعصب على الإسلام ثانيا ماعدا نفراً قليلا يعدّ على الأصابع أمثال بيير لوتى وكلودفارير ورنيه بيئو René Puaus ، وهؤلاء كتبوا عن الشرق المغربى بإخلاص ودافعوا عن حقوقه وحرياته وعاونوا الدولة العثمانية سياسيا وأدبيا قبل انحلالها ، ومات لوتى فى قصره على شاطىء المحيط الأطلنطى وهو يلهج بذكرها ، وقد أوصى كلودفارير بمتابعة رعايا العثمانيين بعد وفاته فعمل ذلك الشهم بوصيته.

أما الكاتب صاحب الكتاب الذى نحن بصدده فقد أشار إلى ماكتبه لامارتين وهيجو وڤولنيه عن الشرق نثرا وشعراً وجمع ما كتبه غيرهم من كتب السياحات مثل مارسيل تينير عن ثورة الدستور فى تركيا وعن جمعية الاتحاد والترقى وعن عهد السلطان عبد الحميد الذى كانوا يسمونه ظلما بالسلطان الأحمر إشارة إلى مازعموا إهراقه بأمره من دماء الأرمن فى أزمة سنة ١٨٩٦ ، وأهم هذه الكتب فى نظر مارتينو ماكتبه ڤولنيه باسم الخرائب عند زيارته لآثار الحضارات الشرقية فى سياحة عظيمة قام بها

فى أواخر القرن الثامن عشر ووصف فيها خرائب بابل وآشور ومصر ، وقد ظهر كتابه فى سنة ١٧٩١ وفيه مزيج من الفلسفة وبغض الظالمين والكهنة وإيمانه فى التقدم وسلطان العقل .

أما مارتينو نفسه مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده فمتعصب غشوم يرى الشرق بكل عيب ونقيصة ويحث قومه على افتراس أممه واستثما، ولا سيما فى كتاب آخر اسمه شعوب الشواطىء الشرقية للبحر ، بض ولم يكن له تأثير فى بلاده .

(١١) أبو عبدالله محمد بن أبى بكر النفراوى

الحديقة المعطرة Le Jardin parfume

كتاب باللغة الفرنسية مزين بالصور الملونة مترجم من اللغة العربية وأصله تأليف أحد المشايخ فى تونس ، وهذا الكتاب يصف الحياة الزوجية فى الشرق وهو من نوع الأدب المكشوف ، وسبب اطلاعى عليه أننى ظننته فى أدب الشرق مثل حديقة الورد للسعدى فخاب فيه أملى ووجدت فيه معايب خلقية مختلفة ومنسوبة كذبا وبهتانا لبعض زعماء الإسلام ، وفى ظنى أن هذه الأجزاء إما دخيلة على الكتاب إذا كان مترجما ، وإما أن

الكتاب موضوع بقلم كاتب فرنسى خليع فاسد الأخلاق ونسبه إلى العرب تنصلا من وضع اسمه عليه أو تفخيما لشأنه بنسبته لمؤلف شرقى[1] ، لأن المشهور فى الغرب أن أهل الشرق برعوا فى تأليف هذا النوع من الكتب، مع أن المستقرىء للأدب الغربى يجد فيه ألوف الكتب الخليعة الواجبة

---

(١) الحقيقة أن هذا الكتاب وعنوانه « الروض العاطر فى نزهة الخاطر » من تأليف الشيخ أبى عبدالله محمد بن أبى بكر بن على النفراوى قاضى الأنكحة فى تونس وقد ألفه للوزير محمد بن عوانه الزواوى وزير السلطان عبدالعزيز الحفصى صاحب تونس فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى (النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى). وقد ترجم هذا الكتاب الى العديد من اللغات كالفرنسية والإنجليزية والألمانية والدنمركية وطبع منذ نهايات القرن التاسع عشر طبعات عديدة .

وقد تناول المؤلف فيه تفاصيل النشاط الجنسى بشكل صريح وواضح متخذاً صيغة الأدب الجنسى أو أدب النكاح كما يدعوه الفقهاء ورجال الدين وساق فيه حكايات شبيهة بحكايات ألف ليلة وليلة .

وقد نشر هذا الكتاب وطبع باللغة العربية بمطبعة رياض الريّس للكتب والنشر فى لندن وحققه جمال جمعه ووضع هوامشه وعلق عليه ووضع له مقدمة مؤرخة فى مارس ١٩٨٦ (شعبان ١٤٠٩هـ) على ثلاثة أصول له هى مخطوطة المكتبة الملكية الدنمركية التى يرجع تاريخ كتابتها الى عام ١١٣٣هـ - ١٧٢٠م ، ومخطوطة المكتبة الوطنية فى باريس ويرجع تاريخ نسخها الى سنة ١١٨٤هـ - ١٧٧٠م وأخيراً النسخة المطبوعة القديمة للكتاب وهى نسخة غير محققة وبلا تاريخ ولا دار نشر ومملوءة بالأخطاء والأغلاط المطبعية ، ويظنها جمال جمعة طبعة فاس الحجرية التى أشار اليها بروكلمان فى فهرسته . (ر.ل.ج)

الإحراق والإقصاء عن الصغار والكبار ، وسواء فى فرنسا أم فى إنجلترا فإن هذا النوع من الأدب العارى كثير الذيوع والانتشار ، فلما خاب أملى فى هذا الكتاب أدهشنى أنه كان من الكتب المحفوظة فى دار الكتب المصرية فحملته فى اشمئزاز وسخط وسعيت إلى مقابلة مدير الدار لإبعاد هذا الكتاب وتحريم إعارته فى الخارج ومنع إباحة الاطلاع عليه للصغار والكبار ، وقد عرفت من هذا الحادث أن موظفى تلك الدار أجهل من بعض قرائها ، وكان المدير فى ذلك الوقت المرحوم جعفر والى باشا وكان صديقا حميما لى فلما قدمت له الكتاب وأنبأته بنبأه ثار ثم أخبرنى بعد ذلك أن سيدة إنجليزية (ناظرة إحدى المدارس الأميرية) جاءته يوما وطلبت هذا الكتاب وكان هذا الكتاب من تركة المرحوم الدكتور بيومى وكان متزوجا بسيدة إنجليزية فلما توفى باعت مكتبته لدار الكتب ، وكان المرحوم جعفر باشا قد نسى ماجرى بينى وبينه بشأنه ، فلما زارته ناظرة المدرسة الإنجليزية وطلبت الكتاب وأحضره لها سألها عن موضوعه فقالت له إن صديقة إنجليزية قد أوصتها بقراءته وأثنت لها على تأليفه ، فتناول منها الكتاب وقلب صفحاته ورأى بعض تصاويره فتذكر كل شىء ، فبينما كان يقلب الصفحات احمر وجه المستعيرة واضطربت واستأذنت فى الانصراف بسرعة قبل أن تعلم شيئاً عن تقدير المدير للكتاب وعن رغبته فى السماح

لها به أو امتناعه عن ذلك ، فكان قرارها على هذه الصورة خير اعتراف منها بخطأها ، ومنذ تلك الساعة أمر جعفر والى باشا بحظر إعارة هذا الكتاب داخل المكتبه أو خارجها ونعم ما فعل .

(١٢) أديسون

قصص من محاكم الجنايات فى إنجلترا

يعد يوسف أديسون من أكبر كتّاب الإنجليز فى القرن السابع عشر وهو ممن اشتهروا بإتقان كتابة المقال واشترك مع بعض معاصريه فى إنشاء مجلات وصحف لايزال بعضها مستمرا فى الانتشار أمثال تاتلر سبكتيتوز جارديان وقد تخرج فى كلية أكسفورد وتوظف بالحكومة وامتاز برشاقة الأسلوب وجمال التعبير ولم يعادله إلا معاصره ستيل وقد أدخله ثكرى الكاتب الشهير ضمن شخصيات روايته معرض الغرور ، ومن بين مابرع فيه هذا الكاتب غير المقالات وتأسيس المجلات والصحف سرد أخبار المحاكم فى القضايا والجنايات الشهيرة ولا سيما التى نظرت فى محكمة أولد بيلى بلندن وهو نوع الكتابة الذى راج وانتشر فى القرن التاسع عشر فى إنجلترا وفرنسا ، ويعد يوسف أديسون مؤسسه ، وفى فرنسا اليوم كتاب من أقدر الكتاب يمارسون هذا الأدب حتى صار فنًا جميلاً .

وتمتاز المحاكمات الإنجليزية الكبرى بثلاثة أشياء ، الأول نظام المحلفين مما يقتضى براعة المحامين لأن الدفاع إنما يقدم اليهم وهم من عامة الشعب ويكون الحكم الذى يصدرونه فى الغالب أقرب الى الحقيقة والى عواطف الجمهور ، وقد ناديت بإدخال هذا النظام فى المحاكمات الجنائية المصرية سنة ١٩٢٢ فلقيت هذه الدعوة مقاومة عنيفة من نفر من الموظفين فى القضاء لأنهم ظنوا أنه يحرمهم مناصبهم وطعنوا فى أخلاق المصريين وعدم صلاحيتهم لهذا النظام على الرغم من وجود البرلمان بعد ذلك ولهذا النظام محاسن ومعايب ولكن محاسنه أكثر من معايبه .

أما الأمر الثانى فهو غرابة الجرائم الإنجليزية وإن صح أن يقال على رأى تين إن الأدب الإنجليزى ثمرة الطبيعة والأخلاق الإنجليزية وأن الجريمة الإنجليزية تمثل أخلاق هذا الشعب أحسن تمثيل ، ففيها النفاق والطمع والقسوة وماتزال على هذه الصورة إلى يومنا هذا كما تثبته الكتب الموضوعة بأقلام العلماء الأعلام لتسجيل القضايا الشهيرة .

والأمر الثالث أن معظم الجرائم التى وصف محاكمتها أديسون تدور حول القتل بالسم بين الأزواج وقتل الآباء والأمهات للحصول على التركات وقضايا السحر وقطع الطريق ، فقد كان الإنجليز يعتقدون فى القرن

السابع عشر أن السحر أداة للانتقام نافذة ماضية وقد حوكم كثير من الرجال والنساء بهذه التهمة وحكمت بعض المحاكم بعقوبتهم وكان النساء من كل الطبقات شديدات الإقبال على مشاهدة المحاكمات فتزدحم الجلسات بهن ازدحام الملاعب بالنظارة ٠

(١٣) ماسنجر

إفراغ القصص التمثيلية فى قوالب روائية

يرغب كثير من القراء في قراءة القصص التمثيلية ولا سيما لأكابر الشعراء ولكن يعوقهم مايعترض هذه القصص من الاصطلاح الفنى واقتصارها على الحوار وإرشاد المخرجين للممثلين إلى عدد المناظر وأسماء الأشخاص، فبدأ الأستاذ چوزيف أديسون بإفراغ قطع شكسبير التمثيلية فى قوالب قصصية وبسطها على قدر الاستطاعة لجمهور القراء واشتهرت كتبه هذه شهرة عظيمة وخدم شكسبير خدمة جزيلة ، ثم جاء مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده فاختار عدداً كبيرا من القطع التمثيلية لشاهير المؤلفين أمثال مارلو وشكسبير وشيريدان وبسط قطعهم وروى القصة على الأسلوب العادى فملأ فراغها وأفاض فى وصف أبطالها وشرح عقدتها (Plot) وحل تلك العقدة حلا يقرب الى ذهن القارىء

موضوع القصة ومغزاها تقريبا ، ويفيده وينفع القصة فى إذاعتها ويحبب الجمهور فى واضعها ، ولولا أن أديسون سبق الى هذه الطريقة وهو كاتب عظيم والشاعر الذى اختاره أعظم لرجعنا باللوم على كل من يفعل هذا لأنه نوع من التشويه والإسفاف أشبه بما يسميه علماء البلاغة عند العرب باسم حل المنظوم وعقد المنثور أى قلب الشعر نثرا والنثر شعرا وهو مالا يفكر فيه إلا ذوى القريحة الكاسدة ليعيشوا عيالا على المؤلف الأصيل ، فكيف يبسطون قضية فاوست الشهيرة وكيف يعالجون قطع برنارد شو ، وعلى كل حال فإن هذه القراءة تصلح للشبان والأطفال ولا تصلح للرجال.

(١٤) رينيه بازان

مسائل أدبية

يُعد المسيو رينيه بازان من كتاب فرنسا المشهورين فى النقد والتأليف القصصى ولكنه لم يبلغ شأو هنرى رينيه ودوديه فضلا عن أناطول فرانس وزولا ، وكانت أولى شهرته نظم الشعر وتأليف القصص ودراسة الحياة الاجتماعيه ، فألف طامعاً فى أن ينال مرتبة كمرتبة بلزاك وقد جعل همه نقد عيوب المجتمع فلم يوفق كثيرا وقلد الأساتذة فى النقد

وتناول الموضوعات العليا كتطور الشعر ونزعة الشعراء الرمزيين والاتباعيين وعلى رأسهم چان موریاس وچان روشبان ولوران تاياد - ثم أراد أن يقارن بين أساليب عهد الانحلال فى انجلترا وفرنسا ولكن كل محاولاته لم تؤد الى اعتباره كاتبا فى الدرجة الأولى .

وفى هذا الكتاب الذى نحن بصدده تكلم عن بعض المتعاصرين ووصف أسلوب أشهرهم أمثال لوتى وفارير ، وحكى تاريخ أكاديمية جونكور ونقد النثر الفنى الذى ابتدعه الشقيقان جنكور وعاب على المدرسة الطبيعية المبالغة فى تنفير القراء من ذكر الحقائق العارية وتشويه جمال الطبيعة الإنسانية وخصوصا فى رواية تريزه راكان ، وقد أصاب هذا الناقد المحز لأن هذه القضية من أبشع مادونته الأقلام وإن تكن واقعية إلا أن واجب الكاتب العظيم مثل إميل زولا يقضى فى نظر بازان أن يدعو الى الجمال والجميل والخير لا أن يصف أبشع ما احتوته الطبيعة البشرية من أهواء وميول شاذة وإقبال على الإجرام بسبب الشهوات وخصوصا تلويث يد المرأة وقد تكون زوجا أو أما بدماء رجلها فى سبيل عشق وهمى لا يلبث طويلا حتى ينقلب كارثة على صاحبه .

(١٥) أميل زولا

شخصيات أسرة روچون ماكار

ولد مسيو زولا سنة ١٨٤٧م وتوفى مختنقا بغاز الاستصباح فى بيته سنة ١٩٠٣م واشتهر بتأليف ثلاثين كتابا مؤيدا بها مذهب الطبيعيين فى الأدب ، زاعما أن الأساس الذى يبنى عليه قصصه علمى محض مرتكنا على آراء تين وكلود برنار ، فليست القصة فى نظره نتيجة اختبار شخصى أو مشاهدة فنية بل هى تجربة علمية تؤدى إلى نتائج تابعة لسنن وقوانين خاصة ، ولذا ابتكر زولا حياة أسرة باسم روچون ماكار وتتبع تاريخ حياة أفرادها من عهد الأمبراطورية الثانية وهو ينوى أن يظهر تأثير الوراثة والبيئة دون أن يصرح بذلك ، فكان من هذه الأسرة قساوسة وعلماء وموظفون ورجال مال ومجرمون ونساء طاهرات وأخريات ملوثات وقد مزجهم بالمجتمع وبنى على هذا المزج والاختلاط نظرياته القصصية ، وهو فى الواقع يعد خليفة لأنوريه دى بلزاك الذى ألف ثلاثين كتابا باسم المهزلة الإنسانية . ولكن إميل زولا على عظمته واجتهاده ونضارة فنه وقوة ابتكاره لم يصل الى درجة بلزاك فى قصة أوچنيه جرانديه التى تعد عملاً رئيسيا إنسانيا ، كذلك الأب جوريوه وبنت الثلاثين « أى المرأة فى سن الثلاثين » ، ولكن إميل زولا وإن ادعى الانتساب الى العلم فإنه لم يكن

متبحرا فيه ولا دارساً على طريقة منتظمة وكل مافى الأمر أنه ألمَّ إلماما إعداديا ببعض الأمراض العصبية وظن أن هذه الأمراض كافية لتعليل أعمال الناس سواء أكانوا يعملون فى سكة الحديد أو فى المناجم أو فى المال .

وقد وصف فى كتاب الوحش البشرى (La béte humainé) رجلا وامرأة لايقلان فى القسوة والفظاعه عن تريز راكان وقد جعل للخمر وإدمان الكحول قوة فى إفساد الأخلاق وإحداث الجرائم .

ويخطىء من يقارن بين أدب زولا وجول فرن لأن زولا حصر عمله فى دراسة النفس البشرية وكان ذا مطامع علمية ولم يكن لنجاحه سبب خاص بفنه بل بالبشاعات والشناعات التى نشرها فى كتبه ، وربما كان إميل زولا شاعرا من النوع القديم فى بلاد اليونان ، فإن كل قصة من قصصه تُعد فى نظر الناقد ملحمة غليظة جافية ولكنها شعر فإن قلمه يضخم الأشياء ويشوهها ويجعلها مخيفة مرعبة ، فالحياة فى نظره رؤيا رهيبة وحلم مزعج ولم يكتف بوصف مايرى ويسمع بل يزيدها غلظة وفظاعة حتى الأماكن والأدوات التى يتخذها مواضيع لقصصه تكسب حياة مخيفة ، ولكن إميل زولا لايختلف كثيرا عن ڤيكتور هيجو فى الميل الى المذهب الرومانسى فهو ذو خيال واسع وقدرة على التطوير هائلة ، فلو أن الحياة امرأة طلب إلى

زولا تصوير معالمها وإخفائها ليجعل منها شخصية فاجعة مافعل أكثر مما فعل فى كتبه ، فأنت ترى الحياة حقيقة فيها ولكنك ترى حياة مخيفة .

وإن لم يكن أسلوب إميل زولا من الدرجة الأولى إلا أنه كان كاتبا عظيما ومعبراً صادقا عن روح الشعب فى الأدب الفرنسى الحديث وكانت عبقريته كاملة الى أن استجدت ظروف أنعشتها وقد عُنى بدراسة كثير من كبار النقاد المتعاصرين أمثال برونتيير ورنيه دوميك .

وهذا الكتاب الذى نحن بصدده وضعه إميل زولا تعليقا على شخصيات أسرة ماكار ، كما يكتب العالم النباتى عن بعض النبات أو العالم الحيوانى عن بعض الحيوانات والحشرات وهو يتتبع كل فرد فى تاريخ حياته ، فى حين أن كل كتاب من كتبه خاص بحياة فرد أو فردين من الأسرة ، وإن كاتب هذه الأسطر مع عظيم تقديره لأدب زولا لم يستطع أن يتم قراءة كتاب بأكمله من كتبه ، فلا الوحش البشرى ولا تريزراكان أمكنه أن يتتبعها الى النهاية المزعجة ، فكان الاشمئزاز يمتلك علينا السبيل.

قد يكون هذا ضعفا ولكن لا عيب فى الاعتراف بالضعف ولكنى لم أحتمل أن أقرأ تاريخ رجل يسوق قاطرة السكة الحديد فيحدث حدثا يؤدى الى خروج القطار بأسره عن قضبان السكة الحديد كما يحدث فى قصة

الوحش البشرى .

ولكن إميل زولا كتب كتابا عظيما وقام بعمل إنسانى كأعظم الكتاب هو الحلم الذى أهداه الى كريمة ناشر مؤلفاته فأثبت للملأ بعفة أسلوبه وطهارة معانيه ورقة أحاسيسه ، أن كاتب تلك الفظائع التى لايقوى على هضمها إلا عدد قليل ، قادر على أن يحرك قلبه بأرق العواطف وأرقاها وأن يكتب كتابا يضعه بين أيدى العذارى البريئات فلا يحمر لهن خد ولا تتورد منهن وجنة بل يقرأنه بين المرح والمسرة والخيال الجميل .

أما العمل العظيم الذى قام به فهو دفاعه المجيد عن دريفوس المتهم البرىء فى أواخر القرن التاسع عشر . وقد خاطر بحياته وحريته مذ كتب الخطاب الشهير المفتوح إلى رجال الحكم والعدل فى فرنسا « إنى أتهم J' accuse » فقدم الى محكمة الجنايات وحكم بسجنه عاما ولكن تمكن الفرار إلى إنجلترا .

(١) بلـون فيلد

كشف القناع عن أساليب الخداع والحيلة فى الصناعة والتجارة

هذا كتاب عجيب باللغة الإنجليزية تحرى صاحبه أن يكشف عن

الحيل وألوان الخداع فى التجارة والصناعة وجعل ذلك أبوابا وفصولاً، فتكلم عن حيل البيع والشراء من قديم الزمان إلى عصرنا هذا ، وأثبت أن أهل الشرق أمهر وأحذق فى إدخال الحيلة فيما يتناولون من الأعمال ولكن الغرب لايقل عن الشرق فى هذا السبيل وغاية الناس الحصول على المال بطرق غير مشروعة ، وماكان أجدر الجاحظ بأن يتناول هذا الموضوع بما أورده هذا الباحث من المعلوم لأهل الفن ، فقد ألف الجاحظ فى كبار السراقين وملاحم العيارين والشطار كما ألف الحريرى وبديع الزمان فى كشف حيل السروجى وأبى الفتح السكندرى وهذا يدل على أن هذا الباب مطروق من كتاب الشرق من قديم ٠

أما هذا الكتاب الذى نحن بصدده فقد رفع القناع عن الغش فى الأسواق وفى المصانع وعند رجال المال فضرب مثلا للغش فى التصاوير الزيتية ونسبتها الى غير صانعها وتوقيعها بإمضاءات مقلدة لأكابر المصورين وذكر علاجا لكل حالة من حالات الغش ٠

وفى العهد الأخير صار استعمال بعض الأشعة السينية وغيرها لكشف الحقيقة عن تلك التصاوير ، وقد خدع مدير متحف برلين مرة فى شراء تمثال وهو من أكابر الخبراء قيل له إنه بابلى الصنع ومضى عليه أكثر من ٥٠٠٠ عام وحدث أن عولج بطريقة من الطرق الحديثة فثبت أنه

حديث الصنع وأنه محشو بجرائد يومية ألمانية صادرة فى برلين قبل صفقة البيع بشهر واحد ، وأشاع أحد الفرنسيين أنه عثر على آثار بلد كان مطمورا من أجيال طويلة فلما فحصت بعض هذه الآثار ظهر غشها ٠

وأشار المؤلف إلى أن كثيرا من الآثار المصرية يقلد فى إيطاليا تقليدا متقنا ولا سيما الجثث المحنطة وأشار الى عالم إنجليزى خدعه صعيدى مصرى عجوز فى جعارين ملوكية مقدسة اشتراها منه بثمن باهظ فطلب منه أن يدله على المكان الذى عثر فيه على تلك الجعارين ودفع له مبلغا ضخما ظنا منه أنه وفق إلى كنز دفين ٠ فما كان منه إلا أن قاده إلى كوخه حيث وجد العالم الإنجليزى فرنا صغيراً وألوانا من التراب والطين يصنع منها هذا الصعيدى بيده تلك الجعارين المقدسة ، فبهت العالم لشدة مهارة المصرى للتقليد وكتب ذلك عن نفسه ثم استدرك فقال لا عجب فإن هؤلاء المصريين المعاصرين هم أحفاد أجدادهم الذين صنعوا تلك الآثار وأن بين أيدى هؤلاء المعاصرين من الوسائل مالم يكن بين أيدى القدماء أما المواهب فواحدة ، غير أن هذا الصعيدى المصرى الأمى الذى يتقن تقليد الحروف الهيروغليفية لم يسمح له الزمن بالتعليم ولو أنه تعلم قليلا من الفن لبذ هؤلاء الأقدمين ، ولفرط إعجابه بالصعيدى الفنان المرتجل قربه ودوّن تاريخ حياته وقال إنه من حسن حظه أن عثر على فنان

مصرى قديم متروك من الأجيال السالفة . ولفرط إعجابه به لم يطالبه بالمبالغ التى دفعها له ولم يعتبر طريقة الحصول على هذا المال منه غير مشروعة لأنه لايلوم إلا نفسه على أن حيلة الصعيدى كانت أبرع من علمه هو .

وذكر المؤلف فى الكتاب الذى نحن بصدده أن تجار الحيل فى أحد أسواق أيرلندا باعوا حصانا جميلا لفارس مشهور فلما دفع ثمنه وفرَّ البائع بصفقته اكتشف الشارى أن الحصان لايبصر فلما فحص عينيه وجدهما من زجاج وهذه حيلة بارعة نادرة تدل على مقدار فساد الذمم وغفلة بعض الفرسان .

وتكلم عن الغش فى الجواهر الكريمة وأشار الى اللؤلؤ الصناعى الذى أحدث ظهوره فى بورصة اللؤلؤ بباريس سقوطا عظيما فى أثمان اللؤلؤ الحقيقى ، وسر ذلك أن اليابانيين درسوا طريقة تكوين اللؤلؤ الطبيعى على مدى سنوات طويلة فألهمهم عقلهم الواعى أن يحتجزوا أماكن من البحر يكون الماء فيها أقل رجرجة وتعرضا للرياح وحركة الأمواج وأخذوا الأصداف الحية وأودعوا كل صدفة حبة من الرمل تامة الاستدارة ثم تركوها في قاع البحر مع أخواتها فكانت الصدفة وهى حيوان حى تفرز من لعابها وتنسج حول الرملة خيوطا دقيقة طرية من

لعابها وبعد مضى وقت معين يخرجونها فإذا باللؤلؤة كاملة النمو ، فيباع اللؤلؤ فى باريس على أنه لؤلؤ طبيعى ، ولكن الذى لفت أنظار التجار بعد مدة طويلة من رواج سوق اللؤلؤ اليابانى أنه كان تام الاستدارة وأخف فى الوزن نوعا من اللؤلؤ الطبيعى، فلما كشفت هذه الحيلة هبطت سوق اللؤلؤ جميعا وظهر خبراء يدعون التمييز بين النوعين غير أن الأمر فى حقيقته يدل على غفلة المعترضين على اللؤلؤ اليابانى لأنه ليس مقلدا ولا مصطنعا فى معمل ولا مخترعا إنما قد تكون بنفس الطريقة التى يتكون منها اللؤلؤ الطبيعى، وتمام استدارته فضيلة ليست فى اللؤلؤ الطبيعى وقد وفر اللؤلؤ الصناعى على الغواصين مشقات وأخطاراً جسيمة ٠

ومما لايخفى أن عمالا فى كل أنحاء العالم يخرجون دجاجا صناعيا بأن يجعلوا معامل فيها أفران ترتفع بحرارتها درجة سخونة البيض الى مستوى الحرارة التى ينتجها رقود الدجاجه الأم على بيضها حتى تخرج فراخها وتكسر قشر البيضة ، وفى هذه المعامل تخرج ملايين الكتاكيت وتصير دجاجا طبيعيا يباع ويشرى ويؤكل ، وما شكى أحد من أن لحم الدجاج الخارج على هذه الطريقة أقل غذاء أو مخالفا لطعم لحم الدجاج الطبيعى ، فإذن لا فرق بين هذا الدجاج المستخرج بالفن الحديث وبين اللؤلؤ اليابانى ٠

وقد أفاض مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده فى أنواع الغش فى الأحجار الكريمة كالماس والزمرد وكيف أنها تصنع من بقايا الأحجار الكريمة فى مصانع خرطها فى امستردام وغيرها ويسمون الأحجار المصنوعة على هذه الطريقة أحجارا مركبة Pié_res Composée وثمنها بطبيعة الحال أرخص من الأحجار الطبيعية ولكن فى ظننا أن تلك الأحجار المركبة ليست إلا تكويناً كيمائيا يقرب من تكوين الأحجار الصحيحة .

ويحدث غش فى بيع الببغاوات الناطقة والطيور الثمينة وهذا ما يسمى فى الشريعة الإسلامية والقوانين الحديثة بالعيب الخفى ولها أحكام خاصة .

وبالجملة فإن هذا الكتاب أنفع الكتب لأهل التجارة والصناعة ولمن يعرضون أموالهم لشراء الأشياء فى السوق من حيوان ونبات بل إن الغش فى بعض الأحيان يتناول الزواج فى البلاد الشرقية كأن يقدم أهل الزوجة فتاة جميلة فيستهوى منظرها الخاطبة ويقدم على العقد عليها ثم يكتشفوا وقت الزفاف أن العروسة الحقيقية آية فى الدمامة .

(١٧) أونوريه دى بلزاك
فلسفة الزواج

يعد بلزاك من أشهر مؤلفى القصص الاجتماعى فى أوربا وهو

مؤسس مذهب الريالزم فى فرنسا أى انطباق القصة على الحقيقة ولم يعش أكثر من خمسين عاما ولكنه ترك تراثا مجيدا وهو مثل إميل زولا فى أنهما نشأ نشأة وضيعة وأسسا لنفسهما مجدا خالدا ، ويمتاز بلزاك أنه واصل العمل ليلا ونهاراً حتى قضى نحبه بين المحابر والأقلام وكان طموحا الى كسب المال بأسرع وقت مثل سير Walter Scott ولكن كلا منهما خانه التقدير فأفلس وقد أرغمته الاستدانة والتفكير فى المشروعات الخيالية مثل رغبته فى تصدير ستين ألف شجرة من الخشب الجيد البولونى إلى فرنسا ، فلما تراكمت ديونه أرغم على العمل المستمر فكان يعمل اثنتى عشرة ساعة كل يوم ولا ينام أكثر من ست ساعات ، وطريقته فى العمل أن يتيقظ عند نصف الليل ويشرب القهوة ثم يشتغل الى الظهر ، وقد استمر على هذه الحال من سن الثلاثين إلى سن الخمسين (١٨٢٩م - ١٨٥٠م) وفى هذه السنة مات وكان يلبس أثناء عمله رداء قسيس رمزاً الى قداسة التأليف ، فأخرج فى أقل من ربع قرن ٤٠ كتابا باسم المهزلة الإنسانية .

ولم يكن بلزاك فى العلم بأكثر من كاتب عند موثقى العقود ولكن عبقريته ودقة ملاحظته وحياة باريس وقرب عهدها بالثورة وتقلب الحكومات وعهد بونابرت وانتشار الأفكار الفلسفية والاجتماعية ومعترك السياسة

الحامى الوطيس كل هذه أعانته على إخراج كتبه ، ويمتاز أسلوبه بالجمل الفخمة والاستعارات الغريبة والمبالغات الشاذة ، وكان جمال الأفكار عنده يصطدم بعجز أسلوبه ولا سيما فى قصة زنبقة الوادى ففيها من جمال الأفكار وضعف الأسلوب مايظهر جهله بصنعة الكتابة ، ولكن بلزاك كان مفكرا كما كان هيجو شاعراً وقد حسب نفسه طبيب المجتمع الذى قسم له أن يجس نبض الجيل ليصف الداء للأدواء ويمزج قصته بخواطر فلسفية وملاحظات دقيقة ومشاهدات صادقه تعير الرواية روح الحقيقة .

وكانت عيوب كتبه كثيرة ولكنه فاقد الميزان يشبه فى ذلك النقص چورج صند فيسهب حيث يجب الإيجاز ويوجز حيث يجب الإسهاب وهذه كانت بعض عيوب مدام چورچ صند ، غير أن بلزاك كان أغزر مادة وأدق وصفا للماديات كأنه يغترف من بحر ويصف ظواهر الأخلاق ولا يتعمق فى علم النفس لجهله به ويثير العاطفة وينبه الشعور ويحرك الشفقة .

ولا يفوتنا أنه كتب كتاباً صغيراً من أعظم كتب الدنيا وهو قصة أوچنيه جرانديه تلك الفتاة الريفية الجميلة المعذبة العابدة الصابرة التى كافأها الله بعد طول الصبر مكافأة نادرة المثال فأظهر أونوريه قدرته على تحليل أخلاق المرأة ووصف الطهارة والعفة والصبر على الشدائد والثواب الذى ادخره الله لمثيلاتها ، أما محور القصة فيدور على أخلاق أبيها

البخيل ولا نظن أننا قرأنا في وصف البخل أمهر من بلزاك غير الجاحظ فى بعض فصول كتاب البخلاء وإن من يقرأ كتاب بلزاك لاينساه ، خذ مثلا أن هذا الوالد الفلاح الشحيح على كثرة ماله كان يقيس بالسنتيمتر الشمعة التى تضىء له في الظلام ليعرف كم استنفد من الشحم فى سواد ليلته ٠

ويبدو لنا أن البخل من أقبح الرذائل ومن أظهرها فى الأشخاص حتى أن كثيرا من الكتاب أتقنوا وصفه أمثال موليير وبلزاك ٠ لأن البخل هو الرذيلة الوحيدة التى تبدو على البخيل فى طعامه وشرابه وثيابه وأقواله وأفعاله وتخونه على الرغم منه كلما ازداد حرصا على إخفائها ، ولو لم يؤلف بلزاك غير هذه القصة لكانت كفيلة بتخليده ٠

ولم يكن لوصف الطبيعة مجال فى أدب بلزاك وإنما كانت كما تجىء فى فصول قصته كأنها مكتوبة اضطراراً وسداً لنقص لأن الذى كان يهمه قبل كل شىء هو الإنسان وتفكيره وأخلاقه وعواطفه وانفعاله وتأثره وخضوعه للأقضية والأقدار وكشف القناع عن حقيقة روحه وجسده ومعاملته للخلق شركائه فى المجتمع أو الأسرة أو فى العشق أو فى المال أو فى السياسة والحرب ، فكل همه أن يصور العلاقات الاجتماعية والطبيعة الإنسانية ٠

غير أن مما عابه النقاد على بلزاك أنه كان يزاحم التأليف الرخيص الذى يثير شرور القراء والذى راج فى عهده رواجا عظيما أغراه بتقليد من هم أقل منه بدرجات من أتباع مذهب الرومانتيه والدرامه أمثال أوچين (مؤلف خفايا باريس) واسكندر دوماس الكبير مؤلف الحراس أو الفرسان الثلاثة ومنت كريستو وغيرها من الخرافات ، فقلدهم بلزاك فى قصة المرأة بنت الثلاثين سنة وفى القضية المظلمة .

ولكن بلزاك كان عبقريا لاشك فيه على الرغم من قلة علمه ولكن عبقريته تبدأ عند الابتذال والرذائل ووصفه للمجتمع بتناول الطبقة الوسطى والشعب ، وخياله الفسيح سريع التركيب عديم التحليل يخلق الشخصيات ويهبها الحياة الظاهرة ، ومهما يكن عجزه وقصوره عن خلفائه أمثال پول بورچيه فإنه والدهم وشيخ طريقتهم ، فإن الشخص منهم يودعه بلزاك دافعا مفرداً قويا كالطمع أو الحب أو المجد أو البخل ثم يحركه ويجعل أعماله وأقواله منطبقة على هذه العاطفة أو هذا الانفعال الشديد ، ولكن كل أبطاله تقريبا سواء كانوا رجالا أو نساءً بهم لوثة أو شذوذ .

وهذا المؤلف كتب كتباً فى فلسفة الزواج نتيجة لاختباره وقياسا على أفكاره التى أودعها كتبه فلم يكن موفقا ، وكيف يوفق رجل لم يتذوق حلاوة الزواج ومرارته ولم تمكنه الدنيا من الاستمتاع بعشرة امرأه شرعية وتربية

أطفال صغار ، ونحن لاننكر أن وصف الزواج لايحتاج إلا ممارسة ويكفى للرجل الذكر أن يلاحظ ويشاهد ليكون قريبا من الحقيقة ، غير أن بلزاك يرى فى قسوة أن الزواج مؤسسة اجتماعية مادية اضطرارية وأن الزواج السعيد الناجح واحد فى الألف بالنسبه للزواج المخفق بالنظر الى عدم ملاءمة الأمزجة وتشعب الأطماع وتدخل الأهل والأصهار بين الأزواج ، غير أن بلزاك يريد الزواج سدادا لحاجة اجتماعية ووسيلة لاطمئنان الرجل الشريف القنوع وتنظيم حياة الأسرة فهو يخليه من كل عاطفه أو تساند أو تعاضد أو شعور متبادل ويجعله فرعا من مصنع كبير لإعداد الأولاد والبنات لخدمة المجتمع ، ليس للحب فى مثل زواج بلزاك أى أثر كبير أو صغير ، كما أن ليس للحفل فتنة فى نظره لأنه يرى العالم مجموعة مصالح ومنافع . ولا نرى لوما على بلزاك فى هذا النظر الشاذ لأنه لم يكن فيلسوفا أو زوجا لأنه قضى معظم حياته فى رعاية أخته .

وقد شاءت الأقدار أن تذيقه فى أواخر أيامه علقم الزواج ومرارته على أيدى امرأة نصابة دجالة ولئيمة محتالة هى التى تسمى الكونتيس دى هانسكا البولندية الجنس وقد خدع بها بلزاك وظنها نبيلة فأحبها على البعد كما اتصلت به بخطابات ومكاتيب فجسد له الخيال صورتها وبالغ فى الكتابة إليها حتى أن مجموع مكاتيبه جمعت فى مجلد بعنوان مكاتيب

الى الأجنبية ، ثم جاءت تلك الأجنبيه المنكودة إلى فرنسا ويظهر أن بلزاك فى أيامه الأخيرة تزوج منها فلم تراع له كرامة وتحفظ له شرفا ، وبينما كان يعانى هذا الرجل العظيم حشرجة الموت ويجود بأنفاسه الأخيرة كانت تلك الفاجرة تعاقر الخمر وتنشد الأشعار ، وكانت هذه الخيبة لآماله الأخيرة فى حياته لأنه لم يعش بعدها يوما ، وهكذا لقى بلزاك حتفه كما يلقاه كثير من النوابغ ، الجهد الطويل والأمل العريض والإخفاق الذى لا مثيل له ، وقد فنى هذا النابغ كما تفنى الشمعة بالاحتراق وترك لوطنه تراثا لا يبلى وولد فى أذهان أخلافه أمثال إميل زولا آمالا بعيدة المدى حققوا بعضها وتركوا تحقيق البعض لخلفائه .

(١٨) إداورد التـز

أمراض الجيل

أى أمراض القرن التاسع عشر ، أراد مؤلف هذا الكتاب أن يعرض صورة كاملة لمواطن الضعف ومعايب المجتمع فى القرن التاسع عشر ، فذكر اندفاع الحكومات الأوربية فى طريق الاستعمار تبعا لمبدأ داروين القائم على مبدأ التنازع وبقاء الأصلح والكفاح فى سبيل الحياة ..فظنت تلك الحكومات أو ظن زعماؤها أن الأمم الضعيفة غير صالحة للحياة وإن

كانت صالحة لها فلأجل أن تستغل وتستثمر لا لأجل أن تعان وتعضد وتنتعش ، ثم نظر الى انتشار المذهب المادى فى التفكير وتكالب الناس على المال وإهمال الروح والمعنى وظهور ذلك فى مؤلفات أمثال دى بوا الفرنسى الذى دعى قومه الى القسوة والظلم فى معاملة الأجناس الأخرى كالصين والعرب وسكان الجزائر النائية وانتقد تشويه المذهب الاشتراكى على أيدى بعض زعمائه وعنّف الأمم على إيجاد فلسفة عدمية تقضى على المعتقدات الدينية والفضائل ونسب انتشار المعايب الخلقية فى السياسة والأدب للقصص والتمثيليات التى استهتر مؤلفوها بالمثل العليا وجعلوا حوادثها تدور على الحب والطمع ، وتناول الحب فقال إنه ليس ماكان مفهوما فى الآراء القديمة فإنه عاطفة نبيلة يشترك فيها محب الله ومحب الوطن ومحب الأسرة ، ولكن الحب الجديد كما يصوره مؤلفو فرنسا هو من الأهواء الطائشة الضارة بل هو علاقة موقوتة تشبه فى مظاهرها مرض الحمى الذى يبدأ بارتفاع حرارة المريض ثم يصيبه الدوار والبحران (هلوسة) ثم تبدأ الحرارة بالهبوط ويدخل المريض فى دور النقاهة فيكون كمن أفاق من سكره ولكنه يفيق منهوك القوة مبدد الأوصال فاقد الشهية ولكنه يعتبره الطبيب قد نجا من الخطر ، ثم إن هذا الحب فوق هذا ينطوى على خيانات عدة وعلى اختلاط فى الأنساب وعلى اضطراب فى المجتمع

وقد يسبب جرائم لاتحصى ، ومن مظاهر هذا الحب الحديث أن المتحابين بالأمس يصبحان من أشد الأعداء فى الغد كما يبغض المريض الناقه أسباب دائه.

أما الحياة السياسية فقد نعى المؤلف عليها المطامع المادية والتعلق بأهداب السلطة واستعمال المناصب الكبيرة فى الاستغلال والاستثمار ووصف الصحافة الجديدة بأنها قرحة تنز فى صدر المجتمع وأنها أصبحت مرتعا للدسائس والتجسس وأداة فى أيدى رجال المال والأعمال ووسيلة لخداع الجماهير لابتزاز أموالهم وترويج أحط الصناعات والفنون والآداب.

ولما كان معظم المشتغلين بالصحافة فى هذا العهد أحط مستوى عقليا من كثير من قرائهم ، فقد انعكست الآية وأصبح الجمهور لايرى فى الصحافة قيادة للرأى العام ولا استفادة مما يقرأ وكان العهد بالصحافة القديمة أنها مظهر للرقى الاجتماعى والخلقى والأدبى ومصدر للخلق العام ومروج للإصلاح الاجتماعى والسياسى .

ولا ريب فى أن هذا يصدق على كثير من ممالك أوربا ولا يَصْدُق على بعضها الآخر ، فإن الصحافة الإنجليزية والألمانية مازالتا لمحافظتين

لكرامتهما حتى الجرائد الهزلية منها سواء أكانت منسوبة الى حزب المحافظين أو حزب الأحرار .

أما الصحافة التى يرثى لها فكانت فى فرنسا وهى رخيصة الثمن كثيرة التضليل ديدنها الكذب والفضيحة وقد قلدها الإنجليز فى بعض صحفهم ولا سيما التى أنشأها لورد نورث كلف سابقا فإن هذا الرجل صاحب المطاعم أراد التوسع فى النشر والطبع والتقرب من الجماهير بجعل صحافته شبه عامية تقرأها الدهماء مقابل نصف بنس « مليمان » ، وهذه الجرائد غزيرة المادة كثيرة الصحف منحطة الأساليب تفسح صدرها لفضائح القضاء فى محاكم الزواج والطلاق وتمعن فى وصف الجرائم الشهيرة والمحاكمات المدوية وهى فى طبعها وورقها تزيد عن أضعاف ثمنها والسر فى إمكان بيعها بثمن بخس يرجع الى ماكانت تربحه من الإعلانات التجارية التى فيها أكبر غش للجمهور لانخداعه فى شراء المجهزات الطبية وأدوات الزينة والأثاث الركيك الصنعة وغيره ، وكان مصدر نجاح مادتها يرجع الى مايسمى فى الأدب Sensantional أى مثير للعواطف ، ثم قال المؤلف إن هذه الأمراض أو أدواء المجتمع دليل على شيخوخته وتداعيه وقرب احتضاره وبعبارة أخرى سرعة زوال الحضارة الحديثة .

وإن الكتاب الذى نحن بصدده يشبه كتابين آخرين كانا لهما دوى عظيم أولهما غروب شمس الغرب تأليف أوزفلد شبنجلر المؤرخ الألمانى وهو كتاب ذو شهرة عالمية(١) .

والكتاب الثانى الانحطاط Degenerescence تأليف ماكس نورداو اليهودى النمسوى ، غير أن كلا من الكتابين الأول والثانى الذى نحن بصدده وكتاب غروب شمس الغرب الدافع إليها الإشفاق والتمجيد للحضارة والخوف عليها من الزوال .

أما الكتاب الثالث فلصدوره عن يهودى متعصب من أقوى أعضاء جمعية الصهيونية فملآن بالشماتة فى الحضارة الأوربية وقرب زوالها حسداً منه وحقداً وفرحا بزوال ملكهم وتقوض أركان دولهم وانهيار مجدهم ، لا لأنهم أناس بل لأنهم نصارى يبغضون اليهود ويتعصبون عليهم.

والفرق بين الكتب الثلاثة أن مؤلفى الأول والثانى درسا النظم الاجتماعية والسياسية ، أما المؤلف اليهودى الثالث فقد استنتج الانحطاط من الآثار الأدبية والمؤلفات الفنية لكل من مشاهير كتاب أوربا فى القرن التاسع عشر ، حتى تولستوى وهو ذلك الصالح الشيخ قد عدّ هذا المؤلف ومؤلفاته دليلاً على انهيار الحضارة مع أن هذا القول لو صح على فرنسا وإنجلترا فإنه لايصح على روسيا وهى دوله بكر وأمة شابة لم يتسرب

---

(١) انظر فيما يلى ما كتبه المؤلف عن هذا الكتاب ، ص ٧٣ - ٨٢ .

الفساد الى شعبها وإن كان مس الطبقة الغنية والحاكمة فيها .

ولكن المؤلفين فى مثل هذا الباب يشكرون عل كل حال فإنهم بمثابة منبّه وكتبهم بمثابة الناقوس الذى يدق تحذيراً من الخطر ، ولو أن جيبون الإنجليزى كان رومانيا واستطاع تأليف كتابه تاريخ انحلال وزوال الأمبراطورية الرومانية لتأخر زوالها أمداً طويلا وربما نهضت من كبوتها بهمة بعض رجالها الأفذاذ .

وقد اقتنع الإنجليز بصحة هذا الرأى فدرسوا العلل التى أودت بمجد الرومان ليتقوها فى دولتهم ، ولكن فى اعتقادنا أن الدول كالأفراد تولد وتنمو وتشب وتتوسط العمر كالرجل ثم تكتهل وتشيخ وتفنى ولو أن رجلا فردا عُمّرَ إلى درجة الخلود لعمرت دولة من الدول ، هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(١٩) أوزفالد شبنجلر

انحدار الغرب The Decline of the West (*)

يمتاز القرن العشرون الميلادى بأنه جمع تركات القرون السابقة

(*) مقال عنوانه « هل دنت النهاية ؟ انحدار حضارة الغرب فى فلسفة أوزفالد شبنجلر » نشر بمجلة فتى النيل فى ١٩٤١/٨/١٦ ، العدد ٣٨ ، السنة الثالثة ، كما نشر أيضاً فى مجلة اللطائف المصورة فى ١٩٤١/٨/١١ .

والحضارات السالفة والفلسفات القديمة بخيرها وشرها ، فقد كان القرن السابع عشر عصر أدب وأناقة ورشاقة وتعّبد للجمال ، ومن رجاله فردريك الكبير وكاترين الثانية ولويس الرابع عشر وشارل الأول وأوليڤر كرومويل ومدام دى ستايل وسڤينى ، وتركزت الحضارة في غرب أوربا ولا سيما فى فرنسا وانجلترا .

وبينما كانت فرنسا تسير فى طريق الفنون ولا سيما العمارة والأدب والشعر والتأليف المسرحى والبلاغة الخطابية ، وألمانيا منشغلة بعواقب الإصلاح الدينى على أيدى مارتن لوتير وكالڤن وإيزانجفيل ، وسويسرا مهتمه باستقلالها وتحصين بلادها وجبالها ، وإيطاليا مشرفة على الموت السياسى والأدبى بعد الشوط الطويل الذى قطعته فى عصر الإحياء ونهضة العلوم والفنون فى مدنها الكبرى مثل فلورنس (فيرنزة) وبولونيا وجنوى والبندقية وليفورنو وبيزا وروما مقر السلطة البابوية والملك الدنيوى بعد أن أنتجت قرائح مفكريها كتباً عجيبة مثل « الأمير » تأليف نيكولو ميكياڤيلى و « فنون النقش » لليوناردو داڤنشي و « ديكاميرون » لبوكاتشيو و « تاريخ الحياة » لبنفنتو تشيللينى ، وكانت قلوب بعض الرجال تغلى برغبة الإصلاح مثل جيرولومو ساڤوناورولا الفلورنتى الذى

سموه بالراهب المفتون لأنه ثار على فوضى الأخلاق واحتج على مفاسد المجتمع وحاول حكم وطنه «فيرنزة » بالفضيلة والقوة ، فكانت عاقبته الصلب وتقطيع الأعضاء ثم الإحراق وتذرية رماد جثته فى نهر الأرنو الشهير ، وكان الشعب الذى أراد له هذا الراهب الدومينيكانى الخير والمصلحة محتشداً ليشهد مصرعه الأليم ومصرع تلاميذه الثلاثة بين الضحك وغمز الأعين وتبادل عبارات الغرام وتحديد مواعيد اللقاء بعد المجزرة فى « أعشاش الجب » المنتشرة فى فيامارمارا أو ضاحية فيزوليه ولونجارو - نقول بينا هذه الأحداث تجرى فى أعنتها كانت الثورة على العرش واستبداد الملوك المطلقى الحرية تتأهب لتقييد الملك شارل الأول فى انجلترا ووضع حدود وسدود لإسرافه وتبذيره وعبثه بأموال الشعب ، فقاوم الملك مقاومة عنيفة وانشق الشرفاء عليه ثم أسفرت المعركة عن محاكمته والحكم بقطع رقبته ببلطة الجلاد فى « وستمنستر أبى » على قيد خطوات من البرلمان الإنجليزى ومن القاعة التى يتوج فيها الملوك ، وبها العرش والحجر الموروث من عهد ادوارد الثالث ٠

وانفرد كرومويل وأصحابه ذوو الرؤس المستديرة Round Head بالحكم ، فأذاقوا الشعب ألواناً من العذاب بعد أن طردوا ممثلى الأمة من مجلس النواب ٠

فى ذلك الوقت العصيب كانت فرنسا رازحة تحت أعباء الحكم الاستبدادى فى عهد لويز الخامس عشر خليفة الرابع عشر المسمى بالملك الشمس Le Roi Soleil ، وهو أشبه بالفراعنة المصريين الذين اتخذوا عبادة الشمس واندمجوا فى نورها ونارها ٠

وفى الحق كان الترف الذى يعيش فيه هذا الملك الشمسى لم يسبق له مثيل فى تاريخ العالم ، وماتزال أزياؤه وطراز قصوره فى البناء والأثاث قدوة فى أنحاء العالم حتى هذه الساعة بقوة الاندفاع والاستمرار التى تلازم كل جديد ٠

كانت الأنانية والأثرة هما السائدتين فى هذا العصر ، فكان الملك يتيقظ فى الصباح فى حضرة كبار الوزراء والأمناء و « التشريفاتية » على أنغام الموسيقى ، ثم يلبس ثيابه الملكية فى موكب أشبه بزفاف العروس ، ولكل شريف ونبيل وشريفة ونبيلة خدمة معينة وقطعة من الثياب يتعهدها بوصفه « شماشرجى » الملك ، فهذا يتولى تقديم الجورب والحذاء ، وتلك القفاز وزراير القميص ، ونبيلان لتقليده العقود والقلائد والأوسمة ٠٠ ثم يشرفون على إفطاره ، وبعده يقدمون له أنواعاً من الاحترام لاتقل عن العبادة التى كانت تقدم منذ ألوف السنين للعجل آبيس !

ولم يكن نصيب الملكة بأقل من نصيب الملك ٠

فنهض ڤولتير وروسو ومالبى وكوندورسيه وديدرو ووثبوا وثبة خطيرة ، فاتجهوا الى انجلترا وقرأوا كتبها ودرسوا نظمها وتشبعوا بروح الثورة فيها ودهشوا إذ رأوا الإنجليز يقطعون بقسوة فادحة رأس ملكهم بمحاكمة وجيزة لم تتجاوز ربع ساعة وهم الذين كانوا يحوطونه بالاحترام.

ولكن كل واحد من هؤلاء الحكماء اختط لنفسه خطة نفذها لآخرها، فاتخذ ڤولتير التهكم والنقد الجارح واتصل بالبابا وبالملك هنرى الرابع وبالملك فردريك الكبير فى بروسيا ونظم الشعر فى مدح الملوك تقرباً لينال القوة فى وطنه ، وألف كتاب « كانديد » أو « الرجل العبيط » الذى يُسام أنواع العذاب وألوان المظالم وهو راضٍ قانع ، يرى أن الأمور تسير على أحسن منوال فى خير العوالم ، وعبارته الشهيرة Tout va pour le mieux dans le meilleur de mondes ، فأثر بتهكمه تأثيرا كبير فى الشعب .

أما چان چاك روسو الفيلسوف الشارد ، فقد طعن فى الصميم بصراحة منزهة عن اللف والدوران ، فألف « أسباب التفاوت بين البشر » و« العقد الاجتماعى » و« ملاحظات قسيس من سافوا » و« لانوڤيل هيلويز » و« إميل القرن الثامن عشر » وختمها باعترافاته ، فهدم بهذه

المعاول القوية أسس الاستبداد وأقام بناء الحرية فى وطن غارق فى الفوضى .

وفى سنة ١٧٨٩ استحكمت حلقات الأزمة السياسية واشتعلت نيران الثورة الفرنسوية على نسق الثورة الإنجليزية وقتل الملك والملكة والنبلاء ، وقام بونابرت فنشر مبادىء تلك الثورة فى العالم الغربى والعالم الشرقى .

وكان السبب المباشر فى الثورة غفلة الملك لويس السادس عشر وعناده وضيق صدره وجبن مستشاريه الذين كفوا عن إبداء النصح إليه ، دع عنك إسراف الملكة وفضائح القصر كقضية العقد وجوع الشعب وفاقته وأنانية الأغنياء والسراة .

وقد غرقت فرنسا وأوربا فى بحار من الدماء ، وظهرت المحكمة الثورية Tribunal revolutionnaire التى أجهزت على كل مفكر وأديب وعالم لأبسط مخالفة ، فلما أعوزتها الأدلة على الاتهام كانت تلفق الأدلة تلفيقاً ظاهراً لتقضى على البقية الباقية .

يقول اوزفالد سبنجلر فى كتابه انحدار الغرب The Decline of the west الذى نحن بصدده « إن الفرق بين الثورتين الفرنسية والإنجليزية هو نفس الفرق بين أخلاق الأمتين ، فالفرنسيون يكثرون من

الكتابة والكلام والتهويش والجدل والنقاش البيزنطى والخطب ، والإنجليز أهل صمت وسكون وتدبير وأفعال لاتسبقها أقوال البتة أو ماتقتضيه الضرورة القصوى ، وإن ما اتبعه الشعبان بعد الثورتين ينطبق على ثقافتهما وحضارتهما المختلفة انطباقاً تاما» .

وتمتاز حضارة الشرق ولا سيما العرب بكثير من أفانين الفضائل الاجتماعية ، فقد اشتهر الشرقيون بالكرم والتعاون وتوزيع الصدقات والبر بالأيتام والمساكين ، كما أنهم يدعون فى بعض معتقداتهم وتقاليدهم القومية إلى الإيثار Altruisn ، ولو أن الإيثار وجد فى الحضارة الفرنسية لما جاع شعب باريس ذلك الجوع المحرق الذى ساقهم الى موكب الفاقة الذى سار نحو قصر فرسايل ، فلما رأتهم الملكة مارى انطوانيت وسألت عن سبب ضجتهم وضوضائهم وقالوا لها إنهم يطلبون الخبز ، دقت يداً بيد وقالت :

- يالهم من مجانين ! لم لا يأكلون الفطائر والمرققات gataux ؟

وقد كان المبدأ السائد فى الشرق فى أعلى أوقات حضارته هو القول الثابت « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، أى أن الشرق يعطى المحاويج وإن كان محتاجاً لما يعطى ويبذل ، وإن كان الذى يملكه قليلاً .

يقول أوزفالد إن الحضارة العربية المشرقة الفتية عندما جاءت الى العالم ، كانت حضارة رومة وأتينا قد تطورت الى مدنية Civilisation ، فخنقت الحضارة العربية فمنعتها النور والهواء وكادت تقضى على إنتاجها الحديث .

لقد انفرد أوزفالد سبنجلر بالتفريق بين هاتين الظاهرتين الكبيرتين فى حياة الأمم القديمة والحديثة وهو مايوجب الإقرار له بالفضل .

فالحضارة Culture فى نظره هى النهضة الروحية التى يتشكل بها الشعب فى نهضته ولا يصل الى درجة المدنية Civilisation إلا بعد أن ينتهى من هذا الدور الأول فيبدأ انحلاله ، ولكن هذا الانحلال يأخذ قروناً طويلة ، وفى معظم الأحوال تبدأ المدنية وتنتهى فى قرنين كما حدث فى مصر الفرعونية والدول الإسلامية فى بغداد والأندلس .

وقد وضع أوزفالد قانوناً بالأرقام والأعداد « هو الذى خصص له الفصل الأول من كتابه » ، وهذا القانون يدل على أن حياة الأمم ذات الحضارة والمدنية تشبه حياة الأفراد ، فلها ربيع وصيف وخريف وشتاء ، أى فتوة وشباب وكهولة وشيخوخة ، وقد تعمق فى هذا البحث تعمقاً شديداً .

ويجب هنا أن نفرق بين هربرت سبنسر وأوزفالد شبنجلر ، فهربرت سبنسر الفيلسوف الإنجليزى الشهير كان من أصحاب النظم System ، ولكن شبنجلر من أصحاب النظر الكونى Vision Universelle ، يرى سبنسر المجتمع كالكائن الحى له رأس ومناكب وأيد وأرجل وقلب خفاق ... إلخ . ولكن سبنجلر يصف الجماعات الإنسانية الكبرى فى سير حياتها . والفرق عظيم بين الرأيين ويحتاج الى دقة فى التمييز .

فإذا انتهت الحضارة ونضب معين الروح وجف عود التفكير الدينى والعقلى ، جاءت المدنية بالفنون والاختراعات والاكتشافات واتساع الآفاق الحيوية وأفلست النظم العادية التى ابتكرتها الأمم أثناء طور الحضارة ، ثم قامت ثورات سياسية واجتماعية منها حروب الطبقات التى بدأت من القرون الوسطى بسبب حياة المدن المستقلة التى أسستها طبقة البرجوازية ثم طبقة العمال الذين نشأوا فى المصانع بعد أن سلبت منهم الأراضى الزراعية ، واتجه الشعب إلى الإلحاد والكفر بنعم الحياة الهادئة البريئة ، وتطاحنت الأمم بعد تطاحن الأفراد والجماعات وقل الوفاء وانتشرت الشكوك والريب وانحطت الأخلاق وأصبحت الكلمة النافذة للمال لأنه مجمع الشهوات وأداة الأغراض ووسيلة الوصول إلى الشئون المادية التى تضخمت واتخذت شكلاً مخيفاً .

وفى روما ظهرت فكرة القيصرية وهى انفراد رجل ظالم بحكم الشعب ، فقضى المتآمرون على يوليوس قيصر ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء على من تلاه من القياصرة .

فيرى أروزفالد شبنجلر أن حياة المدنية الحاضرة تمتد إلى بضعة قرون حتى تصل إلى هذا الدور الأخير ، ولكن بوادر كثيرة ظهرت له وعوارض خطيرة تجلت فى كتابه . وفوق كل ذى علم عليم .

(٣٠) ماكس نورداو
الاكاذيب المتواطأ عليها فى المدنية الحديثة(*)

انهيار صرح الحضارة المادية ، وانتعاش الحياة الروحية ، كان هذا التعبير يقابل منذ ثلاثين عاما بالابتسام والسخرية ، وقد يرمى صاحبه بالكهانة الأفنة ، ويتهم بالشعوذة والدجل . لأن الإنسانية فى مجموعها قصيرة النظر وبحكم تركيب الفطرة البشرية ضعيفة الإيمان بكل جديد من الأفكار ، لنبوها عن قبول كل رأى حديث وتمسكها بكل عتيق ولو كان بالياً بائداً ، وقد ثبت فى نفوس الكثرة الغالبة أن صرح الحضارة المادية

(*) مقال بعنوان « نصيب الشرق فى نهضة الإنسانية فى المستقبل » ، منشور بمجلة الرابطة العربية ، ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٧ ، المجلد الثالث، العدد ٦٣، ص ١١ - ١٤ .

الحاضرة أعز من أن ينال وأمتن من أن تصيبه معاول الهدم والفناء .

كان ذلك صحيحاً فى الظاهر لأن القوة المادية والاختراعات الآلية وسيادة المال على الأذهان ، وابتذال كل ماهو سام وشريف فى سبيل المادة والملذات ، وخضوع القوى المعنوية للقوى المادية المحسوسة ، أقنع الناس بأن دولة المادة والقوة والمال تدوم إلى يوم الساعة ، وأن كل ماورد فى الكتب عن الفضائل والآداب والعواطف والمعانى الثابتة ليس إلا أساطير وقصصاً ، وغالى بعضهم فزعم أن النظم المعنوية وكل ماله علاقة بالخير والفضيلة والعدل والمساواة والصبر على الشدائد وانتظار الجزاء ليس إلا نظاما محكم التدبير وضعه طلاب السلطة وأنصار الاستبداد مستعينين فى ذلك برجال الدين ورجال الفكر لاستعباد الأمم والجماعات حتى يفوز الأقوياء بالنفوذ فى كل ناحيات الحياة ، حتى أن كاتباً يهوديا قوى الشكيمة ، ماكر الحجة ملتوى المنطق ، متقن الحبك انبرى لتأييد هذه النظرية الأخيرة فى كتاب ضخم اسمه « الأكاذيب المتواطأ عليها فى المدنية الحديثة »[١] ، وهو ماكس نورداو ، الذى مات أثناء الحرب العظمى فى إحدى مدن أسبانيا وقد ترجم هذا الكتاب الى كل اللغات الأوروبية

---

(1) Conventional Lies of our modern civilization .

وصار شبه إنجيل جديد فى نظر الملحدين والمجددين وأصحاب فكرة الحقيقة الراهنة realists لأن نظرياته تنطوى على جذور الشيوعية .

ولما كانت هذه الفكرة فى ذاتها تنفع المستعمرين وخاطفى الأمم من أهل المطامع الغربية ، وكانت أنظارهم متجهة نحو شعوب الشرق وأقطاره الغنية بالكنوز والثروات والخصوبة ، وكانت خطتهم أن يغزوا الأفكار قبل غزو الأمم ، فقد أبدعو فكرة اختلاف الأجناس البشرية وتفاضلها واستكمال بعضها عدد الحياة والقدرة على السيطرة دون البعض حتى يكونوا قواماً وأوصياء على الأمم الضعيفة ، فاخترعوا نظرية الجنس الأبيض والآرى والسامى والأصفر والأحمر والأسود إلى آخر الألوان والأشكال .

ويحضرنى هنا رأيان علميان لعالمين عاشا فى مصر خاصين بأصول الأمم ، أولهما رأى العالم الألمانى شفانيورث[1] الذى استنبط وسيلة للاهتداء إلى أصول الأمم عن سبيل نباتهم ، فقد زعم هذا الرجل أن المصريين يرجعون إلى الجنس العربى السامى النازح من اليمن ، وحجته فى ذلك تقديسهم الحاضر لشجرة الجميز ولأنواع النبات العطرى (البخور) وكلاهما يزرع فى اليمن .

---

(١) كان نباتيا قديما وأقام حينا فى حلوان وله مجموعات نباتية فى الجمعية الجغرافية .

والثانى سير ويليام ويلكوكس المهندس الشهير ، فقد خطب منذ كان موظفا فى الحكومة المصرية خطبة رنانة جاء فيها « إن العنصر المصرى منحدر من نسل أمة من أشرف الأمم فى العالم » وأنه يرى له مستقبلا زاهراً على الرغم من أنه لايمت إلى الجنس الأبيض بقرابة ، فوجب عليه أن يعرف ذلك وأن يؤيده بأعماله ، فإنه لاينقصه فى هذا إلا استقلال الأفكار والثبات على عظائم الأعمال التى تحقق أمانى الأمة وأنصارها ومعينيها من الأمم الشرقية الموالية الصديقة ، وأنه لايجوز للمصريين أن يتأثروا بما ادعوه من أن الجنس الأبيض هو المختار للسيادة وحكم العالم، وما استشهدوا عليه بأن الأمم الضعيفة إن لم تخضع لسلطان الأجناس القوية فإنها تهلك وتفنى عن آخرها كما حدث لأهل جزر أوشانيا وهنود أمريكا الحمر[1] ، وجاءوا بأسانيد علمية ولغوية .

وكان أول من طرق أبواب هذا البحث عالمان أوروبيان وهما ماكس مولر الألمانى ، وأرنست رينان الفرنسى وليس هنا مجال الإفاضة فى نظريات هذين العالمين ، ويكفى للتدليل على تساهل بعض أدبائنا (ولا نقول غفلتهم) أنهم أقاموا حفلة تكريم وإحياء لذكرى رينان الذى قال عن الجنس السامى ماقال من المعايب والنقائص فى أخلاقه وآدابه !! .

---

(١) مع أنهم هم الذين أفنوهم بالخمر ورصاص البنادق .

وتبعهم ثالث سكسونى الأصل ألمانى النشأة وهو هوستون شامبرلين فألف كتاب « أسس القرن التاسع عشر » وقد حمل فيه على كل الشعوب القديمة والحديثة ماعدا الجنس التيوتونى وقال إنه هو الجنس الأفضل والأذكى والأشجع والأحكم والأقدر على سيادة العالم ، وقد استقرت هذه الفكرة فى رأس زعماء ألمانيا الحديثة ولاسيما غليوم هوهنزولرن (صاحب الجلالة الامبراطورية سابقاً) فكانت من أهم أسباب استعداده للحرب لاكتساح أوربا والقضاء على السكسون والبقية من اللاتين والسلافيين ، ولو اقتضى ذلك تحالفه والترك والعرب والمصريين[1] ولكن هذه النظرية لم تؤيد ، وتلك الآمال لم تتحقق ، وكان عالم ألمانى آخر يعمل فى هدوء وثبات ليخرج للعالم نظرية جديدة مدعمة بأدلة العلم والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، مؤيدة بالإحصاء والتعداد ومنطق الأرقام الذى لايخطئ ، هذا العالم هو « أوزفالد شبنجلر » صاحب كتاب «انهيار صرح الحضارة الأوربية» وهو كتاب ضخم فى أكثر من ثلاثة آلاف صفحة ، وقد نقل من الألمانية الى الإنجليزية وثم يتم نقله الى الفرنسية فيما نعلم . وإن كان البلاشفة الروس قد نقلوه الى لغتهم ليأخذوا منه دليلا على فساد الحضارة الرأسمالية وأن بيدهم وحدهم إنهاض

(١) هوستون شمبرلين لايمت لأسرة شامبرلين السياسية المعروفة بانجلترا وهو ابن أمير بحرى هاجر منذ نعومة أظفاره وأقام فى ألمانيا .

الإنسانية تبعا لمذهبهم وخططهم فى العمران ، لأن كتاب روسيا البلشفية لايعتقدون أن الإنسانية تفنى عن آخرها لتبعث يوم القيامة ، ولكن يعتقدون أن لكل أمة قيامتها تقوم عندما تتلاشى قواها وتنحل بالتدريج بعد القوة والسلطان ، ويضربون لذلك أمثال الحضارة اليونانية والرومانية (كتاب جيبون ، تدهور وانحلال الرومان) ومونتسكيو (روح الشرائع) وفوستان دى كولانج (المدينة العتيقة)(١) ، وقد صح فى زماننا الحاضر انهيار دول كانت قوية (الدولة العثمانية) والقيصرية الروسية كما انهارت معظم الدول الإسلامية فى بغداد والأندلس ومصر واليابان القديمة (قبل زيارة الأسطول الأمريكى بقيادة الأميرال بيرى) ودول الهند البرهمية والبوذية والإسلامية ، كانت أوربا بالمرصاد لكل من هذه الدول لتستولى عليها بالحرب أو بالحيلة ولم يفلت من أظفارها الناشبة إلا سيام وكوريا (التى التهمتها اليابان تطبيقا لمبدأ حسن الجوار على النمط الحديث !) .

وفى أثناء هذه العواصف التى اجتاحت الشرق كان بضعة رجال متمسكين بأهداب الأمل ومستنيرين بشعاع ضئيل من نور الحكمة الإلهية فقالوا وكتبوا وخطبوا بأن الحضارة المادية آيلة الى الزوال وأن يوم الشرق

---

(١) هذه الكتب الثلاثة اتبع مؤلفوها طريقة البحث التحليلى والدرس التعليلى فى أسباب انهيار المدنيات الاوربية القديمة .

مقبل لاشك فيه وأن الظواهر خادعة ، ولابد أن تختلف دول الغرب فيما بينها على الأسلاب فتتقاتل وتتطاحن حتى تزول وتعود كالعرجون القديم ، وفى مقدمة هؤلاء الرجال المرحومون الأفغانى والكواكبى ومحمد عبده ومهاتما تيلاك ، ولذا فإنهم وقفوا أعمارهم الغالية على العمل لتحقيق هذه الأحلام العليا(١) ، وقد قضى بعضهم نحبه وهو لم ير فجر هذه النهضة لأنهم لم يدركوا الحرب العظمى ، وماتلاها من الويلات ، التى هى فى خير الشرق ، فنهضت اليابان والهند وفارس والعراق ومصر وسوريا وأفغانستان وبعض بلاد افريقيا الشمالية (تونس والجزائر) وهذه بلاد كانت أوربا (وكثير من أهل البلاد أنفسهم) تعتقد أن قيامتها قد قامت ولن تبعث أبدا ولن تعود مطلقا الى سجل الحياة .

لم تكن نتائج الحرب العظمى ومهما يكن الذين أشعلوا نارها وأثاروا نقعها كاذبين فيما ادعوه عند تورطهم فهم سينصفون الأمم المغلوبة من ظالميها ، فقد تحققت وعودهم بالرغم من أنوفهم فإنهم وإن أعانوا على هلاك بعض الدول الشرقية فقد حلت محلها بضع دول فى مجموعها أقوى من الدول الذاهبة لو أنها خرجت من الحرب ظافرة ، على رأسها العراق والحجاز واليمن وسوريا وجمهورية تركيا الحديثة فى آسيا وأوروبا وبلاد

---

(١) لم يحاول أحد من الكتاب تحليل سقوط الدول الإسلامية .

العرب ، وانقسمت أوروبا على نفسها وتمزقت أعضاء امبراطورية النمسا (وهى بقية الدولة الرومانية الغربية) واستقلت بولونيا وفنلندا ، وخرجت روسيا من وصاية أوروبا وأعلنت عليها حربا شعواء لأنها تريد أن تقضى على حضارتها الرأسمالية .

وإذن تكون أوروبا قد خرجت من حرب الأربعة عشر بعد التسعمائة والألف أضعف مما دخلتها حاملة فى أحشائها أجنة من المتاعب والمشاكل والحروب سوف تقضى كما قال « أوزفالد شبنجلر » على حضارتها التى هى بمثابة عملاق يترنح alottering giant بفعل الخمر والمرض والفاقة.

ومن أكبر الدول الشرقية التى تستعيد حياتها الهند ، فقد قرر أخيرا حزب المؤتمر الوطنى الهندى الاشتراك بنصيب فعلى فى إدارة شؤون الهند وهو حدث من أعظم الأحداث فى تاريخ نهضة الشرق ويرجع معظم الفضل فيه الى قوة شخصية غاندى التى لا يكاد يصدقها عقل وسوف يستطيع الهنود الآن أن يظهروا مزايا الحكومه الديمقراطية فى إحدى عشرة نقطة مختلفة على الرغم من أن دستور الهند الجديد بعيد عن الكمال لانطوائه على أخطاء مقصودة كان يمكن تجنبها وأهمها سلطة الإلغاء التى يتسلح بها حكام الولايات Droit de Veto ولكن قليلا من التفكير العملى سوف يتغلب على هذه الصعوبة التى وضعها مشترع

الدستور بمثابة الشوكة الغليظة فى حلق البرلمانات الهندية ، فإن الحيلة القانونية والتفسير الملائم ولين العريكة تارة والصلابة طورا سوف تفوز فى النهاية على مكر البيون الشهير.

فإذا ألقينا نظرة فى سنة ١٩٣٧ أى بعد ربع قرن من تاريخ الحرب العظمى على العالم ، وجدنا أمرين مدهشين يؤيدان قولنا :

الأول اختفاء الديمقراطية فى إيطاليا وألمانيا . وفى انجلترا أطلت الرجعية برأسها وسببت إبعاد ادوارد الثامن . أما فى أسبانيا فلا يزال مصيرها معلقا فى يد القدر .

فنصف أوروبا واقع تحت يد الرجعيه الحديدية التى تخلع فى كثير من الأحوال قفاز المخمل التى تخفى وراءه أظافرها الفولاذية (سقوط وزارة ليون بلوم) وإن هذه الرجعيه إثمها أكثر من نفعها على الأمم الخاضعة لها ، فايطاليا نظمت شؤونها الداخلية ولكنها خالفت شروط الإنسانية والقانون الدولى فى اغتصاب الحبشة ، وقد حمل زعيمها الدوتشى حملة شعواء على جمعية الأمم وهى البقية الباقية من تركة المأسوف عليه وودرو ويلسون (راجع مقالا للدوتشى فى جورنال إيطاليا ٢٤ يوليو سنة ١٩٣٧) .

أما فى ألمانيا فإن الرجعية النازية استطاعت حيال ضعف أوروبا

وعجزها أن تمحو معاهدة فرساى من سجل السياسة الدولية . فهذه حسنة سياسية عادت على الشعب الألمانى وحده ، ولكن محو هذه المعاهدة لم يمنع أوروبا من التسلح الجنونى والاستعداد للحرب من جديد ولكنها أى حرب ؟ فناء بلا ريب[1] .

الثانى – الشرق كله يتقدم نحو الديموقراطية فى فارس وتركيا والعراق وأفغانستان وسوريا ومصر والهند .

وهذه الدول تسير سيراً حثيثاً نحو الحرية والمساواة وإذن يكون دور نهوض الشرق قد حل على الرغم من أوروبا التى تسير نحو الرجعية والانحلال . لأن الفاشية والنازية نظامان يشعران بالعجز فالعالم كان يسير بطبيعته نحو الانطلاق من القيود والتحرر من السلاسل التى كبلته بها المنافع المادية والمعتقدات التى تلابس الأديان وليست منها فى شىء والسلطات المصطنعة التى يتحكم بها الأفراد فى أعناق الشعوب ويستغلونها لمصلحتهم ولو الى حين . وكل ماكان معادياً أو معانداً ومعرقلاً للسير فى طريق الحرية فهو بطبيعة المنطق والحق والتاريخ معطل لسير الإنسانية ومعاكس لها . وإذن يمكن التفاؤل بأن ديموقراطية الشرق سوف

(١) كتب المؤلف هذا الكلام قبل نشوب الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ بحوالى سنتين .

تنقـذ شـعوبه وتنـهضـها وتقيل عثرتـها وقد تنقذ ديموقراطية أوروبا من الخطر .

ولكن الخبيرين بأحوال الشرق والغرب والمخلصين للشرق والأمم المتحالفة ينصحون لنا بأن لانتعجل وأن لانغتر فإن العجلة والغرور من أدوات الهلاك وأن نزن خطواتنا على قدر قوتنا ، وأن ننزع من رؤوسنا الاعتقاد بهلاك تلك الشعوب ذات الحضارة العريقة بين عشية وضحاها ، فإنها لاتزال قوية وقادرة على النضال ، وطائلة اليد فى السلم والحرب ، وأن أقصى مايمكن أن توصف به فى حالتها الحاضرة ، أنها فى حالة سبات أو انهاك ، لا فى حالة ضعف أو هلاك فإن دولا أخرى بدت عليها علامات الضعف ولكن قوتها الكامنة وتشبثها بالحياة واحتفاظها بكرامتها نفخت فيها روحا جديداً ويأساً ويطشاً لم يكونا لها من قبل فالذى يفتى بالفناء يجهل شروط الحياة فى الأمم ولعل الوقت الذى يقتضيه إصلاح شؤوننا واستعدادنا للنهوض ، أطول مما يحتاج اليه الدهر فى طور الانحلال والأضمحلال لتلك الحضارة الضخمة ، والعقل يقتضى أن نتجه نحو صلاحيتنا لا أن نترقب هلاك الآخرين ، فإن الذى يترقب هلاك الآخرين ويبنى آماله على انتهاب تراث الموتى قد يهلك قبل أن يرى نهاية غيره .

(٢١) ديو دونيه

هل تستحق السلطة مايبذل فى سبيل الحصول عليها وهل يستفيد طالب الحكم فائدة تعدل مايلحقه من الأضرار ٠

هذا كتاب يعالج موضوعا واحداً محصوراً فى دائرة ضيقة وقد شهد كاتبه الفرنسى سقوط الوزارات فى فرنسا وتغير الحكام والدول فحرص على أن يدرس مايبذله الخطباء ورجال السياسة فى الوصول الى الوزارة وتعليق الآمال على طول تعهدها ثم زوالها بسرعة البرق ، وقد استعرض كثيرا من تلك الوزارات وكثيرا من شخصيات الوزراء أمثال إميل أوليڤيه الذى حدثت فى عهده حرب السبعين وليون جامبتا وسروتيرس وكليمانصوه وچول فرى وديل كالسيه وغيرهم وجزم بأن اللعبة لاتستحق الشمعة التى تحرق فيها ٠

(٢٢) چيمس جويس

عولس أو يوليسيز Ulysses

زعم بعض النقاد أن چيمس جويس أراد بكتابه « يوليسيز » الرمز لحاله وحالة بلاده أيرلندا فى أذيال القرن التاسع عشر وفجر القرن

العشرين ، وموقفه من أهل زمنه ومعاصريه ، وموقف وطنه من دولة بريطانيا الحاكمة المستولية المتحكمة فى أهله وقومه .

وقد أخطأ النقاد فى فهم الكتاب وصاحبه ، واصطلح الأعداء والحسّاد على مقاومته ومحاربته ومطاردته واضطهاده والكيد له ، واجتمعت على المؤلف وعلى الكتاب ضغائن الأقوياء من أهل الدولة وأذناب الحكومة وذوى الجاه وحماة الدين ولا سيما المتنطعين وغلاة الكثلكة وأنصار الباطل وأعوان المظاهر وطلاب العيش بتمليق السلطات السائدة فى كل أمة .

وكذلك اجتمعت على المؤلف وعلى الكتاب أحقاد الضعفاء من أهل الحرفة الذين لم ينالوا شأوه ولم يبلغوا درجته ولم تحدثهم أنفسهم بالوصول إلى ذروته ، فصاروا أعداء له وخصوماً لكتابه وأدبه وفنه وأسلوبه .

وكان جيمس جويس بطبعه وفطرته إنساناً حراً كريماً رحيماً عفيفاً شريف النفس طاهر الطوية ، رأى الظلم الذى ضرب بجرانه على وطنه فحرم أهله العدل والرحمة والرخاء والحرية والتعليم ، فكثرت الخطوب والمحن وانتشرت الفتنة .. فكانت من ثمرات هذه المعرفة بضعة كتب أعظمها كتاب يوليسيز وهو أفخمها وأبلغها وأنفعها وأحكمها وأصلحها وأصدقها وأصوبها وأجملها وأعرقها .

كانت خبرة چيمس جويس بأهل وطنه وبالإنجليز الحاكمين خبرة تامة شاملة .. فانحطت قيمة الإنجليز فى عينه واحتقر مكانتهم وجهالتهم .. وكان أشد مايؤثر فى نفسه الناشئة مايرى من استعلاء الإنجليز على أبناء وطنه الأيرلنديين وظلمهم إياهم واستعبادهم وعدم الاكتراث لأمنهم وسلامتهم بل حياتهم وإخماد ما كمن تحت رماد العبودية من نخوتهم وهمتهم .

وازداد الأيرلنديون على كرّ الليالى ومر الأيام هواناً وذلاً على الرغم من الفتن والثورات والمؤامرات السرية والاغتيال السياسى والإرهاب والنهضات التى قام بها بعضهم جماعات أو أفراداً فى أيرلندا وفى بلاد الإنجليز نفسها .

كان چيمس جويس يرى هذا كله ويلمسه ويلامسه ويحسّ به ويشعر دون أن تطمئن نفسه الى شيء منه .. فعكف على نفسه وانطوى عليها حتى كأنه يعيش فى عالم مقصور على ذاته .. يبغض الإنجليز لظلمهم وعنجهيتهم وصلفهم وغطرستهم ، ويبغض الأيرلنديين لاستكانتهم وذلهم واستخذائهم ، فكانت عيشته عيشة منكرة وحياته جحيماً مستعراً ، فهو لايطمئن الى أهله لأن بعضهم متدين مفرط فى التدين ولا إلى رفاقه لأنهم أيرلنديون مستذلون يطمحون إلى تقليد السادة والإنجليز طمعاً فى العيش

على فتات موائدهم ... وهو من أجل هذا كله ومن أجل إصراره وصحة عزيمته ووحدة نبته على بغض المظالم والثورة على النظام ومباعدة الدين ، فقد فَقَدَ حب أهله وعطف أسرته إلا حنان تلك الأم المريضة . ولحنان هذه الأم وعطفها ومرضها ونزعها ثم موتها وذكراها قصة أى قصة فى كتاب يوليسيز ..

وقد انتهى الأمر بجويس إلى جامعة أيرلندية فأخذ نفسه بنظامها بعد مكافحة طويلة ومشقة بالغة وعناء لابد منه ليحصل مايجب عليه تحصيله .. ولم يكد يتبحر فى العلوم والآداب حتى فتحت له آفاق جديدة وحتى استيقن أن لا مقام له فى هذا المجتمع الأيرلندى وأنه مضطر الى أن يتغرب ليحيا حياة ممكنة محتملة .

ويكفينا أن نعلم أن جويس رضى بكل ما لقيه من العنت والمشقة فى سبيل الهرب بنفسه وبزوجته الى جو يستطيع أن ينمو فيه نمواً حراً ، وقد أتيح له ذلك آخر الأمر بعد أن عمل أستاذاً للغة والأدب فى إيطاليا وحاسباً فى مصرف بروما ومؤلفاً غير مأجور فى لندن ودبلن وطالب علم لم يفز بطائل بعد طول الدرس فى باريس .

وقد هال چيمس جويس عندما تفتحت عيناه على الحياة فى لندن وباريس تلك الغفلة التى يعيش فيها العالم المتمدن فى الشرق والغرب

بالقياس الى تلك الأمبراطورية الضخمة الفخمة المهولة التى سادت العالم مائة وخمسين عاماً وسادت أيرلندا سبعمائة سنة ، فالناس فى الشرق والغرب كانوا يرون بريطانيا نموذج الحضارة ويتخذونها مثالاً للرقى وهى مع ذلك ترى ملايين من الناس يسامون أشنع ما يُسام الناس من ضروب الذل وأبشع مايقاسون من الخسف والعسف والهوان ، ثم إن تلك الدولة البريطانية لا تنكر ذلك بل لا تحاول إنكاره ولا تغييره ، وقد فطن چيمس جويس إلى هذه النكبة وحاربها وقاومها وحاول أن يوجه ضربات معوله إلى جدران ذلك البناء الشامخ ليهدمه من أساسه .

ونعتقد أنه ليس محض المصادفة فى اقتران حادثين فى تاريخ واحد هو سنة ١٩٢١ ، ففى تلك السنة طبع كتاب جويس « يوليسيز » للمرة الأولى وفيها تحررت أيرلندا بعد سبعة قرون .

حرام على من يعيش فى هذا الزمان ويعرف اللغة الانجليزية معرفة حسنة أن يحرم نفسه من قراءة كتاب يوليسيز لچيمس جويس ، بل إن هذا الكتاب خليق بأن يتعلم الرجل فى سبيل قراءته تلك اللغة إن كان يجهلها ، فإنه كفيل بحسن جزائه على كل ما أنفق من جهد ومال وأيام فى سبيل الوصول إليه .

إن هذا الكتاب متحف بل كنز بل مدينة بل كوكب .. وهذا الكاتب

الأيرلندى أصلاً الكاثوليكى ديناً العالمى موطناً ، الهارب من لكاعة مواطنيه الفار من ظلم حاكميه الثائر على خمول والديه ، الناقم على الناشرين والطباعين والوراقين والسراقين الذين استغلوه ، المحتقر لناقديه والحاقدين عليه ، أحببته قبل أن أقرأ كتابه ، فلما قرأته فى مدى أربع سنوات على شاطىء البحر وفى سكون الليل وفى قيظ النهار وفى وحدة غرفتى ، استغنيت به عن كل كتاب فى الأدب والفن وأحببت مؤلفه مائة مرة .

لم يكن فى اللغة الانجليزية أو غيرها من آداب أوربا أدب حى كما نفهمه اليوم حتى ظهر كتاب عولس ، وإننى لأضحك ممن يعده كتاباً بذيئاً فيؤاخذ الرجل على حرية فكره ومواجهة الحقيقة والجهر بكل مايقوله الناس ويشغل بالهم فى صحوهم ، لأن جويس خلع نير العبودية الجيزويتية لا العقيدة المسيحية الصحيحة ، وهذا المظهر الإلحادى الذى بدا فى بعض نبذ عولس لايدل على ردة جويس ولكن يدل على نضجه الروحى وكفاحه فى طريق الدين الصحيح من ناحية ، وفى طريق الفن من ناحية أخرى .

لقد تمرد جويس وثار على ثقافة أمته وعلى نهضة إحياء اللغة الأيرلندية وسعى إلى الفرار من الدين والثقافة الأيرلندية والوطن الأيرلندى المكبل بقيود الاستعمار الإنجليزى ، والتمس النجاة فى آفاق أرحب

وأخصب وأنور وأبهى فى القارة الأوربية ، فى فرنسا وايطاليا وسويسرا ، وهذه الثورة لم تذهب بإيمانه وإن ظهرت بعض آثارها فى كتابه عولس ، وبقى نادماً طوال حياته لأنه عصى مشيئة أمه المحتضرة عندما طلبت اليه أن يركع بجوار فراش موتها ويصلى الى الله من أجلها فأبى ، وظل شبح الأم يطارده الى أن لحق بها بعد الخمسين من عمره .

هذان هما المأخذان اللذان أخذهما بعض المتنطعين على جويس ، مخالفة الآداب والتصريح بأمور يجب فى وهمهم أن تكتم عن جمهور القراء خوفاً على فضيلة الحياء أو حذراً من الإباحية والثورة على بعض المظاهر الجيزويتية التى تمت الى الكثلكة لا على جوهر الدين المسيحى نفسه .

وهذان المأخذان قد فحصهما القاضى الأمريكى چون ولزى الذى أصدر حكمه بجواز طبع الكتاب ونشره وانتفاع صاحبه ببعض جهوده ، ولذا خسرت جمعية أنصار الدفاع عن الفضيلة قضيتها التى رفعتها عليه خسارة مجلجلة فرح لها كل الأدباء فى القارتين ، وأعادت إلى ذاكرة النقاد القضية التى رفعتها النيابة العامة على جوستاف فلوبير عقيب نشر كتابه العظيم « مدام بوفارى » بتهمة أنه خدش الحياء وأساء إلى نظام الأسرة ورباط الزوجية المقدس بوصف الحب المكشوف فى حياة زوجة صيدلى تهتكت فى عشق شاب من الأعيان فأصدرت محكمة باريس العليا

حكمها بالتبرئة والتهنئة وأنبت النيابة العامة على قلة فهمها وعدوانها على كرامة الأديب الكبير .

كان جويس من شوامخ أعلام البيان فى الغرب قديما وحديثاً ، لم يبلغ شأوه كاتب ناثر فى إحدى اللغات الأوربية ، كان يكتب ويروض الألفاظ ويطوعها فيقرنها الى نير الفكر ويخضعها ويحسن تكتيفها، فإن أعوزته ألفاظ للدلالة على معنى دقيق فإنه يسك الألفاظ ويضربها كما تسك النقود وتضرب الدراهم فتخرج الألفاظ من مصنع فكره حاملة رسمه واسمه وطابعه كما تخرج الدنانير مسكوكة بأسماء الدول ، حتى استغنى عن أوائل الأسطر وعلامات الوقف والوصل والفصل والاستفهام والتعجب ، وهى الأدوات التى لايستغنى عنها كاتب أو قارىء ، حتى تكاد صفحات من كتابه تكون كأنها صفحة مكتوبة بالكوفى القديم مبهمة غير معجمة كما فعل فى مناجاة زوجة ليوبولد بلوم بطل الكتاب وهى أعجب أسلوب من المناجاة الذاتية ونعدها أبلغ وأقوى وأبهر ماكتب فى اللغات الأوربية قديماً وحديثاً فى دلالتها على النفس البشرية ولا سيما نفس المرأة فليرجع اليها من يشاء فى نسخه المطبوعة سنة ١٩٣٠ بمطبعة شكسبير وشركاه ، أو فى مطبوعاته الحديثة فى سنوات ١٩٣٤ ، ١٩٤٢ بنيويورك .

أعرض جويس عن اللغة الأيرلندية القديمة وأقبل على

الأنجلوسكسونية لا حباً بها ولا تمجيداً لها ولا بغضاً لوطنه ولا حباً بالمستعمرين المحتلين الطغاة ولكن خوفاً على ايرلندا إن هي بالغت في إحياء لسانها القديم الميت أن تنقطع الصلة بينها وبين الحضارة الحديثة وبين الناطقين بالإنجليزية وهم أربعمائة مليون من الخلائق في الجزر وأمريكا واستراليا وزيلاند وشرقي افريقيا وجنوبها ، وهو يحب لوطنه مسايرة الحضارة لا الوقوف والجمود والفرح بالحرية السياسية والاستقلال الذاتي ٠

كتب جويس كتابه يوليسيز في سبع سنين (١٩١٤ ـ ١٩٢١) وترك الأبطال والشخصيات يتحدثون إليك على سجيتهم بتداعي الأفكار ومناسبتها وتأثير المرئيات والمسموعات على الذكريات القديمة والرغبات المكبوته والأماني المرتقبة التي يخجل المرء والمرأة أن يبوح بها ٠

هذه المناجاة الباطنة أو « المونولوج انتريور » هي التي أقامت الدنيا وأقعدتها ، فزعم حاسدوه ونقاده أنه مقلد لادوار دوجاردان الكاتب الرمزي ولمارسيل بروست القصاص الفرنسي ٠

والمناجاة الباطنة هي ذلك الحديث الذي لايقال ولا يسمع لأنه يجري بين الإنسان ونفسه ٠٠٠ دون تقيد بالتسلسل الزماني أو المكاني أو التتابع المنطقي ، فقد ينتقل العقل من الحاضر إلى الماضي إلى المستقبل في لمح

البصر أو أقل ، فالزمان بأقسامه الثلاثة يتداخل ويفقد معناه ، بل كذلك تختلط الأمكنة اختلاط الأزمنة ، وقد يتداخل الزمان فى المكان ويصيران شيئاً واحداً . وما يقال عن الكلام يصح كذلك عن العواطف والانفعالات والأحاسيس والصور الذهنية .

هذا العمل الضخم العظيم الصعب الجليل الجميل المنهك اللذيذ الثمين النادر الذى قام به چيمس جويس فى كتابه عولس أعطانا صورة كاملة لحياة مئات من الناس فى مدينة دبلين يوم الخميس ١٦ يونيه سنة ١٩٠٤ لمدة ثمانى عشرة ساعة[١] ، وانطق أبطاله الذين لاعدد لهم والذين حشدهم بما شاء من نقد لاذع وسخرية محرقة وهجاء موجع لأعدائه ، وهم أعداء العدل والحق والجمال وفى مقدمتهم قوم من بنى وطنه وآخرون من حكامه المستبدين المتنطعين ، فتآمرت سلطات الشرطة ودواوين الجمارك والصحافة على مقاومة الكتاب ومصادرته ، وكتبت بعض الصحف عن فضيحة جويس كما صنعوا من قبل بأوسكار وايلد ، وحذروا القراء من ذلك الكتاب اللعين .

---

(١) فى ١٠ يونيه سنة ١٩٠٤ عرف جويس وأحب نورا جوزيف برناكل وهى التي خطبها وعقد عليها وصحبته فى الغربة وولدت له أولاده وبناته ولازمته الى أن مات فى الستين من عمره ، ولهذا اختار ذلك اليوم من تلك السنة ليخلده فى كتابه .

اختــار جـويـس اسـم Uelysses لـكتـابـه عنـواناً وتـرسـم خطـى هـومـيـروس فى بنـاء مـلـحمتـه المعروفة باسم أوديسه لأنها فى نظره ونظر كثير من أهل الفن متناسبة البناء منسقة الأجزاء متماسكة الفصول متضامة الأقسام واسعة الآفاق رحبة الفناء مترامية الأطراف واضحة المعالم ، أشخاصها آلهة وملائكة وملوك وبطلها رجل اشتهر بالحنكة والذكاء والسحر الحلال ، عميق التفكير شجاع القلب كان ملك اثيكا فى بلاد الإغريق وهرع مع من هرع من الأبطال الى حرب طروادة وخاض غمارها ولكنه نجا من وطيسها .

لقد تصدى جويس للعصر الحاضر ولم يستعن بأبطال هوميروس فى الأرض والسماء فكان عمله أشق وأدق وأمجد وأبهر من الأوديسة لأن موضوعه ملحمة العصر الحاضر .. تسجيل العصر الحديث الذى عاش فيه وهو أصعب عمل أدبى فنى يضطلع به شاعر أو ناثر ... إنه تسجيل الحاضر واستحضار الماضى بذكرياته لبناء صورة المستقبل المجهول فى أسلوب من أساليب لم يسبق لها مثيل .

إن كتاب يوليسز هو من صنع الخيال لأنه أدخل فى باب القصص والملاحم الاتباعية منه فى باب الأدب الصريح أو المنثور المقصود لذاته ، واتخذ وحدة المكان (مدينة دبلن) وطنه ، ووحدة الزمان (١٨ ساعة من يوم

الخميس ١٦ يونيه سنة ١٩٠٤) ووحدة الواقعة أو العمل أو المعركة أو السياق لأن حوادث الكتاب بدأت وانتهت بين جماعة فى الدرجة النازلة من الطبقة الوسطى ، وأثبت من تلقاء نفسه ومحض خلقه وصرف إلهامه مايدور فى خلدهم جميعاً فى هذا اليوم ، وقصَّ - دون أن يستمع اليهم إلا قليلاً - جميع أقوالهم وخواطرهم وأفعالهم وانفعالاتهم وتفاعلهم ومراميهم ومرامهم وأفراحهم وأحزانهم ونجحهم وخيبتهم وماضيهم وحاضرهم وحركاتهم وسكناتهم ومايحيط بهم ويؤرقهم من ذكريات الماضى التى تصلح مادة لبناء المستقبل أو ما يختلج فى صدورهم وقلوبهم من الحب والبغض والثأر والغيظ المكتوم وعشرات أخرى من الأشياء التى لاتعبر عنها اللغة ، كل ذلك فى دقة من وصف الأشخاص والأماكن دقة محيرة للعقل ومذهلة للذهن .

إن ملحمة جويس عمل فنى محكم البناء متناسق محبوك الأطراف يمثل صورة عالمية بل كونية أبدية وعلى طريقة موضوعية أى خارجة عن شخص المؤلف ومنفصلة عن ذاته حسب قواعد الفن الأدبى فى الملاحم المنظومة ، إلا أنه كتبها نثراً لأن النثر أعلى قدراً من الشعر وإن يكن أصعب معالجة وأعسر سبيلاً ولا يناله الشعراء أبداً ولا يجمع رجل بينه وبين الشعر على درجة واحدة ، فضلا عن أن فصولاً بأكملها من الملحمة

تعد من الشعر المرسل المصفى مثل فصل الغزل بين أحد أبطال الكتاب والفتاة جرتى ووصف المشنوق فى الساحة العامة وجنازة دينجام أحد فقراء البلد، فهذه فى نثرها المرسل أعلى من الشعر المنظوم وفى بلاغتها المطلقة وبيانها الممتنع ، أمتع من دواوين بأسرها .

وقد نشرت السيدة بيتش Beach كتاب عوليس عشر مرات واستهدفت بعملها ومالها لأخطار المصادرة والإحراق والإعدام ، وساعدت بمجهودها وثروتها على نقله إلى اللغة الفرنسية(١) .

وقد أورد جويس فى صفحة ١٣٦ ، ١٣٧ أمراً خطيراً له علاقة بتاريخ مصر الحديث وهو تلخيص خطبة طنانة رنانة ألقاها المرحوم المبرور كيرهاردى مؤسس حزب العمال (وهو اسكتلندى الأصل) فى خاتمة ليالى المؤتمر المصرى الذى عقد فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٩ بمدينة جنيف،

---

(١) أما نقل الكتاب إلى اللغة العربية ، فقد حاول لطفى جمعه ترجمته على أنه لم يكمل هذه الترجمة ووقف بها عند صفحة ٢٠٩ من الكتاب الأصلى البالغ عدد صفحاته ٧٣٥ صفحة طبعة شكسبير وشركاه بلندن سنة ١٩٣٠ بسبب المرض الذى ألح عليه وانتهى بوفاته سنة ١٩٥٣ . وكتب لهذه الترجمة مقدمة ضافية تقع فى حوالى ١١٥ صفحة جعل عنوانها « عولس لجيمس جويس – نحو أدب جديد » ، وبعد وفاة لطفى جمعه بحوالى ثلاثين عاماً قام الدكتور طه محمود طه بترجمة « عولس » ترجمة كاملة وسلخ فيها أربعة عشر سنة (١٩٦٤ ـ ١٩٧٨) فتحققت بذلك تلك الأمنية العزيزة التى طالما تمناها لطفى جمعه بنقل هذا الكتاب الى العربية .
وتجدر الإشارة إلى أن ماجاء هنا عن هذا الكتاب مأخوذ عن تلك المقدمة الضافية مع الاختصار المناسب . وقد سويت من هذه المقدمة كتاباً تحت الطبع بعنوان « نحو أدب روائى عالمى جديد ، عولس لجيمس جويس » (ر . ل . ج) .

وكانت الخطبة فى البهو الكبير بفندق شامبيل بأعلى البلد نشرتها صحف العالم فى ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٩ بنصوصها ولم يدخل عليها چويس إلا تعديلاً طفيفاً لايمس جوهرها وموضوعها ولكن ليجعلها تتسق وغايته وطريقته وقد نسبها الى چون طيلور تعقيباً على خطاب الاستاذ فيتزجيبون(١) .

فقد ألقى هاردى فى مساء ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠٩ بچنيف هذه الخطبة بنصها فى صورة نصح وبشرى زفّها إلى شباب مصر بقصد أن لا يطأطئوا رؤسهم أمام المستعمرين الإنجليز الذين يشبهون فى العصر الحديث دولة المصريين القدماء فى قوتهم وجبروتهم وثقتهم بأنفسهم ، وتعييرهم المصريين فى زماننا هذا بأنهم ضعفاء وفقراء وفلاحون ومرضى وجهلاء وأنصاف متمدنين وأنهم - أى الأنجلو سكسون - ذوو بأس شديد وجبروت وأساطيل وجيوش ودين عتيق وتجارة وسفن وثروات طائلة ... إلخ كما كانت عظمة المصريين الأقدمين ، ويقول هاردى « فلو أنكم أيها المصريون (مع أنكم أصحاب أعظم حضارة) أصغيتم إلى كاهنهم الأكبر

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن لطفى جمعه شارك فى أعمال هذا المؤتمر فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ (راجع فى تفصيل ذلك كتاب «محمد لطفى جمعه وهؤلاء الأعلام» تأليف رابح لطفى جمعه سنة ١٩٩١ ، الحلقة الخاصة بالزعيم محمد فريد ، ص ٢٨ - ٥١) .

سواء أكان كرومر أوغلادستون أو ادوارد جراى (وهم عجول ذلك الزمن سنة ١٩٠٩) فلن تصلوا إلى شىء من الحرية والاستقلال ولا نجاة لكم إلا فى الاقتداء بالخطة التى سلكها موسى للخلاص بشعبه قديما » .

أما الجانب الذى وصفوه بأنه مخالف للآداب ، يقصدون أنه فاحش، فهذا الوصف مردود وهو صدى لنغمة إنجليزية عتيقة موروثة من العصر الفكتورى السحيق البائد المنافق ، فقد سبق لهؤلاء المتنطعين المرائين المتسترين وراء دعوى الفضيلة الكاذبة ، سواء فى بريطانيا أم فى الولايات المتحدة - أن هاجموا شاعرين عظيمين آخرين وذلك سنة ١٨٧٠ وما تلاها، وهذان الشاعران هما سوينبرن وهويتمان اللذان نظما دواوين أتلانتا وروزموند والملكة الأم وورق الحشيش (العشب) ، وقد اتبع كل منهما فى نظمه آراء المدرسة الشعرية المعاصرة له « البريرا فايليت » التى أسسها فى انجلترا روزيتى واختط فيها خطة جديدة فى الشعر والتصوير ، والمفاد من هذا أن مسألة وصف النقاد كتاب عولس بأنه مخالف للآداب مسألة لم تثر فى عهد جويس وحده بل إنها نغمة قديمة دقوها على طنبور بال ودف مخروق ووقعوا بها على عود تمزقت أوتاره وصفقوا بأصناج محطمة صماء قد تسمع ولكنها لاتطرب .

وزاد نصيب جويس من ذلك البلاء أنه إرلندى من أمة مغلوبة على

أمرها وثائرة على ظالميها وأنه كاثوليكى مرتد وأنه فقير لا جاه له وليس حوله شرذمة الملقين والأتباع وأنه هاجر من وطنه فى عنفوان شبابه وألف كتابه فى الغربة وعاش فى زمن تطاحنت فيه المبادىء والمذاهب وكاد القديم يلفظ آخر أنفاسه ، فتجمعت كل هذه المصائب على رأس جويس فى أوائل العقد الثالث من القرن العشرين ، ولكنه لم يبال بها وصمد لها وتغلب فى النهاية عليها وجاء حكم المحاكم الأمريكية فى سنة ١٩٣٣ قاطعاً لهذه الألسن وواضعاً حداً حاسماً للمؤامرة السوداء التى كانت غايتها حرمان جويس من ثمرات جهوده واستغلال كتابه تحت شعار مصادرته فى أقطار العالم بأيدى أشخاص اتخذوا قانون المصادرة وسيلة من ناحية ، وعبثوا بقوانين حرية النشر من ناحية أخرى سواء فى بريطانيا ومستعمراتها أم فى الولايات المتحدة .

ليس كتاب عوليس قصة بالمعنى المعروف المتواطىء عليه ، وهذا سر قول النقاد الجاهلين أن ليس لها أول يعرف أو آخر يوصف لأن هذا الكتاب بمثابة مجرى نهر الحياة الذى ليس له أول ولا آخر ، لأن نهر الحياة ليس كأنهار الدنيا التى لها منبع ومصب وإنما هو تيار جارف أبدى ليس فيه توقف ولا غرق ولا شرق ولا مد ولا جزر ولا تكاد تستبين فيه أشخاصاً لهم أدوار معينة أو أقسام مقسومة ، لأن قصد المؤلف هو إظهار الروح والنفس

والعقل لا إظهار الشخصيات والأخلاق والطباع وإنما تأتى هذه الأشياء تبعاً للمقصد الأول الأسمى للمؤلف وخطته الموضوعة التى انطوت عليها نفسه ثم أخذ ينشرها تدريجاً .

إن هذه الملحمة الجويسية تسجيل للحياة الواقعية فى العصر الحديث على صورة تمثل العصر وأهله بصفة نهائية ، وهى بصورة موضوعية لا علاقة للمؤلف بها ومستقلة عن تأثيره كل الاستقلال ، لايروى فيها شيئا من أخباره ولا يصف عنصراً من عناصر أخلاقه ولا يسخر مادتها لوصف حياة ولا يفرض على نفسه أو على القراء فرضاً ليستمعوا الى أحزانه وأفراحه كما فعل كتاب القرنين التاسع عشر والعشرين ماعدا قلة متمايزة منهم أمثال زولا وبلزاك وفلوبير .

إنك ـ على مرح جويس وعبثه البرىء فى حياته الخاصة ـ لاتجد أثراً من ذلك فى كتابه ، فإنه الجد كل الجد والوقار والحزن المكتم والقضاء والقدر الجاثمان على صدر الإنسان والأحداث التى تتربص به والمجهول الذى يتهدده والأمر الواقع الذى يضطر للخضوع له ، فلم يتسرب من خلق جويس شعاع الى كتابه ولم تنشع نقطة من مزاجه الى عمله ، وهذه قدرة فى الأخلاق تفوّق بها على الكثرة الساحقة من الكتاب والشعراء وأهل الفنون أمثال أسلافه بودلير وڤرلين وبروست ورابليه وغيرهم .

إن هذا الكتاب لم يجعل لكل قارىء وقارئة ، وإنما هو موضوع لفحول القراء لإتمام تعليمهم واطلاعهم على نواح من الآداب لم يطلعوا عليها ، ولذا فإن قراء من هذا القبيل لم تأخذهم رعدة الحياء ولا نعرة الدفاع عن الفضيلة لأن للفضيلة أسلوباً بل أساليب غير أسلوب الأدب والفن ، ولسنا بحاجة لأن نقول فى مجال الدفاع عنه « لا حياء فى العلم ولا فى الدين ولا حياء فى الأدب والفن » .

إن هذا الكاتب الكبير سجل على ورق مساوىء العصر الحديث ورد الى القوم بضاعتهم ليروا بأنفسهم مقدار الكراهية والغثيان والصغار التى تصيبهم عند رؤيتها بل رؤية صورتها ، ربط چويس معاصى العصر فى أعناق أبناء العصر فشموا رائحتها وذاقوا مرارتها وتعذبوا بالنظر إليها فثاروا على الكاتب ، وهو لم يفعل أكثر من أن قال لهم هذه أعمالكم وأقوالكم وأدواؤكم فأسدى اليهم جميلاً ولكنهم لم يبلغوا الرشد العقلى ليقدروا هذا الجميل الذى أسدى .

إن خطة چويس أن يكون عولس كتاباً كونياً يطوى بين دفتيه كل شىء فى العالم أى أن يجمع الحياة فى كتاب ، كتاب يفسر الحياة فى العصر الحديث . وكانت طريقة عمله أن يكتب ما يعنّ له على قصاصات من الورق فى كل مكان وزمان من النهار أو الليل ويودع المكتوب جيوب

ثيابه ، وكان يعمل على طريقة الشعراء ، فلا يضع على الورق إلا ما تمت صياغته فى ذهنه ، لم يكتب كالناثر بل كالناظم ، فلم يدون إلا مافرغ من صبّه فى القالب الملائم .

وتوفى جويس سنة ١٩٤١ فى الستين من عمره بعد أن علا نجمه وتألق مجده .

(٢٣) سيرويليم ويلكوكس
ستون عاماً فى الشرق(*)

ولد ويلكوكس فى الهند فى سنة ١٨٥٢ وتوفى بمصر فى سنة ١٩٣٢ عن ثمانين عاماً قضى معظمها فى خدمة الشرق والشرقيين بعلمه وأخلاقه ودماء قلبه وماله .

وكان منذ خطواته الأولى فى ميدان الحياة يقيد مذكراته ويدونها سواء أكان فى الهند أم فى العراق أم فى تركيا أم فى مصر أم فى فلسطين أم فى أمريكا الشمالية .

وفى سنة ١٩٣٥ وبعد وفاته بخمس سنين ظهرت مذكراته بقلمه

(*) مقال بعنوان « ستون عاماً فى الشرق » نشر بمجلة الرابطة العربية ، ١١ أغسطس سنة ١٩٣٧ ، العدد ٦٢ ، ص ١٢ - ١٤ ، المجلد الثالث .

مطبوعة فى لندن ومسبوقة بفذلكة فى ترجمته ومزدانة بصورته التى تدل على طبيعته وخلقه .

ولعله لايوجد فى مصر من أبناء الجيل السابق وأواسط هذا الجيل ، من لم ير ويلكوكس وجها لوجه أو لم يسمع به سماعاً يحببه اليه ويقربه الى نفسه ، فقد كان رجلا طويل القامة(1) مستطيل الوجه ، مربع الجبين كأنه صندوق ملأته الطبيعة علماً وحكمة ، وكان يبدو مغمض العينين كأنه حالم يرى بعين خياله رؤيا قريبة التحقيق فى نفسه .. كان هادىء الصوت متواضعاً صبوراً يلاصق الطبيعة ، ويتودد الى الفقراء ويحشر نفسه فى زمرة المساكين ، ولا يأبى أن يظنه من يجهله صعلوكا ما دامت سريرته راضية وضميره قانعا . وكان من أظهر صفاته ثورته على الظلم وعدم المساواة والتفانى فى إنصاف المحتاجين الى بلوغ الغاية من حقوقهم. وكان ينتصف من القوى للضعيف، ومن الحاكم للمحكوم ولو كان فى ذلك ضياع حقه أو ماله أو اضطهاده ، حتى قال عنه أحد علماء المصريين الفضلاء : « إن صديقنا ويلكوكس درويش شرقى مستخف فى ثياب مهندس إنجليزى ، فإن أخلاقه أخلاق الدراويش وعقله عقل العلماء » .

---

(1) رأيته وسمعته يخطب ويتكلم فى سنة ١٩٢٥ فى القاهرة .

أما كتابه الذى نحن بصدده ففى ثلثمائة صفحة من القطع المتوسط وفصوله عشرة : أما الأول والثانى فهما عن حياته فى الهند وأعماله بها من ١٨٥٢ - ١٨٨٣، فإنه لما دخل الاحتلال الإنجليزى فى دور التنفيذ وقع اختيارهم على ثلة من كبار الرجال الأكفاء ليعهد اليهم بإصلاح شئون البلاد على أيديهم ليسجل لهم الفضل ، فكان وليم ويلكوكس فى طليعتهم ، فدعى من الهند الى مصر حيث أقام أربع عشرة سنة من ١٨٨٣ الى ١٨٩٧ . ثم طوحت به الأقدار الى جنوب افريقيا ، فالعراق ، فكندا فالولايات المتحدة . ثم قضى ست سنين أخرى بوادى النيل فكان مجموع ما سلخه من عمره بين ظهرانينا عشرون عاما من خير سنى حياته وهى سنوات من أكبر السنين شأنا فى تاريخ مصر .

كان ويلكوكس أثناء تلك المدة جواب آفاق حتى يكاد يعتبر مستنفضا وهو وصف يطلقه الإنجليز على Globe - trotter فسافر الى تركيا وبلاد اليونان وإيطاليا وألمانيا وانجلترا وأيرلاندا (وإن يكن إنجليزيا نشأ فى الهند) والسودان وجنوب إفريقيا وفرنسا ، فكانت حياته حافلة بالأسفار والأعمال ، قضى ثلاثة أرباعها فى ربوع الشرق وأدغال إفريقيا ومنابع النيل والفرات ودجلة ليخدم علوم الرى والهندسة والشعوب الشرقية، وقد ألف قبل مذكراته جملة من الكتب فى فنه من أهمها :

« خزان أسوان ـ النيل في سنة ١٩٠٤ ـ خزان أسوان[١] وبحيرة موريس – الرى فى الجزيرة (بين النهرين) – الرى المصرى – من جنات عدن الى بحر الأردن » ، ويعد كل من هذه الكتب عمدة فى موضوعه وثقة .

وقد تنوعت أعماله وتلونت بألوان مواهبه ، ولكنها كانت كلها منصرفة الى خير من يقصد الى خدمتهم أو يسألونه المعونة ، فقد سافر سنة ١٩٢٨ الى كلكتا ليبحث فى أسباب انتشار الملاريا فى شرق بنغال ، كما عين فى سنة ١٨٩٧ مديراً لشركة مياه القاهرة ، كما وضع تصميمات خزان أسوان بعد أن طاف نصف العالم المتحضر ليدرس أعظم الآثار الهندسية وليقتبس منها ما يفيد مصر فى مشروعها . ولم يسبقه إلى التفكير فى عمل الخزان إلا ابن الهيثم الفيلسوف المهندس الرياضى العراقى الذى استقدمه لمصر الحاكم بأمر الله بعد أن علم بما يراه فى بناء الخزان وكتب به الى الخليفة الفاطمى من عاصمة العراق .

ويظهر أن كبار الموظفين الإنجليز لم يكونوا معه على تمام الوفاق لنزوعه الى الحرية ، وسعيه فى خير الضعفاء والمساكين ، فكان أول من فكر فى إلغاء العونة والسخرة فرفع عبئها عن كواهل الفلاحين ، وأول من

---

(١) بعض كتبه يدرس فى كلية الهندسة ومنها ماألهم إميل لودفيج كتابه النيل .

تحرك قلبه بالشفقة عليهم وهم يخوضون الأوحال بأبدانهم العارية ويعرضون حياتهم للهلاك بدون مقابل ولا أجر ولا شكر . وأول من حض المصريين على التفكير فى مستقبلهم الاجتماعى ، ولم يتردد فى أن يخطب ويكتب ليرشدهم الى الخطط الواجبة الاتباع .

وقد نشرت جريدة البوسفور الفرنسية الصادرة فى يناير ١٨٩٢ فى صفحتها الثالثة فى العمود الثانى مانصه :

« ألقى منذ مدة جناب مستر ويلكوكس مفتش عموم الخزانات المصرية ، فى ناد حافل خطبة امتدح فيها العنصر المصرى وقال : إنه نسل أشرف أمة فى العالم فيجب عليه أن يعرف ذلك بأعماله ولا ينقصه فى هذا إلا استقلال الأفكار والثبات على عظائم الأعمال واستطرد فيها الى جملة نصائح مفيدة تدل على أنها صادرة عن ضمير خالص محب للمصريين ، فكان لهذه الخطبة رنة استحسان فى الأندية الشرقية عامة والمصرية خاصة . ولا عجب فإن هذا العالم الإنجليزى الفاضل الذى ولد وتربى وترعرع فى الهند مشهور باستقلال الفكر وحرية المشرب وأنه لايخشى فى الحق لومة لائم ، ولو ثقل على مسامع البعض كلامه » . ا هـ كلام الجريدة الفرنسية[1] .

(١) رجعنا الى مجموعة الصحف المعاصرة فعثرنا على عبارة تشبه هذه فى نصها منشورة فى جريدة المؤيد يوم ١٨٩٢/١/٦ .

ومن الأعمال العظيمة التى قام بها سوى ماذكرنا إشرافه على تقسيم أراضى الدايرة السنية بعد تعيينه مديراً للشركة التى اشترتها من الحكومة المصرية فى سنة ١٩٠٠ ، وإليك نبذة بقلمه فى هذا الموضوع الشيق نقلا عن ص ١٧٤ من مذكراته وهو الكتاب الذى ندرسه : « فى استهلال سنة ١٨٩٩ كنت أعبر الطريق لدى فندق سافوى فرأيت رجلاً إنجليزيا ، لم تسبق لى معرفته ، وقد دنا منى وقدم نفسه إلىّ قائلا : هل أنا ويلكوكس فأجبته مصدقا لفراسته فقدم إلىّ نفسه قائلا :

« وأنا إرنست كاسل . اسمع يا مستر ويلكوكس قد وكلت إلى شركة اقتصادية شراء أراضى الدايرة السنية من الحكومة المصرية ونحن نبحث عن مدير فعال لهذه الشركة . أفمستعد أنت لقبول هذا المنصب ؟ فلما قبلت سألنى عن المرتب الذى أرضى به وأجبته على سؤاله فأدهشنى بقوله : إنك تستحق أضعاف ذلك ، فاترك تدبير الأمر لى » .

« فابتهجت إذ رأيت للمرة الأولى فى حياتى رجلا يأبى أن ينتهز فرصة جهلى بقدرى أو تسامحى فى أجرى أو تواضعى الذى ضيع علىّ كثيراً من حقوقى وهو على كونه فرداً أكرم من الحكومة المصرية التى حاسبتنى فى تقدير معاشى بيد مغلولة الى عنقها حتى لم تتسامح معى

فى ربع مليم زيادة عما اعتبرته حقى فى المعاش[1] ، أما أطيان الدايرة السنية فكانت ربع مليون فدان اشترتها الشركة بستة ملايين ج وباعتها بأكثر من ضعف الثمن » ا هـ كلامه .

نقول والحق إن صفقة الدايرة السنية التى أتمها ثلاثة من أقدر رجال المال فى عهد كرومر وهم سير الوين بالمر (المستشار المالى) وسير إرنست كاسل (مالى إسرائيلى وصديق حميم للملك ادوارد السابع) ، ورفائيل سوارس (بنكير يهودى ضخم) قد جلبت للشركة أكثر من أربعة ملايين من الجنيهات ربحاً صافياً غير الفوائد والتضمينات !!

ولكن ويلكوكس لم تكن له يد فى الشراء أو فى تقدير مايعود على مصر من الكسب أو الخسارة ، غير أن هذه الصفقة لم تكن الوحيدة ، فقد وفق سير كاسل فى سنة واحدة الى مشروعين آخرين جعلا الأعوام الختامية للقرن التاسع عشر أسعد أعوام عمره وأنداها وأجداها وأنفعها وألمعها وأوسعها ... فقد قام أيضاً بمشروع خزان أسوان وقدم للحكومة المصرية المال الضرورى لتشييده ، والمال المطلوب لتأسيس البنك الأهلى المصرى[2] ، ويرجع الفضل فى هذه المشرعات الثلاثة التى سقطت من سماء الحظ إلى حجر كاسل وسوارس وشركائهما الى جهود سير بالمر

(١) ذكر فى الأصل كلمة « فاذنج » وهو ربع البنس فتأمل !

(٢) وكانت هذه المشروعات سابقة للأزمة المالية التى حصلت سنة ١٩٠٧ بمصر .

الذى أقنع لورد كرومر بصلاحية الدقات الثلاث فى أشهر معدودة ، كما أقنع النظار « كما كان يسمى الوزراء إذ ذاك » فوافقوا عليها فعادت بأكثر من عشرة ملايين على كاسل ورفاقه . وألطف مايرويه المؤرخون أنه غداة إعطاء الامتياز بهذه المشروعات الضخمة استقال سير بالمر (وكان من أصل يهودى محترم مثل كاسل وكاللورد مالنر وسيربارنج) وتعين فى نفس اليوم مديراً للبنك الأهلى (ص ٦٤ تاريخ مصر الحديثة تأليف دى جورفيل) . وروى بوغوص نوبار باشا لهذا المؤلف أنه اشترى من أراضى الدايرة السنية ماقيمته ٦٠ ألف جنيه فباعه بثلثماية ألف جنيه أى أن الأرض ارتفعت الى خمسة أضعاف ثمنها الأصلى بفضل مابذله سير ويلكوكس فى تحسينها من حيث الرى والتقسيم والإعداد للزراعة والتساهل فى إتمام الصفقات مع المشترين من طبقة الأعيان والفلاحين .

ثم دعى ويلكوكس الى العراق ليضع مشروع رى وإصلاح زراعى يعيد إلى مابين النهرين شامخ عزه وسابق مجده ، فقال إنه يصلح لإعاشة شعب عدد سكانه ثمانون مليونا ، يرتعون فى بحبوحة خيراته الغزيرة ، وقد دعاه كامل باشا أول صدر أعظم لحكومة تركيا الفتاة فى سنة ١٩٠٨ فانشغل بهذا العمل ثلاث سنوات وقد نشرت خلاصة أعماله بعنوان « الرى فى العراق » فوضع لنفسه خطة فى معاملة الترك ، منها أنه لايختلف فى

الرأى والألمان لئلا يزحزحوه ، ولايذكر الهنود لكراهية الترك لنزوحهم الى الجزيرة ، وأن لايتغفل أحداً من الموظفين فهم أذكياء ، وهنا يروى أن حاكم بغداد محمد باشا الداغستانى كان ابن شقيق الشيخ شامل البطل الشركسى الشهير (ص ٢٣٥) ومن تاريخ حياته أنه كان من حرس السلطان عبد الحميد فانطلق أسد من قفصه ، فتقدم الداغستانى اليه بسيفه وهاجمه حتى رده على أعقابه . فأشار الجواسيس على السلطان بنفيه بدعوى أنه رجل ذو خطورة لأنه لا يهاب الأسد والرجل الذى لايخشى الأسد لا يهاب السلطان فلعله يتمكن من سجنك كما تمكن من رد الأسد الى قفصه ، فاقتنع السلطان ونفى الرجل الى بغداد ، ومع ذلك الظلم الصارخ فإن الداغستانى قال إنه يحترم الخليفة ويقدس ذكره ولو أمره مولاه بالانتحار لبخع نفسه طاعة له وقد قيل لى إن الرجل كان أقرب الى الفعل من القول .

(٣٤) الآنسة وينفرد بلاكمان فلاحو الوجه القبلى (*)

نشرت شركة هاراب فى لندن وبومباى وسيدنى هذا الكتاب فى

(*) مقال بعنوان « سكان صعيد مصر – فلاحو الوجه القبلى » ، منشور بمجلة الرابطة العربية العدد ١٠٥ ، فى ١٩٣٨/٦/٢٢ .

ثلثماية وخمسين صفحة من القطع المتوسط بالحرف الدقيق مزداناً بمائتى صورة فوتوغرافية من صنع المؤلفة واختيارها . والمؤلفة بكر عانس انقطعت للبحث العلمى فكانت عضواً فى الجمعية الملكية للبحوث البشرية (أنثرو بولوجيا) والجمعية الملكية الآسيوية وحائزة لدبلوم البحوث الإنسانية من جامعة أكسفورد وكانت ملحقة ببعثة البحوث العلمية للشعوب التابعة لپرسى سليدن فى وادى النيل من سنة ١٩٢٢ـ ١٩٢٦ ، والمؤلفة معروفة فى الأوساط المصرية وهى لاتزال تزور هذه البلاد وقد رأيناها لآخر مرة فى ديسمبر سنة ١٩٣٤ فى فندق كونتننتال وقد أهدت الكتاب الى أصدقائها المصريين بغير تخصيص . ولها بين الطبقات المتعلمة محبون ولكن معظم أصدقائها وصديقاتها فى قرى الفلاحين فى الوجهين البحرى والقبلى . وهى امرأة ظريفة صادقة فى وصفها ومخلصة فى جميع معلوماتها . وهى تقر أن معظم ما وصفت من العادات أو المعتقدات قد تلاشى من الطبقات الوسطى والعليا ولكنه لا يزال عالقاً بالطبقة النازلة والجاهلة من الشعب .

إن وصفها فى مجموعة صادق وصحيح ولا يعادله فيما سبق تأليفه من كتب الإنجليز إلا كتاب « لين بول » فى وصف أخلاق المصريين وعاداتهم وآدابهم وحياتهم الاجتماعية وهو يصف مصر فى أوائل القرن التاسع عشر إلى ثلثه الثانى .

والأسس العلمية فى كتاب بلاكمان لا بأس بها وإن كان علم لين بول بالعربية والأدب الإسلامى كان أعظم ، فقد كان من أوائل علماء الشرقيات ولم يكن ستانلى لين بول متعجرفا ولا سخيفا مثل كينج ولا متحاملا مثل كرومر ولويد ، لأنه كان يؤلف بغير غاية سياسية . أما الآنسة بلاكمان فقد كتبت عن القرية المصرية والنساء والأطفال والحلى التى يتزين بها الأطفال والنساء والولادة والزواج والطلاق ومراسم الخصوبة الزراعية وعادات المآتم ومشاجرات الفلاحين وعادة الانتقام والأخذ بالثأر والصناعات القروية وأسواق القرى ومواسم الزراعة والحصاد والسحر والسحرة والأطباء فى القرى وهم الذين يعالجون بالطرق القديمة كالرقى والعزائم والأحجبة ووضع الآلات المادية على الأعضاء المريضة (أنظر ص ١٩٧) كعلاج الصداع بوضع قوالح الذرة على الرأس ، والحسد والأوهام والعفاريت (كذا) وأولياء المسلمين وقديسى النصارى والأعياد السنوية والموالد ورواة القصص (عنتر وأبى زيد الهلالى وفاطمة ذات الهمة .. إلخ)، وفصل خاص بأشياء قديمة فى التاريخ المصرى لبعض ماذكرته المؤلفة عن مصر الحديثة (من ص ٢٨٠ ـ ٣١٦) وألحقت بالكتاب فهرسا بالأسماء وآخر بالألفاظ العربية .

وقبل أن نقول كلمة فى هذا الكتاب القيم يجب أن نلفت أنظار

الأدباء والعلماء الى أهمية البحوث الأنثروبولجية والأتنولوچيه واللغوية التى لها علاقة بالحياة المصرية . وخصوصاً بحوث الفولكلور (الأدب الشعبى)، ويمكننا أن نجزم بأن الأمة جاهلة بحيث لو قام باحث مصرى واستقصى هذه المسائل ، لقوبل عمله بالازدراء والسخرية ووصف بأنه جهد ضائع أو « كلام فارغ » فى حين أنه لا نفسية لأمة لا تسجل عاداتها ومعتقداتها كما قال العلامة فان جينيب .Nulle nation sans Psychologie .

ولا ننكر أن بعض العلماء حاولوا هذا فإن كتاب أبى شادوف الشهير أول بحث فى هذا الموضوع ، ولكن أوصافه مقصورة على الحياة المادية وخضوع الشعب للحاكم التركى وعادات الزواج والطلاق وحياة القرية والأغذية والأفراح والمآتم .. إلخ . أما بلاكمان فقد أرادت أن تثبت أننا لانزال نعتقد فى السحر والسحرة وأننا نعتقد فى الزار (ص ١٦٠) ونقيم الحفلات ، وأن بعض النساء والرجال تركبهم الجن وأننا نعتقد فى «الأخت» والقرينة وأن روح التوأم تتقمص فى قط أثناء نومه وأن الشيخ يطلب من المرأة الملبوسة حليا من الفضة وثيابا جميلة وذبيحة كالتضحية بخروف أحمر ... إلخ . وروت خبراً لطيفا عن طريقة الوصول لمعرفة شخصية المجرم المجهول باستعمال القرآن ومفتاح من حديد ووريقات فيها أسماء المشكوك فيهم . وروت قصة طريفة عن عشق رجل فات الثمانين

لزوجته التى طلقها ثلاثاً فى ساعة غيظ ثم ندم واشتعل قلبه حباً كما اشتعل رأسه شيبا وكيف أنه تردد أمام عملية المحلل الممقوتة .

ولا يخفى أن المؤلفين المحدثين لايمتنعون عن وصف الأمم الحديثة المتحضرة ، فقد ألف حديثا المسيو Renier كتابا عنوانه « هل الإنجليز إنسانيون » ؟ The English are they humane .

وربما كان المؤلف إنجليزيا أو فرنسياً أقام مدة طويلة فى الجزر البريطانية ، فليس فى عمل بلاكمان مايغضبنا وإن كان يظهرنا فى مؤخرة الشعوب المتحضرة بسبب معتقداتنا ، والمهم أن الفلاحين لم يمتنعوا عن تنويرها وقد سمحوا لها بالتصاوير الضوئية وسهلوا لها كل عقُبة حتى تجمع المواد لمؤلفها . ونحن نرى ضرورة تأسيس معهد للبحوث التى من هذا القبيل حتى تدرس دراسة وافية وتفسر وتعلل وتوضع موضع النقد والمناقشة والرد عند اللزوم ، فمن المعلوم أن أهل سافوا وهى مقاطعة فرنسية كبرى بين إيطاليا وسويسرا لايزالون حتى الآن يعتقدون بالسحر والسحرة . وتأتى صحف فرنسا وفيها وصف قضايا جنائية خاصة بالسحر والوفاة بسبب الحسد ، وقد ألف هنرى بوردو عضو الأكاديمية الفرنسية قصة مشهورة « البحيرة السوداء » قائمة حوادثها بالسحر والسحرة . وألف فوبيه قصة مدارها على قدرة ساحر على « شفط » ماء

بحيرة بأكملها لأن بعض الأغنياء ورجال الأعمال بنوا على شاطئها فندقا حديثا فخشى ساحر القرية من فساد الأخلاق فجفف البحيرة ليخرب الفندق ويرحل أصحابه وقد حدث ماشاء . وأهل كورسيكا يعيشون على الانتقام . وفى انجلترا علاج الأمراض بالطب الروحانى والصلوات منتشر فى كل مدنها ويسمى Christian Science · وأصله من صنع سيدة اسمها Mrs. Eddy فى أمريكا وضعت للتوراة والإنجيل تفسيراً روحانياً جديداً · ومعظم العلماء يؤمنون بنبوة سويدنبرج (عاش فى القرن الثامن عشر) ويقولون إنه كان متنبئاً وولياً ويرى من بعد ويؤمن بالجنة والنار ووحدانية الألوهية وقد أقاموا له فى استوكهولم تمثالا يحجون له فى كل عام فى يوم معلوم[1] .

وإذن لا تكون بعض معتقداتنا موضع النقد ولا التعيير اذا أحسنا درسها وفحصها وتدوينها وقد سبقنا الأجانب الى العلم بأرخص أمورنا الاجتماعية والدينية · وقد حاول فى العهد الحديث المرحوم محمود عمر الباجورى (أحد أعضاء الوفد المصرى لمؤتمر المستشرقين فى استوكهولم ١٨٩٢) تدوين الأمثال العامية والأغانى الشعبية فقوبل عمله بالاستهتار ·

---

(١) أنظر ماكتبه المؤلف عن كتاب سويدنبورج « الجنة والنار » ، صفحة ١٩٠-١٩٦ من هذا الكتاب .

(٣٥) چورچ برنارد شو
دليل الاشتراكية ورأس المال(*)

لايحتاج هذا الكاتب النابه العالمى الى تعريف ، فقد ذهبت سيرته ومؤلفاته سير المثل فى أنحاء العالم وأجمع النقاد فى بقاع الأرض على أنه أعظم كاتب فى اللغة الإنجليزية ومن أعظم كتاب الدنيا. وقد قارن جورج دوهاميل الكاتب الفرنسى الشهير(١) بينه وبين شكسبير فحكم بأنه أعظم وأنبغ لالحداثة عهده، بل لأن عبقريته منوعة ، فقد تناول قلمه بحوثا لم يحلم بها شكسبير ، وزاد عليها التفرد بالتأليف المسرحى فى أكثر من أربعين قطعة تمثيلية لها مرام ذات خطورة اجتماعية وسياسية واقتصادية.

ومن أشهر كتبه الحديثة « دليل الاشتراكية ورأس المال » وقد طبعت منه بضعة ملايين نسخة انتشرت فى البلاد الناطقة بلغة السكسون . ومدار الكتاب على المسائل الشاغلة للأذهان فى العشر سنوات الأخيرة فى أربعة وثمانين فصلا تسبقها مقدمة وتلحقها خاتمة . وليس فى وسعنا أن

(*) مقال بعنوان « دليل الاشتراكية ورأس المال » نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٨٦ ، فى ١٩٣٨/٢/٢ .

(١) هو طبيب عالم وأديب كبير يرأس الآن تحرير مجلة مركيردى فرانس وله مؤلفات عظيمة وزار مصر منذ عامين وحاضر فيها .

نلخص تلك الفصول في هذه العجالة ولكننا نحاول أن نعطى صورة كاملة للأفكار البارزة في الكتاب ، فمنها الفصل الذى عنوانه « لاثروة بغير عمل» حيث يقول ذلك الكاتب الأيرلندى الأصل الإنسانى النزعة :

« توجد جزر يقضى أهلها رجالا ونساء وأطفالا ، أيامهم فى استقبال أشعة الشمس ، والتغذى بحبات جوز الهند التى ترشقهم بها القردة القابضة على أغصان الأشجار .. أما نحن فلا سبيل الى حياتنا بغير العمل الدائم المضنى المنتج ، فلا نجد رغفان الخبز على موائدنا بدون الزارعين والحاصدين والطاحنين والعاجنين والخابزين والبائعين ولو أغفل أحدهم عمله أو توانى أو أهمل فقد نموت جوعا ولو كسل واحد فلابد أن يعمل آخر للاثنين معا ، وإلا فالحرمان لهما معا على حد قول بولس الرسول « إذا أبى رجل أن يعمل ، فلن يأكل أيضاً » .

والتعاون بين الجنس الإنسانى أمر حكمت به الطبيعه[1] .

هكذا شاءت العناية « ولك أن تسميها الطبيعة » وفرضت علينا العمل فوجب تقسيمه كتقسيم الثروة الناتجة عنه . وغير خاف أنه من نعم الدنيا أن يستطيع واحد أن يعمل وينتج من عمله أكثر من حاجته فيستمتع

---

(١) قال عمر بن الخطاب « إن السماء لاتمطر ذهبا وفضة إنما يرتزق الناس من بعضهم بعضا » .

آخرون بجهوده ، ولو لم يكن ذلك ممكنا ما استطاع الأطفال والعجزة والمرضى أن يعيشوا ، وفى ثنايا الحياة نسوة ، لايملكهن الإحصاء ، لا سند للواحدة منهن سوى تعب يديها وقد أنشأت أسرة من الصغار وتعهدتها بكسبها وحرصت على راحة والديها حرصها على تنشئة أطفالها وهى تدفع أجور المثوى والسكن للسيد المالك Land Lord ، وبالذكاء الإنسانى تمكن المخترعون من استخدام قوى الطبيعة كالماء والنار والكهرباء فصارت المرأة قادرة على عمل كان يحتاج لأن تقوم به ألف امرأة منذ قرن ونصف ، فنشأ ادخار العمل الذى ينتج الفراغ فوجب تقسيم الفراغ لتقسيم العمل والإنتاج ، ومن الإنصاف أن لايعمل تسعة رجال أو تسع نساء ليستريح العاشر أو العاشرة » .

وقال فى فصل عنوانه « دع الخلق للخالق »[1] وهو الفصل الثالث عشر ما ملخصه :

أيجوز لنا أن نترك الأشياء تجرى فى أعنة الأقدار عملاً بالخطة التى سار عليها سادة العالم فى القرون المظلمة اعتماداً على أن الحياة تنظم نفسها بنفسها .

---

(١) مبدأ Laissez Faire وهو فكرة اقتصادية أفنة .

لقد ثار العقلاء والعلماء والمصلحون على هذه الخطة العقيمة التى طال أمدها . لانطباع الناس على الصبر والكسل ، أما الصبر ذلك الدواء الشهير الرخيص لكل داء ، فقد أكل الدهر عليه وشرب وأخطأ الدهماء وبعض الخاصة فهمه . فليس المقصود به الصبر على الضيم والفقر والجهل والظلم والسكوت على المغارم ، إنما المقصود به الكفاح والمثابرة مع الرجاء وانتظار تحقيق الأمل المنشود وحينئذ يكون النصح بالصبر مفهوما .

وفى وطننا البريطانى يعد الساسة المحافظون أعظم دعاة الصبر ، ولكن ليس فيهم من ينصح به بعد الانتخابات وله ذرة من العقل[1] . نعم إن الإنسانية مريضة بحب استبقاء القديم على قدمه حذر الدخول فى مغامرة التغيير الذى يعبر اليه على جسر الحركة ، ولكن هؤلاء لا يعبأ بهم، لأنك لا تشفى المريض بالصبر على ألمه ، ولا تتقى شر فيضان نهر تيمز بالنظر إلى ضفتيه يعلوهما الماء ، ليغرق الحرث والنسل ، ولا تصبر على النمر يختطف ابن جارك ويعود به ليفترسه فى الحراج ، ولا على الأفعى تنهش لحمك ! وإنه من النظم الاجتماعية فى الحياة الحديثة والقديمة مايشبه الغرق والحريق والضوارى والأفاعى !! عندما طلب يوشع إلى

(١) يشير إلى وعود المرشحين والمحافظين فى خطب الانتخاب .

الشمس أن تستمهل فى دورتها يوما وليلة وإلى القمر أن يؤخر سيره ليلة كان يعلم أنه يسأل معجزة ، ويتمنى لو تخرق له الطبيعة عادتها . ولكن الشمس والقمر لم يقفا ولم يؤخرا سير الزمان لحظة واحدة حتى ولا إكراما لسواد عيون يوشع !

إن الأشياء تتغير وتتحول بأسرع وأخطر مما يظنون ، خصوصاً إذا تركت لذواتها ولم تراقب ، فمنذ قرن ونصف طرأ على العمل والإنتاج وتقسيم الثروة القومية تحول وتبدل لايحيط العقل بهما . وقد أهملنا النظر والفحص والرقابة ، فأصابنا ما أصابنا من الوقوع فى حيص بيص ، ومن أظهر التحول صعود إضراب العمال والفاشست والمشاعية فى أوروبا وقد صارت كالسيول المنهمرة لاتقف فى وجهها السدود ولا تمنعها العوائق . لو أن الملك ألفرد [1] قيل له « سيأتى وقت على انجلترا تملك فيه إحدى الأسر الغنية المكسال خمسة قصور ويختاً يسير بالبخار فى حين أن ملايين الناس يعملون ليل نهار ثم يعيشون كل ستة منهم فى غرفة بأكل قليل ودون دفء لقال الملك ألفرد « إن الله لن يسمح بذلك ، إلا فى أمة شقية شريرة » ص . ع من الكتاب .

---

(١) كان إنجليزيا مشهورا بالعدل والرحمة .

نحن لانقول الآن « دع الخلق للخالق » ولا « دع الأمور فى أعنتها» ولكننا نقول « دع الأمور تفوت وتتزلج وتنحدر وصه [1] » والفرق ظاهر بين القولين فإن القول الشائع بأن « الذوق العام صار يحتاج إلى إضافة وهى إن الذوق وإن كان عاما ، إلا أنه نادر Commonsense is very rare .

وفى الفصل الذى عنوانه « ربح نوى الكفايات » يقول :

« زعم ويليام هرل مالوك « لعله يهودى » أن فائدة الفطنة فى العالم أن تستغل غباوة الآخرين ليحصل « الألباء » على نصيب أكبر مما يستحقون . لقد كان هذا الكاتب لئيما وخبيثاً وقد عاملته الأجيال بما يستحق من التقريع ، فإنه لم يرتق إلى مستوى ماكيافيلى ولم يهبط إلى درك اللصوص . إن فائدة العقل فى المجتمع أن يعمل صاحبه على إنماء الثروة التى تقسم بين الأفراد . ولكن مما يؤسف له أننا نرى الاستغلال واقعاً على النبغاء الأمناء ، الذين تتجسد أمانتهم فى سلامة نيتهم وسذاجتهم (ص ٣٣٤) . ومن معايب الرأسمالية أو عبادة المال أنها تعدم المساواة الاجتماعية ، وقد لاحظنا فى الفصل السادس أن هذا النظام

---

(١) عاميتها البليغة صهين وفى أمثالهم صهين تقلعص أى تسمن ومنها « شيلنى وأشيلك » قاتلهم الله !

يترك رجالا فى أعلى طبقات النبوغ والقدرة على عمل الخير فريسة للفقر ، فى حين أنه يسبغ أذيال الثروة التى يضل العقل فى تعليلها ، على رجال صغار ، لايعدون ولا يحسبون سوى أنهم شرهون وصائدون للمال (ص ٣٣٩) .

كان نيلسون قبل صيرورته أمير البحر فقيراً ومحتقراً لايؤتمن على سفينة صغيرة وكان نابوليون ضابطا صغيرا لاشأن له ، ولكنهما صارا بطلى البحر والبر عندما سمح لهما أن يظهرا كفايتهما بقوة خارجة عن إرادتهما وعن إرادة الخصوم والحاسدين .

وفى فصل الاشتراكية والأطفال (ص٤١٢) قال :

« كان الرومان يتصرفون فى أولادهم تصرف المالك . وفى أمثالهم «الولد والعبد وما ملكت أيمانهم للوالد والمولى » أما الآن فقد صار الطفل غنيمة المدرسة الحكومية يقضى بين جدرانها عشر ساعات هى خير ساعات النهار . وليتهم ينجون من قسوة والديهم ومعلميهم . وقد حاولنا تأسيس جمعية للرفق بالأطفال فلم نفلح بحجة التعرض لسلطة الأبوة والأمومة . لقد ثبت لدينا أن المدرسة لم تنفع إلا فى شىء واحد وهو إقصاء الطفل عن محيط الأسرة لتستريح أدمغة أولياء الأمور من الخوتة .

قرأت خبر الأم التى قاضت معلما لأنه جلد ابنها لأنه سعل والسعال عمل غير إرادى ، فلما استهان الطفل بالعقوبة اهتاج غيظ المعلم فهجم عليه هجوماً شنيعاً وأحدث به آثاراً بقيت بعد حدوث الضرب ظاهرة ثمانية أيام ٠ إن العناية بالأطفال واجبة ألم يكن محمد (نبى العرب) طفلا يقود الإبل فى الصحراء ، ولكن أتباعه فتحوا ثلاثة أرباع الأرض ولا يزالون يحرجون موقف الامبراطورية البريطانية فى إفريقية وآسية (ص٤٣١)٠

وهكذا يتناول برنارشو تلك الموضوعات الشيقة ويعالجها بطريقة حديثة مغرية ، وتدل على علو كعبه وعظمة فكره وعلى أن الشهرة الذائعة والربح الوفير لم يغمضا عينيه عن الحق والإنسانية ٠

(٣٦) تاونى

الدين والاقتصاد(*)

قال أناتول فرانس فى كتابه بئر القديسة كلير «رحمة الله لاحد لها ، حتى لقد تسع الأغنياء» ولم يكن أناتول فرانس ثائراً ولا عدواً للمجتمع الحديث ، ولكنه كان مفكراً عادلا ورحيما ، وقد انتقد مظالم الحضارة

(*) مقال بعنوان «أبطال العدل الاجتماعى» من كتاب «الدين والاقتصاد» للأستاذ تاونى Tawney أشهر من كتب وخطب فى الجامعات الإنجليزية ، نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٨٩ ، فى ١٩٣٨/٣/٢٢ .

الأوربية وفضح كثيراً من مخازيها على طريقته الساخرة بأسلوبه الساخر، وإن العهد الذى عاش فيه وهو عهد الجمهورية الثالثة فى فرنسا كان منطويا على كثير من المعايب السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان يعتبرها جرائم ، لأنه اعتقد أن نظام الدولة فى عصره كان قائما على اضطهاد الضعفاء وظلمهم وتسخيرهم واستغلالهم مع أنهم مصدر الثراء للأغنياء وعلى كواهلهم الواهية المضناة شيدت النظم القاسية التى تشجعهم، ولم يكن فى وسع هذا الرجل العظيم أن يكتب غير ساخر ، فإن النقد الجدى قد يقابل بالسخرية من المقصودين والموجهة اليهم سهامه ، ولكن قلم الهازئ المحتقر قد يحز بأقوى مما تحز المدية وقد يذبح دون أن يهرق دما فتقتل فريسته موقوذة . وكان هذا السلاح موفقاً فى بلاد كفرنسا التى اشتهرت بالهزل والهذر والاستهتار والسخرية ، ومنها انتشرت تلك الروح فى أنحاء العالم . وكان أستاذها الأول رابليه فى فولتير . وكان أستاذها الأخير أناتول فرانس الذى كان يستهزىء بالذين يدعون التقوى والفضيلة والحق .

وقد ظن كثير أن أناتول فرانس تحول بالتدريج من الإيمان إلى الإلحاد تحت تأثير تطور إدراكه ومشاهداته ، كما حدث لبعض المفكرين فى الغرب ، ولكن أناتول فرانس كان يعلم حق العلم أن الدين لم يكن له

دخل فى فساد العالم ، فقد كتب لانفرانسى فى كتابه « التنور » كتاب ٢ «إن السعى وراء الغنى ليس إلا كفاح الذئاب على الرمم . وإن رجال المال والأعمال لا أمل لهم فى النجاة من العذاب لأنهم يعيشون بالخداع والغش والجرى وراء الكسب الحرام » (ما أشبه القول بالمثل العربى : الدنيا جيفة وطلابها كلاب) .

ففكرة الدين فى الغرب كانت قبل عهد الرأسمالية الذى بدأ فى القرن السادس عشرة فكرة زهد وقناعة وكانت تحتقر جوائز الدنيا وغوايتها واستدراجها ، بل كان بعض القديسين يحبّذون الفقر ويحببون الناس فيه ويبغضون اليهم الغنى . وقال ويكليف «الرجل السائل سيد العالم وإن كان روح الشر متجلياً على الكون » ، وأول من فتح أعين المظلومين المخدوعين هوبنر[1] حيث قال :

« يجب على المضطهدين والمعذبين فى هذه الدنيا أن ينتظروا جزاءهم فى السماء ، بدلا من أن يثوروا » ، يعتقد بعض الكتاب أن هذه الجملة كانت من أهم أسباب الثورة الاجتماعية لأنها أشعرت الناس باليأس من العدل فى هذه الدنيا ، (هاموند ص ٣٣ الدين ورأس المال والصحفى فراوسار) .

---

(١) فيلسوف إنجليزى .

لقد كان من الصعب حقاً أن يحاول المفكر التوفيق بين راحة الضمير التى توحى بها العقيدة الدينية وتأمر بها ، وبين حالة العالم الخارجية ومظاهر الحياة الظالمة ، وبعد أن مضى على الديانات المنزلة أكثر من عشرين قرنا كانت غاية الإنسانية حياة الدين وقد خلقت العناية الإلهية الكون ورسمت خططه ووضعت تصميمه وحددت لكل كائن طريقه كما صورت لكل كوكب دائرته ومجراه ومستقره . وأعظم سعادة للانسان هى التمتع بنعمة الشهود فى الحضرة الإلهية . بذلك قال المتعبدون وأن لا غاية وراء هذه النعمة ولا يجوز لأحد أن يتطلع لسواها ، وأن عالم النظام الاجتماعى وقد نشأ وسط الضرورات الطبيعية يخطو بتدريج غير محسوس نحو حياة الروح . فكل شىء ماعدا هذه الغاية العليا هباء وباطل، وكل معطل لهذه الغاية بغيض ومكروه . فإن الإنسان يقاسم غيره من الحيوان غريزة البقاء والعمل على استمرار الحياة واستبقاء الذرارى والأنسال ، وبعد هذا فهو مخلوق طبيعى له خواص يمتاز بها عن الحيوان الأدنى وهى حياة العقل والميل الى الاجتماع وهذه الرغبة تلخص فى «معرفة الحقيقة عن الله والعيشة مع الجماعة » وأن هذه المظاهر لنشاطه الفعلى تبعا لقوانين الطبيعة قد تكون أحيانا مضادة لحياة الروح .

إذن كان العالم فى القرون السابقة للتكوين الرأسمالى مصبوغا

بصبغة روحية ، وكان المفكرون يعتقدون أن غاية الإنسانية هى غاية روحانية كما كان القرن الثامن عشر غارقاً فى العلوم الطبيعية والتاسع عشر محكوماً بفكرة النشوء والارتقاء والتطور فى المخلوقات[1] وكما نرى القرن العشرين مغموراً بالماديات رازحا تحت أعباء المطامع ، منطرحا على مذابح المظالم .

ولقد هبت عاصفة المال تنبه الدين ليدفع الأذى عن الأرواح والأجسام ، بيد أن شهوات الكسب التى تلت الحروب الصليبية وفتوح البحار والهجوم على الشرق والغرب والجنوب تغلب على فكرة الدين وفكرة العلم ، وأرغم عباد المال العالم على السير فى طريق تكوين الثروات وتسخير البشر للاستغلال ، وخلعت اليهودية المتغلغلة فى الشعوب رداءها على النفوس والأفئدة فاندفع الناس كالعميان فى الطريق التى أدت بهم الى التهالك الحالى .

ومن العجب أن الستة أو سبعة قرون التى لحقت ظهور الإسلام كان العالم أثناءها فى حالة رخاء نسبى ، فلم يبد تذمرا ولا سخطا ، إلا فى الندرى . ويعد هجوم البرابرة على رومه وظهور الإسلام فى أرض أوروبا واصطباغه بصبغة الحياة الغربية فى بعض ناحياته ، بدأت المظالم فى

---

(١) إشارة إلى مذاهب بوختر وهللى وداروين .

العالم المتحضر من القرن الثانى عشر المسيحى ، ورجع العالم الى الوراء عشرين قرنا حتى إن بعض المفكرين الساذجين وبعض خدام المال نشروا فكرة التضامن الإنسانى ليهدئوا روع الطبقات ، فشبهوا المجتمع بالكائن الحى الذى له رأس وأقدام وذنب أى أعضاء رئيسية وأعضاء خادمة ، ليبرروا مظاهر التفاوت بين البشر . كما فعل سادة الرومان (الباتريسيان) عندما ثار الفقراء (البلبيان) بعد تأسيس رومه .

فمن القرن الثانى عشر الى القرن السادس عشر ، لا يخرج تفكير أوروبا عن هذا التحليل لتزويق التعليل وتحسينه - فأرغم المجموع على قبول حقائق الحياة بكل خشونتها ووحشيتها ، وقد قبلت تلك الحقائق بطاعة تخالطها الدهشة والعجب ، دون أ يفكر أحد فى ضرورة التغيير أو إمكانه. دون التفكير فى هدم القديم لبناء الجديد . لم يكن العقل ينقصهم ولا العلم يعوزهم فقد كانوا فى عهد إحياء العلوم والفنون فى فرنسا وإيطاليا ، حتى إنجلترا التى كانت مصابة بالخمول العقلى على الرغم من نزعاتها نحو الحرية والتحايل على توافر الأرزاق . ولكن شيئا أقوى من رغبة البشر يتجلى على العالم أحيانا ويحكم البشر فتنفذ إرادته كالقضاء المحتوم .

إذن قبلت الإنسانية هذه الحلول العرجاء وهضمت التفسير المنطوى على الخداع وهو أن المساواة مستحيلة لحاجة أعضاء المجتمع للتضامن

والتعاون ولو كان فيها بعض المظالم على البعض . أليست الساق والقدم تحملان الجسد كله ؟ واليد تخدم الفم ؟ ولو تذمر بعضها لفسدت حياة الفرد وتعطل عليه السعي . ولقد سعى المساكين إلى حتوفهم بأظلافهم فكانوا يسيرون مغمضي العيون مكممي الأفواه ، نحو نظام الفدنية أو الالتزام بكل مظالمه ومغارمه على الفقراء ، وبكل مكارمه ومغانمه للطامعين وعباد المال . وأظنهم في هذا الزمن نطقوا بالمثل العقيم القائل « أنا أمير وأنت أمير فمن يسوق الحمير !!؟ » وكما يقبل الفقير ماينطوى عليه هذا القول السخيف الظالم ، كذلك قبل الغرب في القرون الوسطى بناء الفدنية الشامخ بكل مافيه من ضغط وظلم واضطهاد وتسخير الطبقات العاملة الشريفة للطبقات المغتصبة الفاسدة ـ ظلم واستبداد وطمع وعبودية ، حقاً إنه لأمر عجيب ، في كل زمن وفي كل دولة وفي كل عصر وحضارة تجد المحترفين من الأشرار والخبثاء الذين يفسرون المظالم ويعللونها ويدخلونها في أذهان المظلومين ويخفون الحقائق وراء أدهان وألوان من الغش والخداع ، فتارة يكونون رجال الدين ، وطوراً فريقاً من الفلاسفة ، أو الساسة أو علماء الاجتماع أو رجال الحكم . بل إنك لترى ذلك في الجماعات الصغيرة كما تراه في الأمم . وللأسف ترى خضوع المخدوعين وطاعتهم وتسليمهم .

إذن وجب على هؤلاء المساكين أن يصدقوا خرافة تشبيه المجتمع بالجسم الإنسانى وأن لكل طبقة فيه عملا معيناً ، فمنها مايصلح للصلاة أو الدفاع أو التجارة أو حرث الأرض ، وعلى كل منها أن يقنع بما هو فى حاجة اليه وأن لايتطلع لسواه وأن يرضى المساواة بينه وبين أفراد طبقته . فإنه اذا اعتدى على نصيب رفيقه حرمه من حقه . أما بين الطبقات فلابد من التفاوت ، وإلا فتعجز كل طبقة عن أداء وظيفتها وتحرم من الاستمتاع بحقها ، فلا السادة ينهبون العبيد ولا الفلاحون يجورون على من هم أعلى منهم . أما الصناع والتجار فوجب اقتناعهم بما يقيم أودهم لا أكثر ولا أقل !!

أرأيت هذا ؟ أليس فيه رجوع الى تقسيم الأمة الى طبقات . فالكهنة والجند والصناع والزراع والحكم الأبدى على كل فرد أن لايتخطى حرفة أبيه حتى ولو كانت فطرته أو استعداده أو ميوله تدعوه الى النبوة وتدفعه اليها . وقد صاغ هذا النظام الكاتب الانجليزى سوس فى « قصة البارسون » فى قالب بليغ حيث قال : « توجد درجة فوق درجة كما يأمر العقل ولكن ظلم الأعلى للأسفل أمر ملعون » . وكان على رجال الدين فى أوروبا أن يهونوا هذا النظام على العقول ويؤيدوه ولكن الكنيسة حقرت

نفسها ولم ترتق بالعالم . فكان السادة اذا ظلموا العبيد وأمعنوا فى استغلالهم وحركت الكنيسة ساكنا لتحتج أو تنتصر للضعفاء أجابها الأقوياء : « ألسنا ندافع عن شريعة الله بقوة العالم » فتسكت الكنيسة . ولكن بعض الأفراد الذين لم تقنعهم تلك الأدلة ، خرجوا على القانون ولجأوا الى الجرائم فأخذوا يسرقون ويقتلون ويخدعون ، لأنهم فهموا أن تلك التعاليم لم تكن إلا لحماية لصوص وسفاكين وجناة أكبر منهم وأقوى . وعن هذه الطريق تسرب الفساد الى الفقراء .

إذن عجزت الكنيسة عن كبح جماح الظالمين ، وعن إقناع المظلومين بالخضوع حتى قال أحد علمائها : « لاتملك فلسفة الدين أن ترضى بنظام رأسمالى بعيد عن الفضيلة والعقيدة إلا اذا رضيت بعشر السيادة على العالم وتركت التسعة أعشار الأخرى لقوة الظلام وحكم الشيطان ! » .

كان البؤساء من الصناع والزراع يحذرون بعضهم بعضا من حبائل ذوى الأطماع الذين يجمعون المال ولا ضمير لهم وتنصحهم الكنيسة بأن يقنعوا بما قسم لهم فإن الإنجيل لم يعدهم بأكثر من « غدائنا فى يومنا هذا » وأن من الكفر بالنعمة والطغيان على العناية أن نفكر فى عشائنا مادام غداؤنا بين أيدينا أو نحمل هم إفطارنا مادمنا تعشينا . فإن العناية

قد كفلت أرزاقنا وضمنتها (مارتين سان ليون ص ١٨٧ على تشريع تحديد أجر عمال النسيج فى باريس سنة ١٨٧٠) ولكن هؤلاء المنصوحين بالتقشف والزهد والتوكل المطلق كانوا يرون ناصحيهم على غير مايقولون.

فها هم رجال الكنيسة يدخرون الأموال الطائلة ويختزنون أطايب الطعام والشراب ويدفنون أدنان الخمور المعتقة فى الكهوف ويتحلون بالذهب والجوهر . فما بالهم لاينتصحون ولايقنعون ولايشبعون ولايجرؤن أن ينصحوا لأعوانهم من الطغاة، وكان من الطبيعى أن لا يؤمن هؤلاء المنصوحون بإخلاص الناصحين: «لا تنه عن خلق وتأتى مثله». كان رجال الدين ينهون عن الادخار والاستعداد للغد ، وهم يدخرون ويستعدون لخمسين بل لمائة عام بعد الغد ، ففى القرن الثالث عشر اتجهت الأنظار نحو روما حيث امتازت الكنيسة بالشح الشديد والظلم الصارخ فقال كولتون فى «مدينال جارنر» ص ٣٤٧ ترجمة سنة ١٩١٠ «إن كل شئ فى روما يباع بالمال» .

إذن لقد دلت دراسة التاريخ فى القرنين الخامس والسادس عشر على أن كل شئ فى روما قابل للبيع والشراء . وليس المطاع فيها إنجيل

سان مارك ، ولكن المطاع هو المارك الفضى [١] . كانت الكنيسة تأمن المرابين ولكنها تخنق مدينيها وترفض قبض حقوقها ما لم تكن بالذهب والفضة ، وقد وضع دانتى المرابين فى الجحيم فى ملحمته الشهيرة ، ولكن البابا أنعم عليهم بلقب «أبناء الكنيسة الرومانية الخواص » (أنوسنت الرابع ، راجع كتاب إهرنبرج ص ٦٦ ج٢ Fillu Specielis) .

لقد كانت البابوية أعظم نظام مالى فى القرون الوسطى ، فكانت حامية المرابين وحليفتهم تصادق من يصادقهم وتعادى من يعاديهم ، وكانت الأضرار والمخازى التى نجمت عن تلك المادية الخطرة فى القرن الثالث عشر رذاذاً ولكنها صارت فى القرن الخامس عشر سيلاً منهمراً ، فقد أخذ رجال الكنيسة يقرضون المال بفوائد باهظة وكان المرجو أن تحرم الكنيسة الربا لأنه بغيض الى الله ولكن مرابياً سأل أحد أساقفة باريس كيف السبيل الى خلاص نفسه ، وبدلا من أن ينصحه برد المظالم ، أمره بوضع ماله الحرام فى بناء كنيسة نوتردام دى بارى (ص ١٦٦ كتاب فرنسا الاجتماعية فى عهد فيليب أوجست تأليف لوشير طبع باريس سنة

---

(١) ابتداء من هذه الفقرة مقال بعنوان « رأس المال والدين من كتاب حديث للبروفسور تاونى» ، نشر بمجلة الرابطة العربية العدد ٩٠ ، فى ١٩٣٨/٣/٩ .

١٩١٢) وعندما رأى سان برنان فخامة العمارة القوطية التى شيدت على نمطها تلك الكنيسة المهولة صرخ من أعماق قلبه قائلا : «هكذا المال يسحب المال بحبال من ذهب . وهكذا الثروة تجذب الثروة . ياللغرور بل يا للجنون !! إن الكنيسة براقة فخمة بجدرانها وعمدها ولكنها فقيرة فى أشخاص المحتاجين والمعوزين . إنها تكسو حيطانها بالعسجد وتترك أبناءها فى العراء مجردين من الثياب » . وإنها لصورة مروعة مرعبة تلك التى رسمها أحد القديسين .

وقد عجز المدافعون عن جشع الكنيسة أن يبرروا ترديها فى القرون الوسطى فى هاوية المطامع . وحقاً إن الثروة المادية ضرورة من الضرورات لأن الناس لا يستطيعون المعيشة بدونها ، ولايمدون بعضهم بعضا وقت الاضطرار ولكن مكانتهم ثانوية بالنسبة للفضيلة ، بيد أن الأعذار التى تنتحل للتكاثر الذى يلهى أصحابه حتي يروا المقابر واهية ، وإن تلك الأعذار فى نظر أصحابها قوية ، ولأنها تمثل شهوات عنيفة فالناس تخشاها ولكنهم لايمجدونها ، وإن تلك الشهوات العنيفة نحو المال لا تستحق التفكير ولكنها تستحق العقاب .

من الجائز والمشروع أن نسعى لنعيم الحياة لنحقق لأنفسنا السعادة، ولكن ليس من الجائز ولا المشروع أن نقدم المال على كل شيء أو

نسلب الآخرين حقهم ونحكم عليهم بالحرمان لنستمتع بأنصبتهم ، إن هناء الناس ليس رهينا بالمال خصوصاً ما كان مكسوبا بجرائم الاستغلاا والتسخير والاستعباد . إن الثروة وسيلة لاغاية . من حق كل إنسان أن يسعى لكسب مايكفى معيشته فى مكانته والاستزادة عن ذلك القدر لايعد نشاطا ولا علو همة ولكن إسرافاً فى البخل ، والبخل معصية ، الملكية الخاصة ضرورة فى حالة سقوط العالم الحالى لأن الناس قد يعملون أكثر مما يتنازعون ، واذا أملوا أن يمتلكوا لأنفسهم فاذا قبلت الإنسانية ذلك فانما تقبله علاجاً للضعف الإنسانى ، ولكن لا لتمجده أو تقيم له صروح العظمة والفخامة (سانت انطونيو فى القرن الخامس عشر).

وقد كان هذا الكاتب يتسامح فى ملكية الملتزم والطامع . وإن العالم أو الصانع أو الفنان يعمل ليعيش ، ولكن المرابى وعابد المال والتاجر الجشع يعمل ليعيش ثم ليربح ويقتنى ثروة يتخذها وسيلة فى إذلال الآخرين ، هذا الرجل تبغضه كل الشرائع .

كان بعض المفكرين فى القرون الوسطى يعتبر هذا الرجل مطروداً من حظيرة الرحمة والرضى ، لأنه يستمر فى طلب المزيد من الكسب والمضاعفة ، أما فى العصر الحديث فإن رجلا يعمل هذا العمل ينال تمجيد معاصريه ويحوز الفخر . كان هذا الشخص ملعوناً فى الدنيا والآخرة فى

العصر السابق لرأس المال ، فلما جاء هذا العصر صارت سيئاته حسنات وانقلبت الدنيا رأسا على عقب ، وهدرت أقدار الرجال وأصبحت قيمتهم تبعاً لما يملكون أو يرثون ، وتفسير ذلك أن مجموع الأفراد يطمع فيما بين أيديهم فيملقهم لينال منهم نصيباً ولو بالحيلة .

قال هنرى لانجشتين ص ١٩٧ : « إن من كان لديه مايكفى حاجاته ثم تراه يعمل ليزداد غناه لأمر من ثلاثة : كأن ينال مكانة اجتماعية أرقى من مكانته ، أو ليتمكن من الحياة بدون عمل معتمداً على ما اقتنصه واحتال على اقتنائه أو ليترك ذريته فى بحبوحة من العيش ينفقون مما انتهبه لهم - كل هؤلاء معايب تدل على الشح والشهوة والكبرياء وكل هؤلاء فى النار ! » .

وهذا القول يتفق بنصوصه ومعانيه مع كل ماجاء فى الكتب المنزلة.

وقد قال فى العصر الحديث العالم الاقتصادى الألمانى كناب Knapp بنظرية [(١)] حديثة قرر فيها أن الذهب والفضة وهما اللذان تصنع منهما النقود ، لا قيمة لهما فى ذاتهما بل قيمتهما اعتبارية ونسبية بفعل البشر . وقبله قال أرسطو طاليس فى كتاب السياسة « إن الناس تواطئوا

---

(١) كتاب اقتصاد الدولة ص ١٥٤ .

على توحيد وسائل التعامل بسك النقود من معدنين نادرين هما الذهب والفضة ، فاعتقد الناس أن هذين المعدنين نفيسين مع أنهما لا قيمة لهما فى ذاتهما بل هما أقل نفعاً من غيرهما من المعادن . فإن الحديد يتخذ للحرب والزرع وسائر الصناعات . والذهب والفضة لاينفعان إلا للتحلى».

كان عباد المال مبغوضين فى أوربا من قديم الزمان لأن كثرة الناس فقراء لايملكون أن يحاربوهم إلا بآيات من الكتب المنزلة وأقوال الأنبياء والصالحين . ولكن الفقراء أيقنوا أن إيمان هؤلاء العباد قد تزعزع فلجأوا إلى الطريقة التى يملكونها فاخترعوا أساطير كقولهم إن فلانا يعذبه الله فى النار كل ليلة ثم يعيده الى الدنيا ولكنه لايرعوى وأن الآخر سخطت العناية عليه فجعلت ماله ورقا يابسا من أوراق الشجر[1] بعد أن كانت ذهباً وفضة ، وأن ثالثا دخل الكنيسة ليعقد قرانه على عروس جميلة فسقط عليه حجر فدق عنقه فلما تبيّنوا الحجر وجدوه تمثال غنى بأكياسه المملوءة ذهبا وقد حملها الشيطان . وكانت بعض المدن تضطهد عباد المال وتعاقبهم بالضرائب والمغارم ، وتحرم الربا وينظر إلى التجارة بعين السخط . وكان المستهلك الفقير كالمسافر المقضى عليه بأن يقضى حياته

---

(١) « أساطير المرابين والفقراء » تأليف نيكهاوس البندقى ، ص ١٦ .

فى فندق إحدى محطات الطريق فهو فى أيدى المحتكرين لايخرج منها ، مرغم على الشراء من أشخاص معينين والرجل الذى يجبر على الاقتراض محتاج بطبيعة الحال الى القوت .

ملحوظة : (١)

« كانت الحال هكذا فى عواصم الشرق والغرب . وقد لانجد لهذا الشقاء إلا أثراً ضئيلاً فى كتب العرب(٢) لأن الأدب غطى على الحياة الاقتصادية وابتلعها ، ولأن الشرقيين بتواكلهم واعتقادهم فى أحكام الأقدار ينتظرون الرزق صابرين ويرضون بما يصل الى أيديهم مهما كان قليلا ، واذا أصابتهم أزمة فهم يصفونها بالضيق الذى يعقبه الفرج ، حتى أن مؤلفا شهيرا (السيوطى) ألف كتابا فى أخبار الفرج بعد الضيق ليقنع الجماهير أن تداول الأحوال شىء محتم فلا تنفعهم الثورة ولا الغضب ولا يجوز لهم أن يطالبوا أحداً من المخلوقات بشىء .. لأن الإسلام قام على فكرة التضحية والاستشهاد وعلى أن الحياة الدنيا لهو ولعب لأنها زائلة وهذا حق ولكن له معنى آخر لايدركه العوام وإن كانوا يسلمون به لأنه جزء

---

(١) هذه الملحوظة من قلم الكاتب وليس مؤلف الكتاب .

(٢) ص ١٦ كتاب « الجماهر فى الجواهر » تأليف البيرونى العالم المسلم .

من عقيدتهم ، وكان بعض علماء الدين يروجونه لأنه فى مصلحة الدولة .
ولكن أهل أوروبا ضجوا أحياناً واحتجوا وقالوا لماذا نختص نحن بالصبر والفقر ويحتكر غيرنا الجنة الموعودة ويختص الأغنياء بالملذات والمتع وهم يعلمون أنهم وقود النار ».» (انتهت الملحوظة) .

وكانت مصائب الفقراء فوائد للأغنياء فالزارع الذى تماطله أرضه فلا تجود بالثمار أو تنفق أنعامه وهو فى أشد الحاجة اليها والصانع الذى ينفق ماله فى فرح أو ترح أوشدة لابد لهما أن يقترضا ويذلا للغنى لأنه قابض على الأعناق ، يتصرف فى الأرواح والأرزاق فهو ملعون فى نظرهم مكروه لديهم ، ولاتزال سجلات بعض المحاكم تحفظ قضايا عباد المال وتخلد أسماءهم للعنة الأبدية أمثال شيلوخ تاجر البندقية وجويتا المرابية الإنجليزية وشايلين المرابى الأعظم . وقد اعتبرهم المؤرخون أعداء المجتمع وأهل فضيحة يجب القضاء عليهم (ص ٣٥ سجل قضايا مدينة نورويتش بإنجلترا) .

كل هذا قبل أن تخلق (المالية العليا Haute Finance) بمئات السنين وعندما كان الفقراء والأغنياء يتعاملون معاملة حرة ، فلما كثر الضغط على الكنيسة فى مدن مثل فلورنسا أغنى مدن أوروبا فى القرون

الوسطى أرغمت الكنيسة على أن تتظاهر بالتقوى وتحريم المظالم ومقاومة عباد المال ، ولكنها جلبت اليهود لممارسة الأعمال وتدبير الذهب والفضة .

(٣٧) جورج برنارد شو

الفصل الثامن والعشرون من كتاب « دليل الألباء »(*)

كل من لايدرك معنى الرأسمالية أو عبادة المال ، لايمكنه أن يحولها إلى الاشتراكية ، أو يكوّن لنفسه صورة ذهنية واضحة من طرائق الحياة والعمل فى المستقبل ، اذا أريد تطبيق الاشتراكية تطبيقا عمليا . وإذن وجب علينا أن ندرس الرأسمالية أو عبادة المال بنفس العناية والاجتهاد اللذين ندرس بهما الاشتراكية ، ولنبدأ أولا بالقول بأن كلمة رأسمالية كلمة مضللة أى أنها لاتؤدى المعنى المقصود منها . فإن العهد الذى نعيش فيه يحق لنا أن نسميه عهد بروليتاريانبزم من كلمة بروليتير وهو أحد أفراد الطبقة الفقيرة فى رومه ، وكان لايد... ىء سوى التناسل فيقتنيه مولاه ويجعله هو وزوجه مصدراً لتوليد الأطفال ...ين يتخذهم المولى رقيقاً

(*) مقال بعنوان « رأس المال ، الفصل الثامن والعشرون من كتاب دليل الألباء » نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٨٨ ، فى ١٩٣٨/٢/٢٣ .

لنفسه أو للسوق كما تقتنى الآن الأنعام والمواشى والدواجن لتستولد . هذا أصل التسمية .

وفى أواسط القرن التاسع عشر أطلق هذا الاسم على طبقة العمال، أطلقه كارل ماركس وباكونين وبرودون . فإذا أطلقنا وصف الرأسمالية أو عبادة المال على هذا العهد ، فإننا نضلل الرأى ونسىء المشورة لكل شخص نزيه وخال من الأغراض يتفهم الرأسمال ويدرس النظم الحالية ويريد إنهاءها لصالح الإنسانية ، لأن النظم الاقتصادية الحالية الموصوفة خطأ بأنها رأسمالية ، من دأبها أنها تبدد رؤوس الأموال تبديداً فظيعاً وتقضى عليها قضاء ذريعاً حتى أصبح معظمنا وكثرتنا والأغلبية الساحقة منا أفقر من جرذان الكنيسة وأجوع وأضأل[1] .

فإننا اذا أطلقنا وصف الرأسمالية على هذا العهد ، جعلنا الناس يظنون أن الاشتراكيين يريدون أن يتلفوا رؤوس الأموال ويعدموها ويبددوها ، وأنهم يعتقدون أنهم يستطيعون أن يعيشوا بدونها . واذا اعتقد الاشتراكيون ذلك ، أو فكروا فيه ولو برهة قصيرة فإنهم يكونون أغبى من جيرانهم ، وأجهل وأسخف عقولا ، فإن الدنيا لاتسير بغير رؤوس الأموال

---

(١) يضرب فى انجلترا المثل بجرذان الكنيسة لأنها خالية من مخازن القوت والدفء .

ولكن الذى يريده المصلحون هو حسن التدبير فى رؤوس الأموال ، وأنه لمن سوء الطالع وسوء النية أن أرباب الصحف الانجليزية يريدون أن يطبعوا هذه الفكرة الخاطئة عن الاشتراكية والاشتراكيين فى أذهان قرائهم . وأرباب الصحف وكتابها يحاولون إقناع قرائهم فى نفس الوقت بأن الإنجليز شعب مستقل وحر ويأبى أن يكون أفراداً من نوع بروليتاريات بالمعنى الحديث وهو العامل الذى يعيش بالكفاف من يده الى فمه والذى هو غنيمة باردة لأصحاب المصانع أو أرباب رؤوس الأموال ، تقول تلك الصحف الإنجليزية إنه لايقبل هذا الضيم ويرضى به أحد سوى بضعة سكارى ومدمنين ومخمورين من مهيجى روسيا الأشرار ومحترفى إشعال الفتن ومثيرى القلاقل ، ولذا ترى هؤلاء الصحفيين يتقون ذكر كلمة بروليتاريات لما فيها من رمز المذلة والهوان ويكتبون كلمة كابيتالزم لما تنطوى عليه من معانى التمليق والزلفى فتؤدى الى معنى طريف وهو أن أرباب رؤوس الأموال يدافعون عن أموالهم وياله من شرف عظيم وضرورة ذات شأن كبير فى حياة الأمة .

ومع كل ماتقدم ، أرانى مرغما على أن أستعمل الألفاظ والأسماء والأوصاف كما وجدتها ، أى على الدلالة التى يؤديها الآخرون أى كتاب

الصحف وأرباب المال أنفسهم ، وعليك أيها القارئ اللبيب ، وأيتها القارئة اللبيبة أن تقبلى معى هذا المجاز فى فهم الأشياء . وهذا المجاز له حقيقة . والحقيقة التى تظهر لنا اذا قلنا رأسمالية ، نقصد بها الى النظام الذى جعل أراضى البلاد ، لا فى يد الأمة ، ولكن فى يد أفراد من الخواص يسمونهم ذوى الأملاك أو الأعيان ، أو الذوات ، أو أصحاب التكليف أو أرباب الأطيان . ولهؤلاء السادة حق فى أن يمنعوا أيا كان من المعيشة فى الأرض أو الانتفاع بها على أية صورة كانت مالم يكن بينهم وبينه اتفاق سابق يضطر فيه لقبول شروطهم التى تبيح له السكنى أو الزراعة أو الاستثمار . قد يقول لك رجال القانون إنه لايوجد فى انجلترا شىء اسمه « الملكية الخاصة » ، لأن الأرض جميعها فى سائر أنحاء المملكة الإنجليزية هى من بين حقوق جلالة الملك وملك يمينه . ويمكنه أن يستعيد وضع اليد عليها ويستردها بالقانون والفعل فى أى وقت شاء ، وأن تركه حقوق الاستغلال لغيره ليس إلا تسامحاً وتفضلا وكرماً من جلالته . ولكن مادام جلالته لايسترد الأرض فى هذا العصر ، فإن المالك الجديد وواضع اليد يمكنه أن يقصيك عن ملكه ويدلك بذلك الى أن الملكية الخاصة حقيقة موجودة بالرغم من نظريات القانون .

وغنى عن البيان أنه لا فائدة من هذا النظام ، إلا تمكين صاحب الأرض أو مالكها من تكوين ثروة ينفق منها مايشاء ويدخر منها مايشاء ، وهذا المدخر الفائض عن حاجاته هو « رأس المال » وهو أيضا ملك خاص، فالنتيجة لذلك أن صناعة المملكة وجهودها ومجموع أعمالها صارت ملكا خاصاً ، لأنها لاتستغنى عن الأرض والمال . ولكن لما كانت الصناعة لاتوجد بغير عمل ، فوجب على أرباب الأرض والمال أى ذوى الأملاك والرأسماليين أن يستأجروا الأفراد الذين ليسوا ملاكا « واسمهم بروليتاريات» وعليهم أن يدفعوا للمأجورين أو الأجراء نقودا تكفى لمعيشتهم وتزويجهم حتى ينتجوا أنسالا تحل محلهم عند عطلهم أو شيخوختهم أو وفاتهم بشرط أن هذه الأجور لاتكفيهم لينعموا بالراحة ويكفوا عن العمل بحال من الأحوال . والسبب فى ذلك ظاهر ، فإن الذوات وحدهم هم المستمتعون بالفراغ والبطالة ، فإذا امتنع الآخرون عن العمل بفضل أجور كريمة ، وقفت الحركة التى تدر على الأعيان إيرادهم ودخلهم وتمكنهم من المحافظة على مكانتهم . وبهذه الخطة ، اذا تواطأ أرباب المال فيما بينهم على الأنانية والأثرة (وهذا حادث بغير تواطؤ) على أن يأجروا العمال بأدنى قيمة ، تستمر الصناعة ويعيش العمال على القوت الضرورى والكسوة الضرورية والصحة الضرورية الى أن تنتهك قواهم ويمسهم

اللغوب والمرض فيمسوا غير صالحين إلا للملاجىء والتكايا .

وإنك لتجد أن الذين يفهمون هذا النظام حق فهمه يعلمون أنه ينتج تفاوتاً عظيماً وفروقاً هائلة فى الدخل وأن بخس العمل الناتج عن زيادة السكان لابد أن ينتهى فى آخر الأمر بنشر السخط والنقمة بين الطبقات النازلة المكافحة فى سبيل العيش ويتلوها البؤس الصارخ والجريمة وتفشى الأمراض البدنية ، كتفشى العلل الخلقية والنفسية ولا ينتهى ذلك كله إلا بثورة قاسية وفتنة مهلكة .

وحدوث هذه الكوارث رهين بكبح جماح الرعية وصد تيارات الدين والقحط والمرض بإيجاد أعمال للأفراد والمحتاجين والذين أنتجهم التناسل السابق ذكره . هذا الحق الصراح يعرفه الجميع ويقولون به ويصرون عليه ويصرحون بصحة كل الحوادث المنتظرة والمرتقبة . ولكن الآخرين يردون عليه بأن هذا بلاء لابد منه ، ولايمكن اتقاؤه فلابد من الاستعداد لمواجهته ومكافحته لأن الطبيعة الإنسانية فطرت على الأنانية ولا يدفعها دافع ولا يحركها محرك إلا النفع المادى وكسب المال ، وأنه لاتوجد لدينا سكة سلطانية غير هذه السكة التى تؤدى الى تشييد حضارة حديثة قوية .

كان هذا الرأى فى الجيل الماضى يسمى رأى « مدرسة مانشستر » نسبة الى المدينة الشهيرة ، ولكن الاسم أمسى ثقيلا على النفوس والآذان

فغيروه واختاروا مكانه كلمة « كابيتالزم » ، ويتلخص هذا المبدأ فى أن على الحكومة واجباً واحداً وهو أن تحمى الملكية الخاصة فى الأراضى والأموال « أي العقار والمنقول وهما كل مايمكن للإنسان أن يحوزه » وأن تهز ما استطاعت من شرطة وبوليس(١) ومحاكم وقضاة لينفذوا كل العقود الخاصة التى يتعاقد بمقتضاها الأفراد على حفظ مصالحهم الشخصية بجانب جفظ الأمن والنظام وإعداد الجيش والبحرية لمقابلة الطوارىء والمغامرات والدفاع عن سلامة الوطن .

أما الاشتراكية فتقول إن واجب الدولة هو القضاء على التفاوت فى الدخل وأن تحتم المساواة بين الأفراد فى الإيراد وأن تنكر وتأبى وترفض كل حق فى الملكية الخاصه وأن العقود الفردية قيمتها فى أن الشعب أو الأمة فريق فيها ، وأنه لايجوز إقرار العقود التى بمقتضاها يعمل فريق من الرجال أو النساء عملا مرهقا يؤدى بهم وبهن الى الموت فى أسوأ ظروف الفقر فى حين أن قلة من الذكور والإناث يستمتعون بكل النعم على حساب الملايين الذين لم يعرفوا إلا الشقاء هم وذراريهم ، وأن هذه المعركة لقائمة بين رأس المال والاشتراكية منذ قرن كامل . وقد أثارت الرأسمالية فضيحة شنعاء بأنانيتها وظلمها ولذا تراها خافضة الرأس خافتة الصوت محمرة

---

(١) Police stricken state الدولة المصابة بوباء الشرطة .

الوجه من الخجل ، ومضطرة إلى أن تسلم فى حقوق الخلق بالتدريج ، فهى لاتفرط فى ملكها ولكن فيما اغتصبته من الغير على مر الأجيال والقرون ، حقاً لقد كانت الوجبات التى التهمتها الرأسمالية فى غفلة الزمان كفيلة بأن ترميها بالتخم ، فتطفح بعض ما ازدردته اغتيالا (ص ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤).

وقد كان من خداع الرأسمالية ما أرادت به التعمية فمزجت بين الملكية الخاصة وبين الحيازة الشخصية[1] ، فإن الإشتراكية تعلم أن الحيازة الشخصية لايستغنى عنها وهى لاتتعرض لها ولا تقاومها ولكن تقاوم الملكية العامة التى سببت هذه المظالم بأنانية الملاك وظلمهم وتعذيبهم .

ولأجل التفسير نقول أنت تملك عصاك وغداءك ، ولكنك مراقب فى ملكيتهما أو حيازتهما ، فأنت تتكىء على عصاك أو تهش بها على غنمك أو تطرد بها عنك كلبا كَلِباً ولكنك لاتضربنى بها ولا تفقأ عين عدوك . وكذلك غداءك تأكله ظهراً وقد تدعو اليه من تشاء ولكنك لاتملك أن تدس فيه سماً لتقتل ضيفك المرذول أو تنتحر به (لأن الانتحار فى القانون الإنجليزى جريمة) . هذا فيما يتعلق بالحيازة الشخصية .

---

(١) أى الحق العينى والملك الشخصى (العقار والمنقول) .

أما الملكية الخاصة فتختلف تمام الاختلاف عنها . فإذا كان لورد أبجد أو اللادى هوز يملكان مقاطعة أو ولاية إنجليزية فإنهما يملكان أن يطردا أى إنسان يعيش فى ملكهما ، فإذا أبى الأهالى أن ينزحوا فلهما أن يلقيا بهم فى البحر[1] إلقاء كما ترمى القاذورات أو القمامات أو الحيوان المضر . ولا يعترض على فعلهما أحد . ولا يدافع عن الضحايا المطرودين أحد .

إذن الفرق ظاهر بين ملك الأرض وبين حيازة العصا والغداء ، فلك حق الاستمتاع بهما دون إلحاق ضرر بأحد الناس ، أو بنفسك ، فى حين أن حقك فى ملك الأرض يسهل لك أن تلحق الضرر بالآخرين فأنت تنفيهم ولا مأوى لهم ، وتحرمهم من الزرع والضرع ولاقوت لهم . ويمكنك أن تحرق امرأة عجوزاً فى كوخها ، أو تشرد صبية واضعة وضعاً حديثاً بطفلها على ذراعها ، وترمى بها وهى مريضة فى أحضان الجليد والبرد القارس ، لأنك وهمت أنك تربح مالا بتربية الغنم ورعى الظباء.أكثر مما تربح من مشاركة الوالدة على الزراعة أو الاكتفاء بأجرة دارها التى هى ملك لك ، ويمكنك أن تمنع أهل إحدى القرى القائمة على ضفاف أحد الأنهر من أن يبنوا مرسى (للمعدية) التى تنقلهم الى العمران بحجة

(١) أعمال دوقة سذرلاند فى شمال سكوتلاندا سنة ١٨٣٠ .

أن هذا المرسى يفسد عليك نومك فى قصرك الريفى مع أنك لاتنزل به إلا مرة فى كل بضع سنين ولا تبقى فى الغرفة إلا ساعات تعد على أصابع اليد .

واعلم أيها القارىء أن هذه ليست أمثالا خيالية بل حقيقية ومنتزعة من الواقع ومن مشاهدات الحياة الثابتة فى السجلات الرسمية ووثائق الحكومات . وأن هذه الأعمال التى تكررت لأشد ضرراً من ضربك إياى بعصاك بل إنها لجرائم أكبر من إحداث عاهة مستديمة أو قتل رجل بالسم، فإذا سألت لماذا يباح لصاحب الأرض مالا يباح لصاحب العصا؟ قيل لك لأن صاحب الأرض يملك عيناً وعقاراً وصاحب العصا يملك منقولا بالحيازة !!

(٣٨) هـ . ج . جرينوال

سر قنال السويس(*)

قال كاتب هذه الرسالة إن أول من فكر فى العصور الحديثة فى حفر قناة السويس نابوليون بونابرت ، ليتخذها عتبة لغزو الهند . حقيقة قد فكر الفراعنة فى إيصال بحر القلزم ببحر الروم ، وشرع بعضهم فعلا فى تنفيذ

(*) مقال نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١١٥ ، فى ١٩٣٨/٨/٣١ .

هذه الفكرة ، ولكن بونابرت هو الذى نقل المشروع من التفكير الى التنفيذ.

وخبر ذلك أنه فى سنة ١٧٩٨ سافر الى مصر ، ليحطم الإنجليز فى زعمه ، فإذا فاز عليهم ، قام بصنع القناة ، ثم يأخذ فى الاستعداد لغزو الهند ، وقد ألف موسيو Lepére كتابا فى مشروع القناة وإمكان تنفيذه ، فوقع هذا الكتاب فى يد فردينان دلسبس وكان فى السلك السياسى الفرنسى فى مدينة الاسكندرية (١٨٥٢) فانشغل بالفكرة وأخذ فى التفكير فى تنفيذها وجعلها حلم حياته الواجب التحقيق .

ولما بلغ بونابرت مدينة السويس كانت قرية قذرة بشعة المنظر وكان أهلها على أكبر نصيب من البؤس لأنهم كانوا موضع السلب والنهب لعدة أجيال متعاقبة من القبائل المجاورة وكانت حياتهم أفضل منها الموت . فكانت الأوباء منتشرة بينهم وتنهشهم الأفاعى والحشرات ويأكل لحمهم الدود والذباب ، وكانت السفن لاتدنو من ثغرهم الحزين لأن رمال البحر الأحمر قد تراكمت عليه وسدت سبل الملاحة فى أوجه السفن . فدعا بونابرت أعيان القرية وكانوا لفيفا من الصيادين والحمالين وأصحاب الإبل فوعدهم خيراً ورسم لهم خطة مستقبل سعيد ، وبينما كان بونابرت يخدع الأعيان كان الأساتذة والعلماء يحفرون منقبين حول السويس لعلهم يعثرون

على آثار القنال العتيق الذى قيل إن الفراعنة صنعوه ليصلوا بين البحرين الأبيض والأحمر ، فلم يوفقوا الى شيء ، فأمر نابوليون أحد علماء حملته وهو Lepére بأن يضع كتابا فى بناء القنال ، فأطاع العالم مسرعا ولبّى متعجلا ولكنه أخطأ التقدير فظن البحر الأحمر أعلى من مستواه بثلاثين قدما عن البحر الأبيض مع أن البحرين فى مستوى واحد تقريباً . وفى عام ١٨٢٥ جاء الإنجليزى واجهورن وأثبت خطأ الفرنسى Lepére الذى تركه بونابرت يعمل مع زملائه من العلماء وخرج هو ليكشف عن الحقيقة بشخصه .

وكان العلماء يشكون فى نظرية نابوليون ولذا أطلق الجنود عليهم لقب « حمير مصر » ! أما بونابرت فكان يعتقد بوجود آثار لقناة قديمة ، وفعلا وفق الى اكتشاف آثار لقناة عمرو بن العاص ، فأمر بونابرت بتجديد أجزاء هذه القناة البائدة ، وأخذ سمته الى القاهرة ، ليتم أعماله فلقيه رسول حربى فأخبره بأن تركيا أعلنت الحرب على فرنسا فانضم أسطولها الى الأسطول الإنجليزى والى هنا وقفت حركة بونابرت فيما يختص بالقنال فكان حلمه الذى لم يتحقق وحققه فرنسى آخر .

وفى سنة ١٨٣٢ جاء الى مصر فردينان ديلسبس موظفاً صغيراً فى قنصلية فرنسا بالإسكندرية ، وكان أبوه صديقا لمحمد على فأكرم الأمير

مثواه وأحسن مقابلته ، وقدمه الى أولاده العديدين كصديق ورفيق وكان منهم الأمير سعيد باشا الذى ألف عشرة السياسى الفرنسى الشاب وتعوذا أن يمارسا معا بعض الألعاب الرياضية ، كالفروسية والنزال .
وكان دلسبس قد قرأ كتاب Lepére ولكن الظروف لم تخدمه إلا بعد أن وصل سعيد باشا الى الأريكة الخديوية ، فشد رحاله الى مصر مرة ثالثة وانتهز فرصة صفاء بال الأمير وهدوء طبعه وانشراح صدره فبسط له مشروعه فأعجب الأمير به وصمم على تنفيذه . وسمح بالامتياز ولكنه علقه على شرط موافقة الدولة العثمانية التى كانت متبوعة مصر سياسيا .
فتشتت ذهن دلسبس وضعفت قوته بعد أن رأى نفسه فريسة الدسائس فى القاهرة وفينا وباريس واسطامبول ، وكان لورد بالمرستون ألدّ أعدائه وقد أراد الوزير الأكبر الإنجليزى أن يشوه سمعة القناة فوصف المشروع بأنه « نصبة كبرى » ومصيدة للمال ، وأنه ثمرة من ثمار الخيال الفرنسى الخصيب بالأوهام ، وحذر الإنكليز من التورط فيه أو مد يد المعونة بالمال له. ولعب مترنيخ دوره فى فينا ، ولكن الامبراطورة أوجينى ساعدت ديلسبس وأقنعت زوجها الامبراطور نابوليون الثالث بضرورة التأثير فى السلطان ليقبل الامتياز وكان الأمير زوج الملكة فيكتوريا ميالا لفكرة دلسبس ، فدعاه الى قصر وندزور بإذن الملكة فأحسنت استقباله وأصغت

اليه فى رفق ولين وغاظت بذلك بالمرستون الذى كاد يتميز من الحنق بسبب استقبال المفكر الفرنسى والاعتقاد فى خرافته .

وقد حرض نابوليون الثالث حكومة النمسا والمجر على غزو مصر نكاية فى الإنجليز وتنجيزاً لمشروع القنال ، ولكن تلك الحكومة رفضت هذا الاقتراح ، ووعدت بالمساعدة فى القنال ، وقبل أن يتم الاتفاق الدولى تألفت الشركة وجمع دلسبس عشرين ألف عامل من عمال السخرة وكانوا فى الواقع أشبه الناس بالرقيق وأسرع الرجل لأنه تقدم فى السن ، وخشى أن يموت قبل أن يتم العمل وكان فى الواقع قد شارف على الخمسين فى حين أنه فكر فى المشروع وهو فى العقد الثالث ، وفى سنة ١٨٦٢ حفر نصف القنال من بورسعيد الى بحيرة التمساح فافتتحه دلسبس بقوله « باسم سمو الأمير محمد سعيد آمر مياه البحر الأبيض بالدخول الى بحيرة التمساح بإذن الله ومشيئته » .

وكان عدد العمال ستين ألفاً مقسمين الى ثلاثة أقسام ثلثهم يعمل والثلث يحشد فى انتظار العمل والثلث الأخير يعودون الى دورهم بعد أن أدوا عملهم ، واستمر العمل الى سنة ١٨٦٩ أى قبل إعلان الحرب السبعينية بعام واحد وقيل فى ذلك الوقت إن بيسمارك أخر تلك الحرب عاما حتى ينتهى الفرنسويون من حفر القنال لما فيه من النفع العام لكل

من دول العالم ومن بينها ألمانيا ، وقد خشى أنه لو أعلنت الحرب قبل انتهائه لقضى المشروع .

وكان دلسبس يعيش فى الإسماعيلية عيشة الزهد والقناعة ، ولاتزال غرفته الضيقة موجودة على حالتها وليس فيها إلا سرير حديد ولحاف من قماش والأودة ضيقة مظلمة كأنها خلوة أحد الرهبان ، وقد مات سعيد فى يناير سنة ١٨٦٢ وسافر دلسبس الى القاهرة ليعوده فى مرضه الأخير راكباً على جواد من الإسماعيلية ولكنه لم يدركه قبل صعود روحه الى خالقها .

واستعد الجميع للاحتفال بالافتتاح فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، ولما علمت انجلترا بانتهاء العمل وافقت عليه بعد أن سار العمل فى غير حاجة الى موافقتها وهى تضمر أن تضع يدها عليه للدفاع عن الهند ، وفى سنة ١٧٧٥ علم الإنجليز بحرج موقف إسماعيل باشا وأنه فى حاجة الى بيع الأسهم التى تخصه فى قنال السويس فاشترى ديزرائيلى ٧٧ ألفا منها بأربعة ملايين ، وبذا صارت إنجلترا ذات الكلمة العليا فى إدارة القنال ، وكان وسيط الصفقة مستر جرينود والد كاتب هذه الرسالة وكان إذ ذاك رئيس تحرير جريدة بول مول جازيت ، ولما كان البرلمان معطلا فقد تمكن الوزير اليهودى من الحصول على المبلغ من ناتنيال روتشيلد وقد وافقت

الملكة فيكتوريا على هذه الصفقة لشدة ماكانت تثق بوزيرها اليهودى وتميل الى تنفيذ آرائه .

وهكذا كان اليهود سبباً فى إذلال مصر بأن وضعوا فى يد الأسد البريطانى مفتاح القنال ومفتاح الهند وسلاسل من فولاذ لتقييد عنق مصر وأرجلها وأيديها إلى متى ؟

(٣٩) ماجور كلمنت رينتشارد آتلى
الإرادة والوسيلة(*)

اشتهر رجال السياسة الإنجليزية بوضع الكتب فى شرح مبادئهم كما اشتهر العرب بخطبهم الجامعة لتقف جماهير الأمة على آرائهم وخططهم فى الحكم . ومن هؤلاء الميجر آتلى ، وقد وضع كتابين الأول عن العمل الاشتراكى والثانى عن توضيح الخطط وبحث فى الربح ورأس المال واليد العاملة . وهو كما لايخفى زعيم المعارضة ورئيس حزب العمال البرلمانى[1] فى البرلمان الإنجليزى كما كان مكدونلد وهندرسون . أما رئيس الحزب فجورج لانزبورى .

(*) مقال بنفس العنوان نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٧٧ ، فى ١٩٣٧/١١/٢٤ .

(١) لتوضيح هذه المسألة نقول إن للحزب رئيسا إداريا وهو لانزبورى وزعيما برلمانيا يمثله هو آتلى فليس آتلى رئيس الحزب كما يظن بعضهم .

وبرجوعنا الى مصادر التاريخ الحديث علمنا أنه فى الثالثة والخمسين من عمره وقد تخرج من كليتى الحقوق والتاريخ بجامعة أكسفورد ودعى الى ساحة المحاماة سنة ١٩٠٥ وتقلب فى وظائف شتى فيها التاريخ والاقتصاد وعين وزيراً لمقاطعة لانكستر ومديراً عاما للبريد وسكرتيرا برلمانيا للداخلية وخدم فى الحرب فى فرقة لانكشير من ١٩١٤ - ١٩١٩ وانتخب عمدة بلد والدرمان وانتخب للبرلمان سنة ١٩٢٢ وصار رئيس حزب العمال البرلمانى فى سنة ١٩٣١ . وبحساب بسيط نرى أنه قضى ثلاثة وثلاثين عاما فى الأعمال العامة بين التعليم والتحرير والنيابة والوزارة ، فقد بدأ العمل وهو فى سن العشرين وسوابقه فى التعليم والمناصب تفوق سوابق أسلافه فى رياسة حزب العمال أمثال كير هاردى الذى كان عاملا بسيطا فى المناجم وهو مؤسس حزب العمال الإنكليزى ومكدونلد نفسه الذى كان أستاذا ابتدائياً وعلم نفسه .. وينتج من ذلك أن العمال أخذوا يسلمون زمام أحزابهم لرجال يكادون يكونون من طبقة الأرستوقراطية لخبرتهم ومواهبهم ومركزهم الاجتماعى فيكونون أقدر على الخدمة من سواهم .

ولم نقصد بنقل فكرته إلا تنوير الآراء فى طرائق البحث العلمى التى يلجأ اليها هؤلاء الزعماء .

كتب ميجر آتلي كتيبا فى الاشتراكية فى مائة واثنتى عشرة صفحة أهم فصوله « فشل النظام الرأسمالى » قال فيه مايأتى : « إن نظام رأس المال يعتمد فى عمله على قدرته فى رد الأرباح والفوائد للأموال الموظفة أو للعمال المأجورين ، وكل آلة الرأسمالية لاتعمل ولا تتحرك إذا لم تلين أجزاؤها وتدهن وتشحم بزيت الأرباح (استعارة ميكانيكية) وبدون الأرباح لاينتج صاحب المصنع ولايمكن لمدير المصرف أن يمنح الثقة لعملائه ، وكذلك لايستطيع التاجر أن يتناول البيع والشراء . وفى كنف النظام الحالى ترجع أسباب النشاط الاقتصادى الى الوصول الى الأرباح والفوائد التى يصيبها صاحب رأس المال والعامل الأجير ، ولكن الربح ممكن فقط عندما توجد قدرة أو حاجة نسبية سواء الى المال أو الى عمل الأجير ، أى أن الربح وليد العسر لا العسر المطلق ، بل بعض العسر ، فإذا وجد اليسر والرخاء بحيث يبقى كل شخص حراً فى أن يأخذ مايشاء أو يترك مايشاء ، فقد انقطع سيل الربح ، ولم يبق مايدفع للمالك . ومن المضحك أن تنقل رملا الى شاطىء البحر أو فحما الى كارديف[1] فإن كل القريبين من الشاطىء يملكون الرمل ويقدرون عليه بدون أن يدفعوا له ثمنا ، فقيمة الشىء فى إيجاده فى المحل المحتاج اليه .

(١) يقول العرب كناقل تمر الى هجر .

فى سنة ١٩٣٠ نبتت أزمة عالمية سببها زيادة الإنتاج فى مواد الطعام وقد أدى ذلك الى هبوط الأثمان هبوطا سبب كارثة ، وكانت الأزمة سهلة التحويل والتلطيف لو لم يكن نظام الرأسمالية مستحكما ، فقد قدم الماليون من أهل هذه البلاد « انجلترا » الى المصانع والمزارع والمنتجين فى البلاد الجديدة رؤوس أموال ضخمة ، لإنتاج الأطعمة والمواد الأولية ، فلما هبطت الأسعار ظهر أن لن يتمكن المقرضون من الحصول على أرباحهم ، ومع أن المستهلكين رأوا فى سنة ١٩٣٠ عام رخاء وكسب وخير عميم بهبوط أسعار المواد الغذائية ، فقد انقلب هذا اليسر بلاء على الرأسماليين الذين فقدوا أرباحهم ، فوجب إذن عمل شىء لإعادة الشح والقلة والندرة فى الأسواق وإلا فعلى الأرباح السلام !! ولذا حصل تناقض عظيم بين القدرة على الشراء والقدرة على التصريف ، وانحصرت الأرباح والفوائد فى عدد محدود من الرأسماليين ، وقد أعان عنصران من عناصر الحرب على خلق الأزمة : الأول هو اتساع نطاق الاقتراض الذى زاد أعباء الأرباح على الحكومات والأفراد وانتعاش التضخم الصناعى فى البلاد المحايدة أدى الى كثرة الإنتاج وتقوية الحركة الفكرية المؤدية الى الاختراع، فانحطت أجور العمال ، وبعثت فكرة الحماية التجارية

والجمركية من مرقدها بعد أن كان التراب قد انهال عليها من عهد صاحبها جوزيف شمبرلين (جد رئيس الوزارة الحالى) ٠

وبعد قليل تشوهت قدرة المال على الشراء ، وانحلت قوة الذهب ، وعجزت خطط الذين حاولوا أن يردوا للمال اعتباره كما كان له قبل الحرب، ففقد رأس المال قدرته على التناسل والتوالد والتربية (كذا) وضاعت حكمة القائلين « المال يجذب المال ويجره ويربيه ويستدرجه » ، وأصبح الذين يتكلمون عن المال ويذكرون سر قوته مرغمين على التذكير دائما بأن المال خلق لأجل البشر وسعادتهم لا أن البشر خلقوا لأجل المال وتحكمه ، فما أبله السياسى الذى يقول إن إعالة العاطلين بمال توجده الدولة من أى طريق أرخص من أن توجد لهم الدولة عملا يؤجرون عليه !!

وهذا خطأ نفسانى واقتصادى لامثيل له ، فلو فرضنا أن قيمة عمل كل إنسان عادى هى ٢٠٠ جنيه فى العام فإن المملكة تفقد بعطل مليونى رجل ماقيمته ٢٠٠ مليون كل عام ، وهذه القيمة هى التى تعطينا الإنتاج القومى ، ولكن رجل السياسة الأعمى الأصم يقول « نحن نستغنى عن هذه القيمة ونقتسم ماتبقى بيننا وبين العاطلين بأن نعطيهم بدل العطل ومعاش الاستيداع الاقتصادى » ٠

يجد المنتج نفسه عاجزا عن وجود الشارى ، وذلك بعد أن أعد البضاعة وأتقن الإنتاج ، فهو دائم الشكوى من فقد الشارى وندورته ، فإذا ناقشته فى طريقة لحل هذه المسألة أجاب بضرورة الإقلال من نفقات الإنتاج وذلك بتخفيض أجور الصناع ، لأنه لايملك تخفيض أثمان المواد الأولية ولا أجور الأماكن ولا وسائل النقل لأن كلاً من هذه المصادر وراءها رأسمالى يحميها ، أما العامل فليس وراءه أحد يحميه فضلا عن أنه فى حاجة دائمة للأجر ، وفوق هذا فقد نسى المنتج المذهول أنه بتخفيض الأجور يرد سهم نفسه فى نحره ، لأن العامل هو نفسه مستهلك فكلما هبطت أجرته قلت قدرته على الشراء والاستهلاك .

إن أداة الإنتاج الرأسمالى عملت مدة الحرب عملها الى أقصاه ، فارتفع مستوى الحياة عما كان عليه قبل الحرب وما صار اليه بعدها ، وسارت الدنيا بقوة الاندفاع الطبيعى . أما الآن فقد هبطت هذه القوة وتباطأت عجلة الحركة ولذا أخذ مستوى الحياة فى الهبوط إلى ماكان عليه قبل الحرب .

إن المنتج يغيظه تحكم صاحب المواد الخام فى خزانته كما يغيظ العامل تحكم المنتج فى مرتبه أو يوميته وهو محتاج اليه حاجة الرأسمالى

الى صاحب الخامات ، وما أعجب هذا الدور والتسلسل اللذان دلا على أننا نعيش فى عهد الرأسمالية عيشة مفتعلة ملفقة أساسها طمع بعض الأفراد فى الامتلاك والتمتع ولو بتسخير ألوف البشر .

وقد شيد نظام الرأسماليين على عدم وجود الشيء فى مكان معين والحاجة اليه ، وكلما كثرت الأشياء المطلوبة سقطت الأثمان وتبعتها الأرباح ... وكل محاولات رجل الأعمال اللبيب الطامح هو أن يصبح حاكما متصرفا فى مادة من المواد التى لايسيطر عليها سواه فى السوق بأى وسيلة كانت سواء أكان ذلك بإتقان الإنتاج ، أو بتضييق الحكومة على غيره فى دائرة الأعمال أو بالاحتكار الذى يجعله متمايزا على سواه ولايقدر على مزاحمته أحد . هذا هو المركز الوحيد الذى يصبو اليه رجل الأعمال لأنه يعلم أنه هو الذى يضمن له الربح ، فإن فائدته محصورة فى « اختناق المحتاجين إليه » وكل بحبوحة لهم تضيق عليه هو الخناق ! وكذلك صاحب الأرض يربح كلما كثر عدد المتزاحمين على الانتفاع بأرضه، وكلما كانت مساحة الأراضى محدودة أو نوعها الجيد محصورا كان الإقبال عليها كبيرا .

ومن هنا ينشأ التناقض فإننا جميعا بوصفنا مستهلكين نتمنى اليسر والرخاء والكثرة والرخص ، وبصفتنا منتجين ترانا نتمنى العسر

والشدة والشح وندرة الإنتاج ... كل سائق سيارة يحب أن يهبط ثمن المطاط والعجلات التى ينتفع بها ، ولكنه اذا كان عضوا فى شركة «كاوتشوك» يتمنى ارتفاع الأثمان لتعلو قيمة أسهمه وتربو أرباحه على أرباح غيره ، ففى كل منا نزاع بين المنتج والمستهلك ولا تكون المسألة واضحة إلا عند مانبحث فى حال الذين يعيشون بعملهم والذين يعيشون بملكهم وتظهر الفروق بين الفريقين .

لقد تعود الناس على فكرة الربح الخاص وعلى الاعتقاد بأنه المحرك الأول للأعمال والرجال ، حتى أنهم نسوا المقاييس العادية فى شؤونهم الأخرى ، وأعرضوا عن المنطق ، حتى لتراهم لايكترثون للاقتصاد وأثره فى العمران ، إلا من ناحية مايجذبه من الربح لأرباب الأموال ، وحتى الأشخاص الذين ينتفعون بالمشروعات الكبيرة لايعلقون عليها شأنا اذا لم تكن فى أيدى أرباب المشروعات الضخمة الذين تمكنوا من اكتساب الثقة بطرق مفتعلة ولكنها شيطانية على كل حال .

فى سنة ١٩٣٢ اجتمع لفيف من أكبر الثقاة فى حى « سيتى » (وهو حى المال والأعمال) وأعلنوا أنهم سيشيدون مائة ألف مسكن لطبقة العمال ، ووعدوا بربح حسن لكل من يساهم فى هذا المشروع - ولو أن هذا

المال جمع ويدىء العمل فيه لقوبل بالتهليل والتفخيم حتى من جانب الحكومة نفسها ، ولكن الحكومة التى تملك أضعاف مايحتاج اليه هذا المشروع من المال لو أنها حركت أموالها المعرضة للعطل والصدأ فى خزائن المصارف لكان العمل يتم بسهولة ولوجد الرجال الأعمال اللائقة لهم والمريحة لخزانتهم ، ولكن الحكومة لاتحرك ساكنا فى مثل هذا المشروع لئلا تتهم بالتبذير «الاحتياطى» وتفضل أن تنفق أضعافه فى التسليح المعد للتدمير بدلا من التعمير والبناء وتهيئة المساكن لإسعاد العمال والفقراء وهى فى ترددها وتلكؤها خاضعة للرأى العام الذى ينظر الى الربح الفردى فى كل مشروع يعرض له .

وهذا الأمر نفسه مشاهد فى التجارة الخارجية والصادرات ، فإن الحكومة تعرقل مساعى التحرير فى التجارة ، لأنها تنظر بعين السرور للصادرات التى تربحها وتنظر بعين الغم والبخل للواردات لأنها تخرج مالا من مصارفها ، وفكرة الربح تعميها وتصمها لأنها تنسى أن التجارة ليست إلا تبادلا وهذا التبادل نافع للفريقين بلا شك ولكن الشعب كالأطفال يفرح بما يدخل لديه ويحنق لما يخرج من ماله .

إن العالم القديم قد انتهى بكل أفكاره ومبادئه ولا سيما المبادئ الاقتصادية التى محورها « دع الأمور تجرى فى أعنتها[1]» من وضع آدم سميث وأمثاله ، فقد تدهورت واضمحلت وأصبحت علماً على الفوضى فوجب تغيير أفكارنا بما يقتضيه الحاضر والمستقبل القريب وأن نضرب بالأرباح الفردية عرض الحائط . إن أصحاب المشروعات الكبرى يراعون مصالح أرباب الأسهم ، ولكن الأمم التى تتناول أعمالها لا تستغنى عن النابغين منها وتستخدم مواهبهم وتكافئهم عليها ، فإذا كانت الرأسمالية طورا من أطوار الترقى وقد انتهت ، فما هو الطور الجديد الذى سوف يحل محلها؟.

(٣٠) الدوس هوكسلى
الوسائل والغايات
هيلير بيلوك
العالم فى موقف حرج(*)

وضع هذان الكاتبان الشهيران كتابهما فى وقت واحد سنة ١٩٣٨

(١) هذا خير تعريب لقول آدم سميث Laissez passer, laissez faire .

(*) مقال بعنوان « العالم الحاضر كما يراه كاتبان إنكليزيان شهيران » ، نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٨٢ ، فى ١٩٣٨/١/٥ .

ويكاد اتجاههما يكون واحداً ، لأنهما يدرسان حالة العالم فى الوقت الحاضر ، ويبحثان عن العلاج لما تعانيه الإنسانية فى أنحاء الأرض ، وهما يريان أن انجلترا وأوربا فى أزمة وضيق وضنك وبلاء بعضه منتظر وبعضه واقع ليس له من دافع ، وأن الثلثين الباقيين من القرن العشرين ، يتمخضان عن حوادث عظيمة يشعر كل إنسان بقدومها ، وهى بلا ريب حوادث ذات خطورة لم يسبق لها مثيل وكأن العالم كائن حى ، يحس بالقلق ويكاد يلمسه ولعل انجلترا « فى نظر الكاتبين » أشد بلاد الأرض حرجا وضيقاً وشعوراً بالألم . وأنى تلفت الانسان رأى أجواء ملبدة ، ومسائل معقدة وشؤونا مضطربة ولمح روح التذمر منتشراً فى كل مكان ، ولو أن مخلوقا غريبا عن الأرض حل بها وطاف بأرجائها ، إذن لبصر بصورة من أفظع ماتقع عليه العين أو يمر بمرآة الخيال . فيبدو للناظر بناء العالم المتحضر وهو ينهار ويتهدم من أساسه ، لأن الأساس واه ركيك وقد أمست المبانى التى شيدت عليه ، وليس لها من قرار . وكأن العالم بدوله وشعوبه كائن ضخم اعترت الأمراض كل عضو من أعضائه ، وتملكت الأوجاع كل جزء من أجزاء بدنه ، فوقف أطباؤه حيارى لايدرون مايفعلونه ، فلا الجراح بقادر على البتر ، لأنه غير مجد فى اعتقاده ، ولا علاج الباطن بشاف من تلك الأدواء التى شاعت فى سائر البدن وعمت

الكيان كافة . أما أهل المريض فينوحون ويندبون ويلمون شعثاً لايلم ، ويضمدون جراحا لاتلتئم ، وهؤلاء وأولئك يلوكون ألفاظاً من شأنها تخدير الأعصاب ، وتسكين الأوصاب وتنويم الآلام ، ولكنها لاتبرىء من علة ولا تشفى من داء ولا تسمن ولا تغنى ، وحتى ثياب هذا المريض العظيم مهلهلة لاتكاد تستر بدنه ، فالقوم يرقعونها ويحاولون رتق فتوقها ، وسد خروقها ، فإذا ستروا جزءاً انكشفت أجزاء ، كما أن الأمراض متمكنة مزمنة ، فإذا توهموا زوال أعراض داء استعصت على الآسى أدواء ، فما مصير هذا العليل !؟

إن الحروب قائمة على قدم وساق فى الشرق والغرب . فهاهى أسبانيا قد تمزقت إربا وتبددت شتتاً ومدنها تخربت وتحطمت ، وحصونها اندكت وتقوضت . وهاهى اليابان تغزو الصين مقاطعة فمقاطعة ، وتسقط حكوماتها واحدة إثر أخرى ، وتفنى جيوشها فيلقا بعد فيلق ، وأوربا الوسطى تغلى كالمرجل وأمريكا الشمالية تهدد بالاستعداد للحرب والقفز فى هاوية مجهولة ، والجنوبية طعام للفتنة وحشو لجهنم الثورات والقلاقل وانقلاب الحكومات وتبديل وجوه النظم والقوانين ٠

كل هذا والحركة دائمة والتقدم الموهوم مستمر والمدنية تسير فى طريقها المرسوم بأقلام القضاء والقدر ، والحضارة تجرى لا مستقر لها

فى خطوات مضطربة ، بعضها الى أمام وبعضها الى وراء ، تترنح تارة وتميل لتهوى طوراً .. ولكنها تسير بقوة الاندفاع وفعل الحركة الدائمة ، كأنها أحد أجرام السماء التى آن أوان انطفائها ، ألا إنها لخديعة مهولة منكرة ، ولسنا نعلم إن كنا فى عصر حضارة ورخاء وعلم ونور وسلام وأمن وثراء أم فى عصر همجية وشدائد وجهل وحرب وخوف وفقر وشقاء وظلام !؟

اجتمع النقيضان فى مكان واشتمل العصر الواحد على ألوان من الظلم والهوان والبؤس والبلاء ، تراها بعينك وتلمسها بيدك ثم تسمع خليطا من الأصوات واللغات ينادى أصحابها « الإنسانية تسير فى سبيل السعادة المطلقة وتقطع المرحلة الأخيرة فى الطريق الممهدة للعصر الذهبى»، والحقيقة أن الإنسانية تسلك سبيل الشقاء الأبدى والنكد الأزلى، تجرر أذيال الذل التى أثقلتها مواريث الأجيال الماضية ، وتحمل فوق رأسها تاجا من الحديد المموه بلون الذهب ، ذا أشواك تحز فى جبينها ، وتقبض بيمينها على عكاز مرضوض تتلمس به المسير ، متعثرة بعراقيل لاتعد وعقبات لاتحصى ، وحولها جيش من قوى الشر ، تغريها تارة وتوقع بها طوراً وتضللها فى كل حين ، وهكذا ، يسير هذا الموكب الحزين رائده الفشل والغم ، يسير ويحف به سوء الطالع ونكد الحظ من كل جانب

فيسأل المرء نفسه وحق له أن يسأل :

أين العقل وحكم العقل وحسن تصرفه ؟

أين الضمير وحكم الضمير وحسن تصرفه ؟

أين العلم ودولة العلم وسلطانه ؟

أين المدنية ونورها وقوتها ؟

أين الأديان المنزلة ووحيها وكتبها وهدايتها ؟

وهنا لاننسى أن سير هيلير بيلوك كاثوليكى[1] العقيدة ، وإن كان إنجليزيا وهو يقول مانصه بالحرف « إن الكنيسة الكاثوليكية هى التى صنعتنا ووحدتنا وعلمتنا حكمة الحياة ، فإن لم يرتد أكبر عدد منا الى حظيرتها ، فلا أمل للحضارة فى البقاء . لقد كان هم جيبون محصوراً فى تفهم أسباب انحلال رومه ، ولهذا تراه يضرب صفحاً عن ظهور الإسلام والحروب الصليبية ونشأة الكنيسة الكاثوليكية ، أما نحن (يعنى المؤلف نفسه وشيعته) فلا يمكننا إغفالها والإغضاء عنها . أين المعتقدات التى صحبت الإنسانية منذ طفولتها وقبضت على زمامها قبض الوصى الحازم على القاصر الضعيف ليحفظ له ميراثه . أين نفوذ الشرائع التى ظهرت

---

(١) اشتهر هيلر بيلوك بالكهانة ففى سنة ١٩١٠ تكهن فى جريدة ديلى ميل بفشل مجلس اللوردات وفى سنة ١٩١٢ أنذر دولته بحرب أوربية كبرى .

لإنقاذ البشر من حمأة الجهل والوحشية وهدايتهم الى سواء السبيل . أين القوانين الوضعية التى من دأبها تنظيم حياة المجتمع وتسييره فى الخطة المثلى ؟ بل أين ثمرات الثورات الكبرى التى قامت فى أنحاء العالم لتغيير أحواله وتبديلها ومكافحة الاستبداد والمظالم بأبطالها وزعمائها ومبادئها وما وراءها من جيوش جرارة من الضحايا ، وأنهر فياضة بالدماء التى أهرقت فى سبيل نصرة ماكان القائمون بها يعتقدونه حقا ، كما هى الحال فى أسبانيا تماما ، أين مواقف أبطال الحق فى وجوه أهل الباطل ؟

لقد عرفت الإنسانية ثلاثة أنواع من الرق ، الأول رق اليونان والرومان والعرب ، والثانى رق الفلاحين والعبيد فى مستعمرات انجلترا فى أمريكا وفى ممالك أوربا وآسيا في عهد الالتزام والفدنية[1] ، والرق الثالث وهو الأقسى، رق العامل فى العصر الحاضر ، رق الصناعة ورأس المال ، فالويل والبلاء والهلاك والضنك كلها واقعة على رأس الطبقات الفقيرة وقد جعل الربح المادى من البشر لصوصاً للبشر يخطفون الصبيان والبنات[2] من أوطانهم ويتجرون بهم فى البلاد النائية ، حتى اذا ضعفت تلك التجارة قليلا ، أو أصبحت مرذولة ، ظهر نوع جديد من الرق وهو ربط الرجل

---

(١) لايزال هذا النوع موجودا فى بعض جهات افريقية وآسيا الوسطى .

(٢) لعله يشير أيضا الى الرقيق الأبيض الذى اخترعه أشرار أوربا .

وأسرته للأرض التى يفلحها ويزرعها لصالح المالك فهو لايغادرها وقد لاتعطيه الكفاف فى حين صاحبها يبذر المال بذرا ويبعثره بغير وعى فى شهواته وملذاته ، ولما انتهى هذا الدور حل محله دور الرق الصناعى وإن النزاع لحاد شديد وقوى مشتعل الأوار بين الروح والمادة (الكاثوليكية ورأس المال) ، فأهل المال يعتقدون أنهم أغنى من الدين ، وأعلى منه وليسوا فى حاجة اليه . والكنيسة تعلم أن مآلهم الهلاك كما حدث فى القرون الوسطى عندما انتشر الموت الأسود، وهو وباء أهلك الحرث والنسل وأخذ فى طريقه الأخضر واليابس[1] وقضى على ثلثى العالم ، وظنه الناس وباء من الشرق تسبب عن الحروب الصليبية ، وقال رجال الكنيسة إنه عقاب من السماء على ما فرط من البشر من الذنوب وأن الله ليقتص من الناس فى هذه الدنيا أضعاف مايقتص منهم بعد موتهم ، فإن الميزان والحساب والثواب والعقاب ليست كلها وقفاً على نهاية العالم ويوم القيامة.

ولايرى هيلير بيلوك نجاة للإنسانية إلا بتقسيم الملكية العقارية تقسيما عادلا بين الناس وخلع نير الاحتكار والقضاء على من يقال لهم ملوك الذهب والحديد والخشب والزيت والقصدير والبلوط وشركات الاحتكار والاستئثار والعود التى تكوين النقابات ومشيخة الحرف

---

(١) تصاحب الحروب الكبرى أوبئة وطواعين كما حدث سنة ١٩١٧ فى أوروبا والشرق .

والصناعات لحفظ كيان الفنون وإنقاذ الأفراد من المزاحمة وقبل كل شى وبعد كل شئ الرجوع الى الكثلكة.

وغير خاف على أحد أنه يدعو بلاده الى تلك العقيدة ولايحتم أن تنتشر فى أنحاء العالم ، ويمكن القول بأنه يحث على الرجوع الى الدين ، وفضلى العقائد المسيحية فى نظره هى الكثلكة .

وأوسع منه عطنا وأفسح أفقاً وأبعد غاية ألدوس هوكسلى صاحب الكتاب الثانى فهو الآخر يرد الخيبة والخسران الى تجرد الناس من حياة الروح واندفاعهم وراء المادة وقصر جهودهم على الربح والشهوات وإعراضهم عن المثل العليا، هو يرى فساد العالم فى الحث على الاستمتاع وقد شاع فى أقوال المؤلفين والشعراء والخطباء والممثلين التمادى فى سبيل الدعاية للحياة المستهترة والإباحية . وقد بالغوا فى مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مرذولة مبغوضة، كالسم الذى ينقلب داء بعد أن كان دواء . وإن المثل العليا حقيقة راهنة ولاشك فيها ، لأنها ضرورية للعالم وهى الوسيلة للقضاء على الفلسفة المادية التى أعجب بها هواة الملذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها . وإن النفوس البشرية لتضيع فى سبيل هذه الملذات وتفقد الثقة بالفضائل ، وقد أجمعت أرقى العقول فى سائر الأزمنة والأمكنة على أن غاية الإنسانية هى السلام والعدل والمحبة

الأخوية ، ومن المحبة الأخوية نشأت فكرة الوطنية وهى فكرة اذا لم تفهم على حقيقتها، جلبت الشقاء على جميع الأوطان بإيقاظ التزاحم والحروب، والحروب شرور تجب مقاومتها بالأساليب السلبية وعدم مقاومة الشر بالشر، لأن الحرب رجوع بالإنسانية الى الوراء وهو يبغض الإشاعية، ويبغض الإباحية ويكره استعمال القوة وتغيير الأمور بالعنف وينفر من حصر نفوذ الجماعات فى يد واحدة ويؤمن بمستقبل سعيد للإنسانية اذا زالت أسباب التفاوت بين البشر .

(٣١) السير رونالد ستورس
توجيهات أو اتجاهات(*)

كان ولاة الرومان وقوادهم وساستهم فى قديم الزمان متعلمين تعليما عالياً . وكانوا يتفقهون فى لغتهم الرومانية وفى تاريخ بلادهم وشرائعهم، حتى اذا تخرجوا فى الآداب وفنون السياسة أو الحرب يستمتعون بشبابهم فيسيحون ويلهون وقد يسرفون فى حياتهم ولهوهم، حتى ينضجوا ثم يضطلعوا بأعمال الدولة، فيجيدوا .

(*) مقال بعنوان «السياسة الإنجليزية فى الشرق العربى ، توجيهات ، كتاب جديد للسير رونالد ستورس » ، نشر بمجلة الرابطة العربية، العدد ٨٧ ، فى ١٩٣٨/٢/٩ .

وبعد أن يشعروا بأنهم ختموا حياتهم أوشارفوا على الختام ، يتفرغون لتدوين مذكراتهم فى صورة كتب أدبية متقنة التأليف . وقد يتفرد بعضهم بأساليب ممتازة فتخلد كتبهم، وكان من مشاهير الحكام الذين شقوا هذا الطريق وبلغوا نهايته الامبراطور مارك أوريل ويوليوس قيصر، فقد كتب ودون ومن بين ما كتبه وصف فتوح الرومان لانجلترا .

وقد سار الإنجليز على خطة الرومان باستثناء واحد ، وهو أنهم يبدأون حياتهم العملية مبكرين، ويتسترون فى حياتهم الخاصة وهذا تحسين لاشك فيه على خطة الرومان، وكان اليونان قبل الرومان على هذه الخطة وامتازوا بثقافتهم على أيدى مشاهير الفلاسفة كما كان الإسكندر المقدونى وقد اختار له أبوه وهو الملك فيلبس أرسطوطاليس نفسه وهو الذى يسميه حكماء العرب المعلم الأول، ولا ثانى له إلا الفارابى فيلسوف العرب.

ومن مشاهير الإنجليز الذين دونوا كتباً كرومر(١) وويلفريد إسكاوين بلنت، وفى العقد الأخير سير رونالد ستورس . فقد تخرج هذا السياسى من جامعة أكسفورد فى فجر القرن العشرين وتعلم اللغات الشرقية على البروفسور ادوارد جورج براون المستشرق الشهير . وعين ستورس سكرتيراً شرقيا فى الوكالة البريطانية فى مصر سنة ١٩٠٤ وأقام فيها

---

(١) ولورد لويد وهو استعمارى غليظ .

طوال عهد كرومر وغورست وكتشنر وما كماهون ومكسويل . ثم رقى الى منصب حاكم لمدينة القدس وبعد خمس سنوات عين حاكما لقبرص ثم صار حاكما لمستعمرة رودسيا فى أفريقية ، ثم اعتزل الأعمال بسبب مرضه بفقر الدم .

وفى فلسطين احتك بالعرب واليهود وفى قبرص قامت ثورة تهجم فيها القبارصة على دار الحاكم وأحرقوها وكان مريضاً فلم يأمر بمقاومة الثائرين . وعهده فى رودسيا (المسماة لتخليد اسم سيسيل رودس الذى كان من غلاة الاستعمار) قصير قليل الأثر .

وفى أخريات سنة ١٩٣٧ نشر سير رونالد ستورس كتابه موضوع هذه الكلمة واختار له اسم Orientations أى «اتجاهات» وهو اسم مبهم فى ظاهره ، ولكنه ذو دلالة بليغة على موضوعه ، فهو ليس كتاب سياحة ولا تاريخ ، ولكنه مجموعة مذكرات ونوادر وأوصاف للأمم وتحليل لأخلاق الرجال وبيان لبعض الحوادث التى تلقى نوراً على مستقبل بعض الدول والأمم .

والكتاب يقع فى أكثر من ستماية صفحة وقد بدأه بتاريخ والديه وأجداده (وبينهم قسيس شهير) ثم تناول أكابر الرجال الذين عرفهم أمثال من ذكرنا فى المقدمة وغيرهم ولا سيما لورنس الذى عرفه من الساعة

الأولى ، أى حوالى سنه ١٩١٢، وقد نجح الكتاب فى إنجلترا والشرق نجاحا فريداً ، بدليل أنه طبع فى أواخر سنه ١٩٣٧ أربع طبعات ٠ وفى اعتقادنا أن سير ستورس لم يكتب كل ما يعلم ، كما هى عادة الساسة ، ولكن القارئ الواقف على حقائق الأمور يمكنه أن يدرك مما بين السطور ما يرمى إليه المؤلف ، ثم تأتى الحوادث فترفع الستار عن بعض الحقائق التى يشير إليها المؤلف من طرف خفى ٠

تكلم سير ستورس عن بلنت، وهو يقدره من الناحية الأدبية ويقول إنه يعيش شاعرا، ولايخلد كاتباً، ظناً بأن أسلوب بلنت فى النثر لايعلو على شعره ٠ وغير خاف على أحد من المهذبين أن بلنت كتب التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى، كما كتب مذكرات فى مجلدين تنتهى بحوادث العالم الى ما قبل الحرب ونشرها فى سنة ١٩٢٠ ٠ وكثيرون من النقاد يقدرون أسلوبه وزكانته وتنبوءه بحوادث السياسة المصرية التى صاحبها من الساعة الأولى وأعان زعماء ثائريها ومفكريها ولم يخمد حبه لمصر الى آخر حياته فى سبتمبر سنه ١٩٢٢٠

ومما يغلب الظن بأن سير ستورس لم يبلغ فى السياسة الشأو الذى كان يطمح اليه، كأن يصير سفيراً أو وزيرا مفوضاً فى إحدى عواصم الشرق الكبرى ٠

إن الرجل أديب وحساس فهو لا يذهب مذهب التطرف أو الشدة، ويبقىٰ دائما فى حدود الاعتدال ويحل الأمور حلولا وسطا وهو مايسميه الإنجليز Half Measures أى أنصاف المعايير، وقد تتطلب السياسة حلولا مطلقة أو معايير كاملة . وهذا الأمر ظاهر فى شخصيته الأنيقة وأسلوبه الرشيق وسعة اطلاعه وذكائه، وهذه صفات تجعل الرجال يترددون قبل أن ينفذوا خططهم . فهو سياسى أديب وقد يعتقد أحيانا بالأساطير، ولكنه متمسك قبل كل شئ بتقاليد الجنتلمان أى تقاليد الكياسة . ومن الأساطير التى أثبتها فى كتابه ما زعمه له راو من أن طيرا غريباً كان يطوف ببيت لورنس ويحلق فوقه ويلازمه. وكان أحد الناس يكره ذلك فصمم على قتل الطير فلما رماه بطلق صائب ، صادف أن لورنس وقعت له حادثة التصادم التى قضت على حياته !! لأن المعلوم أن لورنس توفاه الموت بمصادمة عنيفة وهو يقود عجلة بخارية (موتوسيكل) وكان متهوساً بالسرعة.

وهذه الأسطورة تشبه مثيلتها التى شاعت عقيب مصرع لورد كارنارفون الذى أعان هوارد كارتر بالمال فى اكتشاف مقبرة توت غنخ آمون ، فقد زعمو أنه مات ملدوغا ببعوضة كانت تتابعه فى فندق شبرد! ولعلها اقتفت أثره من وادى الملوك الى القاهرة .

ولما سئل سير ستورس عن قصة الطير الذى كان مصرعه قرينا لمقتل لورنس، صرح بأنه يثبتها لأنه سمعها لا لأنه يعتقد بصحتها .

ولم يقصر سير ستورس فى ذكر أسلافه فى التاريخ والأدب ممن كتبوا عن الشرق الأدنى أمثال داوتى (صحراء العرب) ولورنس (أعمدة الحكمة السبعة) وجيبون (سقوط الرومان) وجوبينو (تاريخ آسيا) وسير شارلس إليوت (تركيا فى أوروبا) ويبدو للمطلع على حوادث الشرق أن الامبراطورية العثمانية كانت الهدف الذى ترمى اليه كل دول أوربا ماعدا حلفائها (ألمانيا والنمسا) .

وفى اعتقادنا أن هذه الكتب القديمة أكثر فائدة من الكتب الحديثة ، لأن مؤلفيها أكثر صراحة وتبييناً لمقاصدهم ومقاصد دولهم، فياحبذا لو ألم بها أدباء الشرق ومفكروه ، ولاسيما المشتغلون منهم بالسياسة .

وبهذه المناسبة حاولنا كشف القناع عن حقيقة ذلك الإنجليزى الغامض تى. إى. لورنس الذى سارت أخباره مسير المثل ولم يهتم المؤرخون وكتاب التراجم بشخصية حديثة العهد اهتمامهم بشخصيته . فقد عاش فى الخفاء قبل الحرب وأثناءها وبعدها ومات ميتة غريبة وهو فى مقتبل العمر ، وقد حار الشرقيون فى حقيقة هذا الرجل حتى تخيلوا أنه من أشخاص القصص وأبطال الروايات . وذلك راجع الى الدعاية المدهشة التى أحيطت بها حياته وغاياته ومواهبه وقوة إرادته ونفوذ بصيرته

وشجاعته واقتداره على إخضاع الرجال وعبقريته الحربية والسياسية، وكل هذا مبالغ فيه جداً ، فقد أذاعوا أنه اندمج فى حياة العرب، حتى أتقن سائر لهجات القبائل العربية وأنه قاد جيوش العرب والإنجليز والفرنسيس من بداية الثورة الحجازية فى ١٩١٧ الى أن دخل دمشق قيادة المحارب العارف بفنون الحرب.

ولكن كل هذا إغراق فى التماس أسباب التمجيد له وحقيقته أنه تخرج فى جامعة أكسفورد وتخصص فى الحفريات وفى بحوث التاريخ القديم (أركيولوجيا) ولم يكن شغفه بالأركيولوجيا إلا وسيلة للسياحة فى الشرق من سنه ١٩١٢، لعهد لورد كتشنر فى مصر ، فبعث به كتشنر الى فلسطين وسهل له السياحة ورسم الخرائط فى نفس الوقت الذى كان فيه كثير من الرجال والنساء الانجليز يطوفون تلك الأنحاء رواداً ومستطلعين ومستكشفين لمصلحة دولتهم(١) .

وغير خاف أن أعمال لورنس لم تأت اعتباطا، بل كانت منظمة ومحسوبة . فإن كتشنر عين فى مصر لأن إنجلترا كانت تنتظر الحرب فى أوروبا والشرق ، وفى صيف سنة ١٩١٢حشدت أوروبا جيوشها بالفعل عقب سياحة غليوم الثانى من أسرة هوهنزولرن الى طنجة فى شمال مراكش .

---

(١) جرترودبل وفيلبى وشكسبير وعشرات غيرهم .

وإذن جاء لورنس ليستعد لعمله فى الامبراطورية العثمانية وانتقاء الرجال ورسم الخطط • وفى الحق أن الذين عينوه وشقوا له طريقه وعضدوه بالمال الكثير ، سندوه بالجيوش الجرارة والأساطيل وأدوات النسف والتخريب والطائرات، وقد استعمل كل هذه الأدوات فى ثورة العرب بعد أن تمكن من استمالة الملك حسين وأولاده، ولاسيما المرحوم فيصل الذى أعجبه ووافقه من اللحظة الأولى •

كان لورنس قادراً على تحمل المشقات والشدائد، لأن فى دمه حب المغامرة واستطلاع الفنان، وربما كانت نفسه متشبعة بعاطفة دينية عميقة جعلته يرنو الى التغلب على الترك وافتتاح بيت المقدس ، وقد وصفه ديدل[1] أحد مترجميه (راجع كتابه سنه ١٩٢٧) بأنه محارب صليبىCrusader • ووصفت فتوح فلسطين على لسان لويد جورج بأنها الحرب الصليبية الأخيرة • وقال لورد اللنبى فى سنة ١٩٢٢ فى خطبة سياسية فى لونابارك بمصر الجديدة « إن فتوح بيت المقدس تعد حربا صليبية أخيرة»•

ولما ختم لورنس حياته شعر بأن ضميره ملوث وأنه قد يكون خان العرب فلجأ الى الخلوة فسكن فى بيت صغير فى الريف ثم لجأ الى

---

(١) Diddle كتاب جديد فى أربعمائة صفحة طبع سنه ١٩٢٧ •

الإقامة فى جامعة أكسفورد ثم دخل فى سلاح الطيران متنكراً باسم Ross روس الى أن كشف قناعه فدخل سلاح الدبابات، ثم عاد الى سلاح الطيران باسم «شو» وسافر الى الهند . وكان يتهم فى كل مكان يذهب اليه مختفياً بالجاسوسية ، حتى بين الإنجليز أنفسهم فقد جاء فى ص ٣٤٥ من كتاب «ديدل» أن جنود الطيران بانجلترا اتهموه بالتجسس عليهم، ولما سافر الى الهند اتهم بإشعال الفتنة فى شمالها وفى أفغانستان وقام نواب حزب العمال فى البرلمان الانجليزى بإثارة هذه المسألة فهربته حكومته من بومباى الى انجلترا فقصد الى البرلمان للقاء العضوين اللذين أثارا مسألة تجسسه، فكانت لهما مفاجأة غريبة .

وغاية أمر هذا الرجل أنه كان جاسوساً عظيما لوطنه وراءه ملايين الذهب وألوف الجنود وقد يكون الجواسيس عادة من طبقة أقل من طبقة لورنس، ولكن التجاءه الى الخلوة والعزلة والتخفى الذى فسروه بأنه ثمرة مريرة للندم وأنه رجوع الى فكرة اللجوء الى الدير ، انتهى فى سنة ١٩٢١ بأن قبل وظيفة فى وزارة الخارجية بمرتب ألف وستماية جنيه، وصاحب مستر شيرشيل الى القاهرة وفلسطين والعراق والحجاز . وقد نسبوا اليه فى الحجاز فشلا فى مفاوضة الملك حسين ، والمؤلف الجديد يروى على لسان لورنس حديث المعاهدة المنوية ، بأن الملك حسين تمسك بوعود

إنجلترا أو الشرف البريطاني، وأخيراً هدد بالانتحار بأن طلب سيفه من حاجبه، فما كان من لورنس إلا أن انحنى باحترام وقال له «في هذه الحالة يامولاي تستمر المفاوضات مع من يخلف جلالتكم» .

فكان ذلك سبباً في عدول الحسين عن مشروعه . ولكنه لم يقبل المعاهدة «لعناده وقدم طريقة تفكيره» وكان ذلك هو الفشل الذي نسب الى لورنس . ويضربون أمثالا بزهده ، وعدم تعلقه بالدنيا بتنازله عن نياشينه لملك إنجلترا ، ورده الألقاب والأوسمة ، والواقع أنه أراد أن يقنع العرب بصدقة ووفائه فلم ينجح .

(٣٣) سويدنبورج

الجنة والنار أو النعيم والجحيم Heaven and Hell(*)

في شهر يناير من سنة ١٩٣٨، أقامت مدينة أوبسالا بالسويد حفلات تكريمية كبرى لإحياء ذكرى العلامة الفيلسوف المتصوف والحكيم الإلهي سويدنبورج تخليدا لذكراه بمناسبة انقضاء مايتين وخمسين عاماً على ميلاده، فقد ولد في تلك المدينة في سنة ١٦٨٨ وعاش بها الى أن

(*) مقال بعنوان «سويدنبورج العظيم بمناسبة كتابه النعيم والجحيم» ، نشر بمجلة الرابطة العربية العدد ١٠٨ ، في ١٣/٧/١٩٣٨ .

قضى نحبه مكللا بالمجد ومتوجا بالشهرة وكان من أسرة كريمة فاشتغل بالعلم ونبغ فى الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية وفاق أهل عصره فى اللغة حتى إنه وضع أكثر من أربعين كتاباً نقلت كلها الى كثير من لغات أوروبا وطبعت مئات المرات وقد اكتسب ثقة أمته واحترامها ولاسيما العلماء، كما امتد صيته الى أنحاء العالم .

وحوالى الخمسين من عمره ظهرت له مواهب جديدة جليلة حسية ومعنوية وهى قدرته على الاتصال بعالم الأرواح ، فأفضى الى أصدقائه وأهله بما أنعم الله عليه ، ولكن قوله قوبل ببعض الريب ، فقام بتقديم الأدلة المادية على ماذكر وهو الاقتدار على التنبؤ فوراً بالغيب ، وانكشاف الحجاب عن بصيرته . فصار يرى ويسمع عن بعد ويصف الأشياء القاصية كأنه يراها[1] فلما حدث الحريق الشهير فى لشبونه (١٧٢٥) أمكنه أن يصفه دقيقة فدقيقة كأنه شاهد عيان، وقد سجلت أقواله التى وصف بها الحريق تسجيلا دقيقا ، وتألفت لجنة دولية لمراجعة ماتدون وفحصه ، فثبت صدقه فى كل صغيرة وكبيرة مما وصف حتى كأنه صورة حية طبق الأصل مما وقع وجرى .

---

(١) واسمها تيلفزيون وثيليباثى .

وقد أعيدت هذه التجربة العجيبة مرات عدة ، فكان يصف الحوادث المهمة فى عواصم أوروبا ، وصف المشاهد الملابس وهو بعيد عنها بمئات الفراسخ فأثار بذلك دهشة الخاصة والعامة .

ثم تصدى لتفسير الكتب المقدسة تفسيراً أشبه بما يقول به المتصوفون من المسلمين فى أوقات التجلى، وعنده «الله» ويسميه الكلمة «لوجوس»(1) وكان يكتب باللغة اللاتينية التى كان يجيدها وهى إذ ذاك لغة العلم . وكان الرجل طويل القامة كبير الهامة جميل الوجه جذاب الشخصية فصيح اللسان بليغ الأسلوب فى الكتابة والخطابة والحديث . وتمثاله المرفوع فى كبرى ساحات مدينته شاهد بهذه الأوصاف ، وعندئذ بادرت الجمعيات العلمية والأكاديميات الى تمجيده والإشادة بفضله ومنحه الألقاب العلمية ورقته الدولة الى رتبة الشرفاء وأقبل عليه الناس من كل فج يستشيرونه فى أمورهم ويسألونه حل مسائلهم المعقدة ، وكان ذا ثروة طائلة . وفى آخر أيامه انقطع لتأليف الكتاب الجليل الذى نحن بصدده ، وهو «الجنة والنار» أو «النعيم والجحيم» معتمداً فيه على الإلهام الإلهى، وعلى طريقته الخاصة فى فهم روح الكتب المقدسة . وقد نقل هذا الكتاب الواقع فى ألف صفحة تقريباً الى لغات كثيرة عن اللغة اللاتينية . وقد

---

(1) Logos يونانية .

وصف سويدنبورج بأنه نبى لقومه وقيل إن العالم لابد أن يتغير اتجاهه بعد أداء رسالته ٠

والثلاثة أقسام التى قسم اليها كتابه هى ، القسم الأول فى الجنة[١] ومن يقرأ هذا القسم يعتقد أنه يقرأ بعض كتب السنة فى وصف حياة الأبرار والأخيار، والقسم الثانى فى وصف عالم الأرواح ، والثالث فى وصف الجحيم ٠

وهذا الرجل يرى أن الآخرة خير وأبقى، وأن حياة الدنيا حياة كسب وتجربة ، وأن القيامة حق والبعث والموت حق والثواب والعقاب حق وأن مدار المشاكل كلها على نية الفرد وانطباعه على الخير أو على الشر ٠

ويرى أن أعظم ما يبعد الإنسان عن النعيم : النفاق والمواراة والموارية والكذب . وأن الذين يحلون أعلى عليين هم الصادقون والصريحون والبعيدون عن الأطماع فى هذه الدنيا ، وأن دخول الجنة يسبقه ترشيح واستعداد فى جمعيات من الأرواح تتلقى روح المتوفى أى المنقول من هذه الدنيا كأهله وأصدقائه وأزواجه . وأن الحب وهو العامل الأول فى الدنيا لايزال له أكبر شأن فى الحياة الأخرى وهو الذى يجمع أو يفرق ٠

---

(١) Heaven أى السماء وهو يطلق على دار النعيم ٠

أما الملائكة فأشخاص كالبشر من حيث الخلقة والتكوين ، إلا أنهم يرتدون ثيابا غير ثيابنا ، ولهم بيوت يسكنونها ولهم علوم ومعارف يتلقونها ويلقونها ، وأن الإنس والجن عنصران حقيقيان لاشك فيهما . وأن للملائكة درجات ومناصب يتجلون فيها وينقلون إليها ، وأنه لايدخل الجنة كل من قال بالتثليث لأنه رأى غير مقول به عند الأرواح الطاهرة التى تدخل الجنة.

أما الجحيم وهو مقر العذاب للأشرار والجناة فوصفه معنوى . وهو ينطوى على آلام مريرة يتذوقها المذنب ويوجد منهم من يخلد فيها ، ومنهم من يعفى عنه . وأن بعض الناس يلقى بهم فى الجحيم بمجردموتهم فيدخلون الى كهوف كأنها سجون انفرادية أو زنزانات ، والبعض الآخر يمر ببرازخ شتى والرجل يتكلم قائلا : « لقد رأيت فلاناً وقد عذب بالوحدة والانفراد ، والظلام الحالك والضيق الشديد ، وأن الملائكة المنوطين بالعذاب غير المنوطين بالرحمة » .

وكأن المطلع على الآداب الإسلامية يقرأ فى صفحات « الإنسان الكامل » للجيلى ، لأنه أصرح من كتب في هذه الموضوعات .

وقد كان لكتاب سويد نبورج أثر كبير ، فتألفت جماعات للبحوث الروحية في إنجلترا وفرنسا وألمانيا(١) .

وآراء الرجل تهدم الأفكار المادية السائدة ، وقد جاءت حوادث كثيرة

---

(١) كتب لطفي جمعه في مذكراته المخطوطة في الفصل المعقود في « التكوين الروحي » له ما يلي : «من العلماء الذين اشتغلوا بالبحوث الروحية هوم الإنجليزي المتوفى سنة ١٨٨٦ وسانتون موبز المتوفى سنة ١٨٩٢ وكان وسيطا روحياً وأنشأ مجلة « الضياء النفسانية » ومن مؤسسي الجمعية الروحية بإنجلترا ، ووليام ستيد المتوفى سنة ١٩١٢ وصاحب مجلة المجلات ومؤسس « مكتب جوليا » ، وألان كارديك مؤلف كتاب كبير في الأرواح وكان يعتقد في التقمص ، والعالمان الألمانيان زولنر وويبر ، والوسيطة الإيطالية يوزابيا بلادينو التي قالت وهي منومة إنها عاشت على الأرض قبل ذلك مرات كرجال ونساء وترجمت مجلة المقتطف مقالات عنها سنة ١٩٠٤ ، سنة ١٩٠٥ ، وموريسللي الإيطالي صاحب الأبحاث الطويلة في الروحية ، والبروفسور ريشيه الفرنسي وله كتب ومجلة مصورة ، وأني برايت من ملبورن باستراليا ولها مجلة « رسول النور » ، والسير جويك ووليام باريت وإدموند جوني من الإنجليز والذين أسسوا جمعية البحوث الروحية وأبحاثهم في ٢٥ مجلداً ، ١٥ كتاباً كبيراً ، وكونان دويل الذي ألف كتاباً في تاريخ الروحية ، وهنري برجسون أشهر فلاسفة فرنسا ووليم كروكس أشهر الباحثين بقلمه وعلمه في الروحية ، ووليم جيمس فيلسوف أمريكا الأوحد ، وأوليفر لودج العالم الإنجليزي الشهير ووسطيته السيدة تومسون ، والعلامة الأمريكي هودجسون ووسيطته مسز بايبر .

ويلاحظ أن هؤلاء الرجال والنساء كلهم صادقون وذوو شرف وعلة وخالون من الخداع والكذب ومعظمهم لايطلب المال ولا يسعى الى كسبه عن هذا الطريق ، وآراؤهم أن الناس يعيشون بعد الموت عيشة تشبه الدنيا في المشاغل والمصالح ، وهو رأى راجح فلسفيا وجيد أخلاقيا وموافق لما تقوله الأديان » .

لاحقة حققت أقواله ، لاسيما ماظهر من عالم الأرواح وإمكان الاتصال به على أيدى البروفسور جيليه وشاركو فى فرنسا ، ولودج وكونان دويل فى انجلترا ، وعشرات المؤلفين فى المانيا وأمريكا . وقد حاول بعض المؤلفين تقليده والنسج على منواله مستعينين ببعض بحوثه ، ولكنها شذرات ، ومنهم « كيرك » مؤلف « ذكريات روح ضابط بعد الموت » وارنولد بينب فى « اللمحة »[١] وهو تاريخ رجل تفارق روحه عالم الأرض وتمر بتجارب الموت والتجرد عن الجسد ووصف ذلك ، وكأن بعض نبذ منه منقولة عن كتاب عربى اسمه «الدر المنثور فى أخبار أهل القبور» ولكن كل هذه الكتب لاتعد شيئاً مذكوراً بجانب البحر الخضم الذى خاض غماره سويدنبورج ثم وصفه عن علم وحقيقة ريب فيها ، فيما حبذا لو نقل هذا الكتاب النفيس القيم الى اللغة العربية لمقارنة ماجاء فيه بما جاء فى الكتب الإسلامية عن هذه الناحية .

(٣٣) أرجنسون
مذكرات فى تاريخ الحكومات(*)

مؤلف هذا الكتاب كاتب سياسى فرنسى تناول فيه الديمقراطية على

---

(١) The Glimps .

(*) مقال بعنوان « الديمقراطية على مرّ الأجيال ، مذكرات فى تاريخ الحكومات » نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٩٢ ، ص ١١ - ١٤ ، فى ١٩٣٨/٢/٢٢ .

مر الأجيال ، فهو يقول فيه إن سعادة البشر تحتاج إلى شيء من عنايتنا والتفاتنا فهي المقصودة بالذات في أصل الأمور . فلا تكويم الأموال وتكديس الثروات ولا إحراز الأمجاد الحربية والانتصار على الأعداء بالغاية التي ترمي اليها الجماعات التي جعلت من حياتها نظاما دوليا ، إنما الهدف الأسمى هو العيشة الراضية في أكناف الأمن والحرية ، قال بركليس(١) في تأبين تيوسيديديس(٢) :

« لقد منحتنا العناية نظاما من الحكم لايزاحم نظم جيراننا . فإننا لاننقل عن سوانا بقدر ما يقتدى بنا القريب والبعيد . وقد أطلقنا على نظامنا اسم الديموقراطية لأن الحكم لدينا ليس مجعولا لمصلحة القلة ولكنه مجعول لمصلحة الكثرة الغالبة ولخير الجميع بغير استثناء . وأن تكون المساواة سائدة بين الأفراد في حياتهم الخاصة ومعاملاتهم فيما بين بعضهم البعض . إلا أن الرجال المتمايزين ينالون تقديرا ورفعة وإعجابا ، فلا يقرون بأنهم مظلومون ، ولا يدخل في روعهم أن مواهبهم تستغل وتستثمر لمصلحة مواطنيهم بدون مقابل . فإن المواهب إما ممنوحة من الأرباب ، وإذن وجب مكافأتها ، كما هو في سبق إرادة الآلهة والطبيعة

---

(١) خطيب سياسي يوناني .

(٢) أكبر مؤرخي اليونان وضع تاريخ حرب بيلوبونيز .

المسيطرة على الكون ، وإما هى نتيجة الاجتهاد والسعى والدأب فوجبت مجازاتها بالخير ، والغاية من ذلك التفضيل لأهل المواهب .

إن الرجل القادر على خدمة وطنه ، لن يتعثر فى أذيال الفقر أو الخمول ، ولن تقف العقبات المادية والعوائق الاجتماعية فى طريقه فإن ذلك يكون وبالا على الوطن وخسارة للإنسانية لاتعوض ، إننا إذا أهملنا نوابغنا وأحوجناهم الى الكد والضنك يكون مثلنا كالمحارب الذى يهمل سيفا نادراً حتى يصدأ فى غمده . فالعيب على المحارب لا على السيف ، ولا على صانعه أو بائعه . إن الحرية هى دستور حياتنا ولذا لانتدخل فى الشئون الخاصة ولا نرمق جارنا بعينى الغيظ أو الحسد ، ولاندخل الغم على أحد ، ولكن تقديسنا للحرية يقف عند حد وهو عصيان الشريعة التى اتفقنا عليها ، فنحن نمجد القضاة ونحترم القوانين ولاسيما تلك التى تكف الأذى عن المظلومين ، وتدفع الشر عن المحرومين والتى تحمى الضعفاء مهما كان ضعفهم ، ونمجد القوانين المكتوبة وغير المكتوبة وهى التى أقرها العرف وأكسبها القدم حق الكرامة وأحلها العام محل الطاعة » .

وجاء فى قرار مجلس العموم الإنجليزى ٦ يناير سنة ١٧٩٤ :

« إن الشعب بعد الله ، هو صاحب السلطة العادلة ، وأن نواب الشعب المجتمعين فى البرلمان ، وقد اختارهم ، يمثلون إرادة الأمة وكل

مايسنه النواب من القوانين فى مجلسهم يصبح قانوناً واجب التنفيذ ، وذلك إذا تفضل جلالة مولانا الملك وحضرات السادة أعضاء مجلس اللوردات بمعونتنا وتعضيدنا ».

وفى ٣ مارس سنة ١٧٦٦ كتب لويس الخامس عشر لبرلمانات باريس « فى شخصى وحده تستقر السلطة العليا ، ولى وحدى سلطة التشريع بغير شريك ولا معين والنظام العام يصدر عن ذاتى ، لأننى حاميه وراعيه الأعلى ، وشعبى وأنا كائن واحد لاننفصل وكل لانتجزأ وحقوق الأمة ومنافعها متحدة وحقوقى ومنافعى ، وكلها خاضعة لى ، وبين يدى ، ولايمكن التفريق بينى وبينها » .

وفى صك إعلان استقلال أمريكا ٤ يوليو سنة ١٧٧٦ جاء ما يأتى:

«من الحق الذى لاريب فيه أن جميع الناس قد خلقوا على قدم المساواة وأن الله وهبهم حقوقا لايمكن حرمانهم منها، ومن بين هذه الحقوق الممنوحة لهم من العناية الإلهية : حق الحياة وحق الحرية وحق الحصول على السعادة ، ولأجل ضمان هذه الحقوق ، تكونت الحكومات ، لا لأى سبب آخر ، فإن الحكومات تستمد سلطتها العادلة من المحكومين . فاذا كانت إحدى الحكومات مخلة بهذه الحقوق وجب مقاومتها وإلغاؤها

وتأليف حكومة أخرى، تؤيد هذه الحقوق وتعمل لها حتى يتحقق للمحكومين ما يصبون اليه ويحرصون عليه » .

وجاء في خطاب مستر بيرك لأحد أعضاء الجمعية الوطنية :

«إنني مقتنع الى أقصى درجات الاقتناع، بأن محاولة الضغط والتضييق والإفقار والمصادرة على رجل كان في الأصل سيدا مستقلا في حياته الخاصة، وأن سلب حقوق الملك العقارى من أمة بأسرها لايمكن تبريرها على أية صورة كانت وبأى شرط من الشروط ، ولا أسمح بفكرى وإيمانى بأن الصلاح يصحب تحكيم الطبقة النازلة أو المعادية للحرية أو الجاهلة بمقدرات الشعوب كالقسس ورجال الجيش والحلاقين والموسيقيين والراقصين وأهل الدعارة وخدام الفنادق وسدنة هياكل باكوس وفينوس .. وهذا ما سوف تؤول اليه حال مجتمعكم اذا سلمتم بمبدأ المساواة المطلقة ووضع زمام الأمور فى أيدى العجزة والأفدام ممن لايستحقون نعمة المحكومين ، فضلا عن سيادة الحاكمين ، فان هذا حتما يؤدى الى الخراب والويلات . فإن هذه الطبقة اذا حكمت ، وتحللت قيودها ، تحولت إلى ذئاب جائعة وأهدرت كل الحقوق وامتصت دماء الأمة وتركتها كقطعان الأغنام ترعى بغير فكر ولاتدبير، فتسقط فرائس للتدجيل والاحتيال ، وينضب معين حياتها ، ويجمد ماء الوجود فى أعوادها ، وتمسى عبرة

للأمم التى تفرط فى سيادتها للأوغاد والسفلى والنوكى من الطامعين والوصوليين.

«إن حكم العامة شر ما تصل اليه أمة مجيدة . ومن دأب هؤلاء الذئاب، اذا تولوا الحكم أن يستغلواغفلة المحكومين ويملقوهم ليكسروا من حدتهم ، والأمم كالحسان يغريها الثناء وتخدعها الزلفى ، ولو بالألفاظ الجوفاء، فاذا ما ذاقت لذة التمليق ، أنفت بعد ذلك الخضوع الى العقل والمنطق لأنهم يرون فيها التقييد والملام، واعلم أن الذين أسكرتهم خمرة الحكم، واستولت على أذهانهم نشوة السلطة واستفادوا مالا ونشبا ولو عاما واحدا ، لايستطيعون أن يتخلوا عن هذه النعم بمحض إرادتهم، وقد يلحقهم الضيق والحزن والغم وهم فى الحكم، ولكنهم لن يفكروا فى وسيلة للنجاة من الضيق والحزن والغم والحرج سوى الحكم نفسه ، وهو القوة التى يركنون اليها فى الخروج من كل مأزق .

« إن الضيق والحرج لم يرغما ملكا أو أميراً على التنازل عن عرشه. وكذلك هؤلاء الأوغاد من الطبقة النازلة اذا ذاقوا طعم السلطة اعتبروا أنفسهم من فريق الأمراء » .

وقال كارل ماركس فى إعلانه الشهير سنة ١٨٤٨ :

« إن الحكومة الحديثة ليست سوى لجان تنفيذية لإدارة شؤون الطبقة البورجوازية وكل الحركات التاريخية السابقة على تأسيس الدولة

الجديدة قامت بها الأقليات لمصلحتها ، أما الحركة البروليتارية فهى حركة واعية مدركة تقوم بها الكثرة العمالية لمصلحة الكثرة العمالية .

ولما كانت طبقة العمال هى أحط الطبقات وأنزلها فى البناء الاجتماعى ، فلا يمكن تصعيدها الى حيث تستنشق الهواء أو تحس بحرارة الشمس ، إلا اذا أخلت لها البورجوازية المكان اللائق والجو الملائم ، فإذا ماتم للعمال مايرغبون وصار لهم أوفى نصيب فى الحكم ، كان ذلك انتصارا للديموقراطية . إن العمال ليدأبون بالعمل والحيلة والنفوذ حتى يضعوا أيديهم على العتاد والنشب والقوة المغتصبة ، ثم يركزون وسائل الإنتاج كلها فى أيدى الدولة فإذا تمت المساواة واختفت أسباب الامتياز والتفضيل بين الأفراد تختفى أيضا السلطة السياسية ، والمقصود هنا بالسلطة السياسية تلك السلطة التى تمكن فريقا من ظلم الفريق الآخر . أما السلطة السياسية المطلوبة لتدبير الأمور فتنتعش وتقوى بالقضاء على الحزازات والأحقاد والغبن وتحكم الأقوياء فى الضعفاء» أ. هـ .

وفى منهاج حزب العمال الإنجليزى فى سنة ١٩٢٨ :

« إن حزب العمال لايرى مخرجا للأمة البريطانية من المآزق التى زجت بها الحوادث الى ضيقها سوى اتباع خطط معينة ، يتعاون الجميع

على تنفيذها ، وهى إلغاء نظام التصويت الاجتماعى الذى يجعل لرجل غنى سلطة فى الانتخاب تربو على سلطة رجال عدة من جيرانه لمجرد ماله، وأن تلغى وسائل التجارة فى الألقاب وبيعها بالنقود ، كما تباع مقاعد اللوردات فى المجلس الأعلى ، وقد وقع فى هذا الخزى كلا الحزبين المحافظين والأحرار مما دل على أن الفرق بينهما هو بالاسم فقط ، أما طرائق الحكم فواحدة ، وأن يقضى على تأثير الرشوة فى الحياة السياسية فإن المال لايجوز أن يكون سببا فى تقديم العجزة على القادرين فى حكم البلاد والتشريع لها ، بل الواجب تقدير الكفايات ، وجعلها المقياس الأوحد لتولى زمام الأمور وأن تلغى الفروق الضخمة والمسافات البعيدة فى الثروات ، تلك الفوارق المهولة التى تزعج عقول كل رجل عاقل وكل امرأة عاقلة مما دل على أنها مخالفة لحسن التدبير ، فقد أدت تلك الفوارق إلى حسبان الحرية حبراً على ورق ولفظاً خاليا من المعنى[1] ، وأن تلغى الامتيازات الاجتماعية وترد المظالم الاقتصادية ، وأن يبنى نظام اجتماعى وسياسى أساسه تعميم الانتفاع بكنوز الحضارة الزاخرة بالخيرات والمعانى السامية والسعادة الحق ، لا جعلها مقصورة على فريق من الأمة دون فريق . كل هذا وفوقه حصر السلطة التشريعية فى مجلس العموم

(١) فى الأصل حرف ميت أو خطاب معدوم الحياة .

وعدم السماح بتأليف مجلس آخر يمثل طبقة من الطبقات أو طائفة من المصالح يكون من شأنه تعطيل قوانين الديموقراطية أو التدخل الفضولى فى التشريع المالى الذى يقره النواب حسب قواعد الدستور المتفق عليها ٠

وفى القرن التاسع عشر سادت فكرتان بإجماع المؤرخين هما الديموقراطية والوطنية . وغير خاف أننا نعيش محكومين بكثير من المبادىء الإنسانية الموروثة . فمن ذلك حق الملوك الإلهى وارتباط الثروة بالحكمة السياسية ونبالة المولد ، حتى يحسب الناس أن كل شريف أو سليل بيت مجد قادر على الحكم بالفطرة ، وقد امتد هذا الاعتقاد من شرف الحسب الى كثرة المال ، واتساع الملك العقارى ، فأصبحت النبالة ، نبالة الأصول ونبالة الثروة ، وغرقت فى بحر من الأوهام ، حكمة القائل «صوت الخلق صوت الحق» . مادام الخلق من الحاجة والعوز بحيث لايستطيعون التسلق الى مناصب الحكم . ولكن أوروبا الأرستقراطية التى سرح فيها ومرح أشباه كاستلرى(١) ومترنيخ والقيصر إسكندر وأضرابهم كانت محبوكة الأطراف ، مقيدة الحدود ، ومغلقة النوافذ بالمعاهدات المقدسة والأحلاف المنمقة على صفحات الكاغد قد غابت وتلاشت بالتدريج وحلت محلها أوربا أخرى تجرى فى عروقها تيارات سياسية جديدة

---

(١) سياسى إنجليزى اشتهر بمعاداة نابوليون ومات فى نوبة جنون منتحرا ٠

محكومة بأصوات الناخبين ومجالس النواب والأحزاب . وأمسى إسقاط الحكومات ورفعها تبعا لإرادة الرأى العام لا لإرادة المستبدين بالأحكام ، فتوارى وزراء الدولة الذين كانوا من طبقة الكونتات والبارونات واللوردات والماركيزات من الذين لايدينون بالطاعة لأحد سوى مولاهم الأمبراطور أو سيدهم القيصر أو ولى نعمتهم السلطان والأمير . وكانت قارة أمريكا مجموعة مستعمرات تابعة للامبراطوريات فانقلبت جمهوريات مستقلة وعلى رأسها جمهورية الولايات المتحدة التى قدمت للعالم مثالا يحتذى يدرسه المؤرخ السياسى دراسة وافية[1] ، وصارت استراليا وكندا وزيلاندا دومنيون متمتعة بالحكم الذاتى ، بعد أن كانت مستعمرات خاضعة للتاج وحتى فى آسيا ظهرت الجمهورية فى تركيا وفى الصين . والبرلمان فى اليابان وإيران وفى الهند حكومة مسؤولة .

ولكن بجانب الديموقراطية والوطنية اللتين سادتا القرن التاسع عشر نشأت الإمبريالزم . ففى أواخر القرن التاسع عشر هبت الأمم الأوروبية واكتسحت أفريقية فقسمتها بالمسطرة والبرجل حتى إنك لترى مستعمرات على أشكال المثلث والمربع ومتوازى الأضلاع . لأن المقاصد كانت منصبة على امتلاك الأراضى لا على معاونة الشعوب . ثم امتدت

---

(١) فى كتاب « الدستور الأمريكى » .

روح الطمع الى آسيا ، فاختفت هالة القداسة المحيطة برأس الحرية والإنسانية وحل محلها السيف والمدفع ، وتلاشت مبادىء المساواة وحماية الضعيف وتحضير الشعوب المتقهقرة وحل محلها الاستغلال وحيازة المادة والخامات لتكون وقودا لجحيم المصانع المستحدثة فى كل ركن من أركان أوروبا ، وقد أدت تلك الخطة الجديدة الى الحرب العظيمة التى كانت حربا إمبريالية ونزاعا على السلطة العليا فى العالم . ولكن بعد تلك الحرب تنبهت الديموقراطية والوطنية وتوارت الإمبريالية وراء أفكار جديدة كما يكف الناقه عن تناول الأطعمة التى جلبت عليه الداء الذى كاد يودى بحياته .

ولو أننا فحصنا تلك الفكرات الثلاث التى سادت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لرأينا ارتباطا وثيقا بينها ، فالديموقراطية مرتبطة بالوطنية ، لأنها ترمى الى تطبيق نظام من نظم الحكم على أمة بعينها ، وكذلك الإمبريالزم فإنها نتيجة لتضخم الوطنية فإن الأمم التى استقوت وطغت ورنت الى تحقيق آمال السعادة لأفرادها لم تجد وسيلة سوى الطمع فى ثروة الأمم الضعيفة أو الجاهلة . وقد كانت بلا ريب نتيجة تواطؤ خفى بين الأقوياء ، فقد هجمت روسيا وإنجلترا على إيران واليابان على كوريا والصين وإنجلترا وفرنسا على شمال إفريقية ،

وإيطاليا على طرابلس ، ماعدا أمريكا فإنها قنعت بما لديها ، ولم تحتل جزر الفيليبين إلا لإنقاذها من مطامع أسبانيا ، ولو شاءت لاجتاحت كندا فى الشمال والمكسيك والبرازيل وشيلى فى الوسط والجنوب ، ولو على الأقل بحجة الرغبة فى توحيد الدفاع عن القارة الأمريكية من عدو مهاجم ، وحفظ الأمن فى تلك الجمهوريات القلقة الثائرة ، ولكنها اكتفت بتصريح مونرو الذى جعل أمريكا للأمريكيين ، وعندما تدخلت الولايات المتحدة فى حرب أوروبا الكبرى سنة ١٩١٤ ، لم يكن تدخلها سعيا وراء المصالح ، ولكن رغبة فى استبقاء التوازن الدولى واعتقادا فى نصرة الحلفاء الذين رجحت عليهم كفة الألمان ، وميلها المؤكد للمحافظة على الديموقراطية الأوروبية . وسواء أكانت تلك الدولة مخطئة أم مصيبة فإنها جرت وراء المثل الأعلى وتكبدت فى هذا السبيل ماتكبدت ، ولما وضعت الحرب أوزارها ولم يمض على عقد الصلح أكثر من عشرين عاما عادت أوروبا الى النزاع على أمور قديمة فى أشكال جديدة . فهذه المرة لن تنجدهم دعوة الديموقراطية ، لأن الحكم فى معظم الممالك اتخذ صورة الطغيان وخضعت دول عظمى لحكم أفراد ظاهرين وجماعات تحكم من وراء الستار باسم الديكتاتورية والفاشية والنازية ، وإن كانت معانى هذه الأسماء ليست واضحة فى أذهان ذويها فهى عظمة الأمم والجماعات وتضحية الأفراد

ورغبة القضاء على المشاعيّة المتربصة فى روسيا الحمراء.

فأين هذه الحال من حال أوروبا سنة ١٩٠٠ التى وصفها جون سمبسون بنمان فى كتابه « حركة الديموقراطية التى لاتقاوم » فى ص ٧٠٨ حيث قال « إن انتصار الديموقراطية ، لجدير بأن يبين لنا خططها . ويدلنا على الطريق التى تسلكها ومادامت قد أصبحت فى أعلى درجات السطوة والنفوذ على الأمم » .

(٣٤) باريــوس
النـــار(*)

يقولون القرن التاسع عشر والقرن العشرين ويحددون كلا منهما بمائة سنة ، وهو لعمرك حساب خاطىء ، مبنى على جهالة بتطور الإنسانية وأخلاق الأمم وقوانين الطبيعة التى تحكم الكون وتنظمه ، وهذه القوانين لاتخضع للحساب الجريجورى ولا الهجرى ، ولا تنقاد لتقويم «هاشيت» ولا لتقويم الحكومات التى تحدد التواريخ وتدقق فى حساب الأشهر والأيام ، فذاك القرن التاسع عشر فى عرفنا لم ينته إلاّ فى الساعة

(*) مقال عنوانه « نظرية حقوق الإنسان فى نظر باربوس ورولان وتطبيقها فى القرنين الغابر والحاضر فى الشرق والغرب » نشر بالبلاغ الإسبوعى فى ٢٩/٦/١٩ ١٩ .

الحادية عشرة من صباح الأحد ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، أى فى الساعة التى أعلنت فيها الهدنة بعد إطلاق آخر مدفع من مدافع الحرب الكبرى ، لأن تلك الحرب كانت خاتمة القرن التاسع عشر ، وتصفية حسابه ، ولم يبدأ ذاك القرن كما يدعى أرباب النتائج والتقاويم وصغار المؤرخين فى سنة ١٨٠١ إنما بدأ على التحقيق فى ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ، عند سقوط سجن الباستيل ، أعظم صرح للمظالم فى التاريخ الحديث ، ولدى سقوط ذلك الحصن أعلنت فئة من بهاليل فرنسا الذين صاروا فيما بعد أبطالا : «حقوق الانسان» !. وإذن يكون القرن التاسع عشر قد بدأ لدى وقوع أول معول على أحجار ذلك السجن العتيق بأيدى الشعب الجائع الهائج المتهوس الناقم على النظام والسلطة والمظالم وانتهى بنهاية الحرب العظمى التى كانت ثمرة لتلك اليقظة الأولى فى الأجيال الحديثة ، وإذن لقد كان عمر القرن التاسع عشر مائة وثلاثين سنة كأنه رجل معمر شرس الطباع بدأ بالحرب وانتهى بالحرب !

حقوق الإنسان ! إنها كلمة مضحكة ! كلمة من تلك الكلمات الجوفاء الخداعة التى تبهرنا بجمالها وحكمتها ، وتنطوى على الغدر والكذب . أية حقوق هذه التى تعنون ؟ ومتى كانت للإنسان حقوق ؟ وعلى من ترتبت هذه الحقوق ؟ أعلى الطبيعة التى أوجدته لذله وعذابه ؟ أم على الأقدار التى

قضت عليه بتنفيذ أحكامها الجائرة ووجدت أفراداً من بنى جنسه يغرونه بالصبر ، أم على القوانين التى وضعها الأقوياء لاستغلال الضعفاء واستثمارهم ، وتخدير أعصابهم حتى يهلكوا جيلا بعد جيل ؟ أم على أمته وبلاده التى تعودت الجور والقسوة على الفرد ليفنى فى خدمة الجماعة ؟ ولعمرك ما الجماعة إلا تلك الكمية المبهمة المظلمة المنشقة على ذاتها من ارستوقراطية متعجرفة ذات عنجهية وغرور ، الى دهماء هوجاء جاهلة ، أم أن له تلك الحقوق على الأسرة التى جعلت ذلك الإنسان أسيرها وهو ولى نعمتها ورب دارها ولم تعد من أدوات سعادته بل وسيلة لهلاكه ؟ حقوق الإنسان ! موال قديم ، موشح فرنسى ، أكذوبة مستحيلة ، ومحال لاينطلى! نغمة يجب تغييرها ! أية حقوق فى عالم تقوده الأثرة والأنانية ويحكمه الشح المطاع والمطامع الأشعبية ، بل الجشع والنهم اللذان ليس لهما حد ! .

لقد محيت العبودية وزال الرق وقامت حروب استعمارية تحت ستار محاربة النخاسة (!!) فى إفريقيا وغيرها ، ولكن أنواعا جديدة من الرق والعبودية والنخاسة قد نبتت وترعرعت وأينعت وأثمرت فى أوربا ذاتها ! ولعل الرق عند اليونان والرومان والفرس والعرب كان أكثر حناناً وأقرب الى الرحمة من حرية هذا الزمان ، فقد كان الرقيق شريكا لمولاه ووارثاً له

وقد يختاره صهراً أو نسيباً ، وهذا كافور الإخشيدى كان رقيقاً وأصبح علىٰ مصر ملكا ، وهؤلاء المماليك الذين أسسوا دولة لم يكونوا فى بداية أمرهم إلا أرقاء ولم يكن الرق إلا استعباداً بالاسم والرسم لا فى الحقيقة، أما الآن فالرق الحقيقى فى الجيوش المحاربة والحقول والمصانع والمدارس والمصارف وفى كل مكان يرغم فيه الفرد الحي على العمل الطويل المضنى لينال قوته وقوت عيلته ، ليربح ثمن الخبز والأدام وليخيط لنفسه ثوبا يقيه قيظ الصيف وبرد الشتاء ، وليحصل على عيادة الطبيب وثمن الدواء لابنه المريض أو زوجته العليلة ، فالجماعة الأوربية التى تسعى فى تحرير الفرد وحفظ حقوقه إنما تريده حراً لتتصرف فيه دون سواها ، فهى تغار عليه لئلا يتصرف هو فى نفسه ، فصارت الإنسانية ذات الحقوق جماعات بأعداد وفئات منظمة تتبع قواعد متحدة وتخضع لقوانين معينة فلا يقال : «انهض يافلان يا ابن زيد أو يا ابن فاطمة» (كما قيل لنا عن نظام النداء يوم القيامة) ولكن يقال : اخضع يانجار أو ياصباغ أو ياطبيب أو يامحامى ! اخضع لنظام أسرتك ونظام حكومتك ونظام صنعتك ونظام جماعتك ، اخضع للشرائع السماوية وللقوانين الوضعية وأطع أولياء الأمر والنهى ، وأصحاب الحل والعقد ، واخضع لنظام السكة الحديدية والبريد والبرق والنقل الميكانيكى والطيران ، واخضع للوائح القديمة والجديدة

الخالد منها والسريع الزوال ، وللضرائب والعوائد والمكوس والدخوليات ولنظام جواز السفر وصحف السوابق ولمطالب خادمك التى صارت أوامر - اخضع دائما ! ودائما اخضع أولا وآخراً ، من مهدك الى لحدك ، فى طريقة رضاعك وطريقة دفنك ، حتى الساعة الأخيرة من حياتك لاتملك أن نعتقك ، فإن كنت مسيحياً فإن القسيس يحضر احتضارك ويمنحك الغفران ليقال عنك « إنك ميت متمما واجباتك الدينية » ، وإن كنت مسلماً مهما بلغ شأوك من العلم أو الشهرة فإنك عقيب الدفن مباشرة قد فكر سادتك فى تزويدك بالنصائح الثمينة على لسان الملقن وهو عتل أثيم يذكرك بما يجب عليك أن تقوله للملكين اللذين لن يلبثا أن يدخلا عليك ليحاسباك ويضرباك بمسوقة أو مطرقة من حديد طولها لا أدرى كم ذراعا ! وهذا الملقن يجب عليك أن تطيعه وتخضع له حتى بعد موتك ثمناً لسير الناس فى جنازتك ، ومادمت لاتزال ضيفاً فى دنياهم ، وتشغل متراً مربعاً من أرضهم المباركة فلابد من الخنوع والخضوع والطاعة لأحقرهم وأنذلهم، وبعد هذا كله فلا تخش ولا تبتئس ياعبدالله فإن لك حقوقا اسمها « حقوق الإنسان » وخلفك جماعة ممتازة من رجال العلم والقانون يدونونها بالمداد الأسود على الورق الأبيض ويدافعون عنها إكراما لك !

وإننى لا أكتب متهكما ولا ضاحكا ولا أجد مجالا أقرب للجد من

هذا المجال ، ولكننى أكتب حزينا مكتئبا متسائلا : حتام تدوم هذه المهزلة؟ ومن الذى يطرب لها ويسر من تمثيلها ومن هو ذلك الشيطان الخبيث أو الشياطين الخبثاء الذين اخترعوا تلك الخرافة ومكنوا لها فى الأرض وفى عقل الإنسان حتى ظنها أمراً واقعاً وحقيقة ثابتة ؟!!

لقد أنتجت الحرب العظمى رجالا أدركوا تلك الحقائق ، ورفعوا عنها النقاب ، وفى مقدمتهم هنرى باربوس الفرنسى وهو رجل فى العقد السادس من عمره حارب فى الصفوف الأولى ، وتلقى أولى الطلقات فليس فى شجاعته وشهامته مطعن ، ثم عاد الى فرنسا محمولا على الأعناق تمجيداً له من المحاربين القدماء .

وقد ألف كتباً كثيرة منذ ذلك اليوم العصيب فمن كتاب « النار » الذى وصف فيه وقائع الحرب أجل وصف ، إلى آخر كتبه « ماذا فعلوا بجورجيا » ؟ إحدى مقاطعات روسيا القديمة ، وهى موطن شعب شريف قوى من الشعوب التى امتازت بذكائها ونبل عناصرها كالشعب القوقازى ، عدا عن جريدته (العالم) Le Monde .

ولا هم لباربوس إلا رفع المظالم عن الإنسانية المفجوعة فى حقوقها فى جميع أنحاء الأرض ، وهو يحاول فى أسلوب قوى وإرادة حازمة أن يرفع الستار عن فظائع الاستبداد والاستعباد التى تئن منها الإنسانية فى

أوربا والشرق والتى كانت فى الحقيقة سبب الحرب وعلتها الأولى، وهو يتوجه بدعوته الى المتعلمين وأرباب الذكاء وذوى الإرادة القوية الصادقة، ويرى أن نشر الدعوة بين الشعب لاينفع، بقدر نشرها بين المتعلمين الذين تحشد من صفوفهم خاصة الزعماء، وهنرى باربوس لاييأس ولا يخشى الرجعيين ولكنه يخشى مطامع أهل العبقرية والنابغين، الذين يدركهم الهوى فتطيش أحلامهم ، ويضلون سواء السبيل، ولايمكن أن يكون الإصلاح فى عرفه إلا اذا حددت «حقوق الإنسان » وحفظت مقدسة بعيدة عن كل أذى، وكان ذلك الحفظ عاما شاملا سائر الإنسانية فى أنحاء العالم كافة ، لأجل هذا هو يحارب الاستعمار ويكافح الاستعباد، ولايخشى فى الحق لومة لائم ولا يرى فى ذلك ما يتعارض مع وطنيته الحارة الصادقة !

والرجل الثانى « رومان رولان » أحد كبار الكتاب وواضع قصة «جان كريستوف» فى عشرة أجزاء وهو كتاب من أمتع الكتب وأشهرها، وقد سد فراغا بين الكتب فى القرن الحاضر، ونال به جائزة نوبل للآداب، وهى فى الحقيقة ممنوحة له لأنه من دعاة السلام، فقد وجد من نفسه شجاعة كافية لينشر فى أثناء الحرب العظمى رسالته الشهيرة Audessus de La Mélée، فوصفه الجهال بأنه من « دعاة الهزيمة » ،

وهو في الحقيقة من دعاة السلام ، وهزأ به رجال من أكثر الكتاب حرية أمثال أندريه جيد، ومن تهكمه عليه قوله «لماذا يقاوم رولان الحرب وهو لم يتألم بها ولم يلحقه منها أذى» ، وقد انضم الى جيد فى مرارة نقده كتاب آخرون أمثال هنرى ماسيس فى كتابه أحكام فى الأدب Jugements .

ولما رأى رولان ما يصيبه من أبناء وطنه ، وهم يعلمون سلامة نيته وحسن مقاصده هاجر وقصد الى سويسرا حيث يقيم فى قصر منيع منقطع فى قرية نيوفيل على بحيرة ليمان، ومن هذا المنفى الجميل يرسل مقالاته ورسائله، وقد عكف على تأليف كتاب جديداسمه L'Ame Enchantée ضمنه ترجمة امرأة ترملت بسبب الحرب وانقطعت فى عقر دارها بعد أن كسرت غصن شبابها فى تربية ولدها الوحيد ، وقد ظهر من هذا الكتاب الى يومنا هذا أربعة أجزاء وهو يرمى به الى إظهار فظائع الحرب وويلاتها وماجرته على وطنه من صنوف البلاء والخراب . وهو أيضا يشرف على "Europe" التى غايتها تقريب الأبعاد بين المفكرين والقضاء على الأحقاد القديمة وتقرير « حقوق الإنسان » الصحيحة تقريراً يضمن سلامتها وحمايتها والضرب على أيدى العابثين بها .

وفى إنجلترا ذاتها ذلك الصرح العظيم من صروح المحافظة على القديم قد عبر الشعب عن إرادته ونصب على كراسى الحكم رجال حزب

العمال ، وهم في جوهرهم أنصار لتلك المبادىء، فمتى نراها نافذة فى أنحاء العالم بغير تمييز بين الشرق والغرب؟

(٣٥) دانتى اليجيرى

الجحيم من الكوميديا الإلهية · ترجمة طه فوزى(*)

كان دانتى رجلاً نحيلا مستطيل السحنة طويل الأنف مجعد الجبين سكسونى الذقن أصفر اللون ، وكان من أسرة وسطى ، وقد ولد فى القرن الثالث عشر المسيحى وهو أول قرون النهضة العلمية والأدبية فى إيطاليا ـ والذى يسميه المؤرخون بعهد الإحياء رينسانس ، وكان شاعراً وسياسياً ومجدداً ومتصوفاً .

أما شاعريته فنابتة من مهزلته السماوية ، وسياسته فظاهرة من مفاوضاته ونفيه ، وتجديده فمن تأليفه باللغة العامية ، وتصوفه دليله فى كتابه الحياة الجديدة .

وعندنا أن دانتى كان متديناً ومتعصباً لدينه تعصباً شديداً ، وأن قصيدته الكبرى التى أبقت ذكره إلى الآن تدور حول الفكرة الدينية الكبرى وهى فكرة البعث والحساب والعقاب .

إن موضوع المهزلة السماوية أو الديفينا كوميديا معروف لقرائنا ،

(*) مقال بعنوان « جحيم دانتى اليجيرى » ، نشر بجريدة البلاغ فى ٧ يونيه سنة ١٩٣٠ .

وسنأتى عليه بالتفصيل ، ولكن يهمنا قبل الدخول فى موضوعه أن نلفت نظر جمهور المتأدبين إلى أن عالما أسبانيا شهيرا[1] ألف كتاباً ممتعاً أثبت فيه بأدلة علمية ولغوية وتاريخية أن فكرة الديڤينا كوميديا قد جاءت لذهن دانتى من قصة الإسراء التى وردت فى المعتقدات الإسلامية ، وفى الحق أنه لايوجد دين من الأديان فيه بيان مستفيض عن وصف السماوات والحساب والعقاب والثواب والجنة والنار غير دين الإسلام ، بل إن بعض الأديان المنزلة قد أغفل ذكر اليوم الآخر بتاتاً ، ولم يأت بذكره مرة واحدة، وفضلا عن هذا فإن أبا العلاء المعرى قد ألف قبل دانتى رسالة الغفران ووصف فيها الجنة والنار ووضع فى كل منها من شاء من الأحباب والأعداء والصالحين والطالحين . وقد كان الأدب العربى ، والمعتقدات الإسلامية معروفة فى زمن دانتى معرفة جيدة سواء أكان من المؤلفات التى نقلت إلى إيطاليا باللغة العربية أو باللغة اللاتينية المترجمة عن العربية وذلك بعد حدوث الحروب الصليبية وانتشار المعارف العربية فى أنحاء الغرب وتبادل العلوم والرجال بين أهل ممالك الشرق والغرب .

وقد وفق أحد أدبائنا الشاب المجتهد الكافاليرى طه فوزى لنشر

---

(١) هو المستشرق الأسبانى ميجويل آسين پلاثيوس الذى ألف سنة ١٩١٩ كتاباً عن «العلم الإسلامى لما بعد الموت فى الكوميديا الإلهية» ، وازن فيه بين الكوميديا ومؤلفات بعض متصوفة الإسلام ، مثل محيى الدين بن عربى ورسالة الغفران للمعرى وبعض الأحاديث النبوية عن الإسراء والمعراج (ر. ل .ج) .

كتاب عن دانتى يشمل مقدمة بليغة بقلم الأستاذ الجليل الدكتور جوفانى كابوفيلا المدرس بالجامعة المصرية ، وقد وصف شاعره بأنه أول مظهر من مظاهر العبقرية الإيطالية وأنه فى مقدمة فحول شعراء العالم لأنه بإحيائه التقاليد الرومانية المجيدة بعد ثلاثة عشر قرناً وبجمعه أزاهير ثقافة القرون الوسطى استطاع أن يوجد معنى جديداً وأن يستحدث شعوراً بالجمال كان يحتاج إليهما الشعر الإيطالى حتى ذلك العهد .

ويقول أنصار دانتى إنه قد تجلت فى قصيدته الخالدة معقولية رجل رأى كل شىء وفكر فى كل شىء وعرف كل شىء .

ولكن الأديب طه فوزى (الكافاليرى) لم يكن ليملك ترجمة حرفية للكوميديا ، لأن ذلك يستغرق بضع سنين ويقتضى جهوداً لاقبل لنا بها فى الوقت الحاضر(١) .

ولهذا اكتفى بترجمة حياة دانتى مطولة مستفيضة ومنقولة من أصدق المصادر الإيطالية ، وقد عرفنا من هذه الترجمة أن جده كاتشا جويدا كان فخوراً عالى النفس ، فلم ينس دانتى له هذه المناقب ، فلما جاء

---

(١) تجدر الإشارة الى أن الدكتو حسن عثمان ترجم « الجحيم » من الكوميديا الإلهية وقد طبعتها دار المعارف طبعة ثالثة سنة ١٩٨٨ ، كما ترجم « المطهر » من الكوميديا وطبعتها دار المعارف أيضا طبعه ثالثة سنة ١٩٨٨ (ر . ل . ج) .

دوره فى مهزلته جعله يدور حول أسوار الأعراف أو المطهر أكثر من مائة سنة ، وقد مات زعيم أسرة دانتى فى الحروب الصليبية بالحراب الإسلامية ، فلم ينس دانتى هذا الثأر ، ولم ينس أصله المستمد من التعصب الدينى .

وقد نشأ دانتى وفى نفسه مرارة اليتم والحرمان من الحنان الوالدى، فقد كان أبوه خامل الذكر ولعله اقترف بضع جرائم يعيره بها الشاعر فوريزى دوناتى فى هجائه الشهير لدانتى بقوله :
« لاتنس أننا نعرف أنك Ben soche fesir figlinol d' Allaghiar ابن اليجيرى » وكذلك يظن أن أمه ماتت فى ولادته ، فلم يتمتع بابتسامة الأم وهو أشد مايكون احتياجاً اليها .

وقد تعلم تعلما دينياً جعله أسير الرؤى والأحلام والعجائب ، وفى الربع الأخير من القرن الثالث عشر تقابل وهو فى العقد الأول للمرة الأولى مع الفتاة التى أعطته معنى الجمال والكمال وهى بياتريس التى كانت مع فيرجيل (شاعر الرومان الشهير) رفيقته ومرشدته فى سياحته السماوية ، ومن تلك المقابلة الأولى إذ كانت الطفلة بياتريس فى نهاية عقدها الأول - استولى الحب على نفس دانتى .

وقد تعلق قلب دانتى بالفتاة ولكن حوادث الدهر فرقت بينهما ومن

المحتمل أن تكون بياتريس قد زفت إلى رجل آخر وانتقلت من بيت أبيها إلى بيت زوجها .

وقد لقيها دانتي مرة ثانية لقاء تاريخيا يراه موصوفا في الشعر ومخلداً في الصور ، وقد وصفه دانتي نفسه فقال :

« إن تلك السيدة البديعة الرائعة الجمال ظهرت لي في ثوب ناصع البياض بين سيدتين رقيقتين كانتا أكبر منها سناً، ولما مرت في الطريق أمامي أدارت عينها نحو الجهة التي كنت فيها وكنت إذ ذاك خائفاً مذعوراً فحيتني تحيه خيل إلى أنني أرى فيها كل معاني السعادة وآمال النعيم » .

وإذا كان اللقاء الأول قد حدث في سنه ١٢٧٤ والبنت في التاسعة من عمرها فقد دامت تلك العلاقة خمس عشرة سنة أي الى ١٢٩٠ وهو تاريخ وفاتها حزناً على أبيها الذي سبقها الى الموت في السنة ذاتها ، فكأنها راحت مبكياً على جمالها الناضر وشبابها الغض في الخامسة والعشرين من عمرها .

وقد تأثر دانتي بهذا الأمر وحزن على محبوبته ومرض حتى كاد يهلك أسى عليها، ولكن الله سلم!

وقد أصيب الشاعر بدخل في عقله من شدة حزنه على وفاة معشوقته، وأصابه الجنون المعنوي أو الميخالومانيا الذي جعله يتخيل أن

الحياة أصبحت لاتساوى شيئاً بعد وفاة المحبوب، فتراه يقول :

«أصبحت المدينة (فلورنس) خراباً لاتستحق أى إكرام، وإن العالم إنما يبكى ويبتسم مع قلب الإنسان» ٠

وزادت حاله فخيل إليه « أن السماء والأرض تشاركانه في مشاعره وآلامه وأن العالم كله من مبدئه الى منتهاه، يجب أن يفهم آلامه ويرثى لحاله» ٠

ويريد دانتى وأنصاره أن يقنعونا بأن علاقتهما كانت شريفة وأنها لم تتعد النظر واللقاء والتحية بالعين والحاجب :

حواجبنا تقضى الحوائج بيننا

ونحن سكوت والهوى يتكلم

وكان دانتى نفسه يقرن اسمها دائما بالطهارة والشرف فيقول :

Tanto gentile a tanto onesta pare

ولكن عبارة وردت فى مؤلفاته تدل على أن علاقتهما كانت تمتد الى أكثر من التحية بالعين والحاجب وإليك نصها :

« اليوم ينتهى حول كامل على وفاة تلك السيدة الفاتنة الحسناء وانتقالها الى عالم الخلود والأبدية ، وهأنذا جالس فى مكانى أذكرها وأذكر أيامها السعيدة فيلوح لى كأن ملائكة السماء تهبط من عل وتأخذ أماكنها على المقاعد الموجودة حولى ، وعندما أنظر إليها يخيل إلى أنهم

رجال فأحييهم وأوجه إليهم خطابي قائلا لقد كانت معى هنا منذ عهد قريب وهذا سبب تفكيرى وإطراقى » .

وقد حاول التسلية عن معشوقته المتوفاة بحب امرأة أخرى ذات جمال وجلال وحنان ، وقام فى نفسه عراك عنيف بين حب هذه المرأة الحنون وبين ذكرى بياتريس، وأخيراً خرجت المتوفاة من هذه المعركة تجر أذيال النصر ولم يستطع الشاعر الإيطالى أن يسلوها ، وكان فقد حبه بداية وحيه الشعرى فألف كتباً واشتغل بالسياسة والفلسفة والأدب وتزوج ورزق أولاداً كباراً وصغاراً من امرأة طيبة القلب لم يكن لها نصيب من قلبه لأن حب بياتريس قد استغرق كل قوته الغرامية. وإننا نسدل ستاراً على بقية ترجمته لأنها مملة ومعظمها يندمج مع وقائع تاريخية لم تثبت صحتها، ونكتفى بالقول بأنه قضى نحبه فى الخامسة والخمسين من عمره فى مدينة رافنا بعيداً عن وطنه وعن زوجته وأولاده الصغار ولكنه كان محاطاً ببعض بناته لاسيما إحداهن التى ترهبت واتخذت لنفسها اسم بياتريس، لترضى أباها . ونبدأ بتلخيص كتابه أو مهزلته التى قسمها الى ثلاثة أقسام :

الأول الجحيم ، الثانى الأعراف أو المطهر ، الثالث الجنة .

فهو يروى فى قصيدته أنه قابل روح فيرجيل وقال له إن امرأة كانت

هبطت الى الدنيا من السماء قد أوفدته لإنقاذ صديقها المخلص، ولم تكن هذه المرأة سوى بياتريس التى أحبها دانتى فى حياتها وبقى مخلصاً لها بعد مماتها، ثم وصلا الى أحد أبواب الجحيم الذى أعد لتغذيب أرواح الذين لم يعملوا فى حياتهم لاخيراً ولا شراً ومن بينهم الملائكة الذين إذ تمرد إبليس على ربه لم يقفوا فى جانب هذا ولا ذاك ، بل ظلوا ينظرون أن يروا لأيهما تكون الغلبة فى النهاية حتى ينحازوا الى جانبه (وهؤلاء هم المنافقون والذين يبقون فى المنازعات السياسية على الحياد، كما نشاهد بعضهم الآن فى مصر يقولون لك أنا لا أنتسب إلى أحد الأحزاب ، بل أنا على الحياد، كأنه لاوطن له وكأن المعركة لاتهمه) .

ثم انتقل الى الطبقة الأولى من الجحيم فرأى الأطفال الذين ماتوا قبل تعميدهم ومعهم من لم يقترفوا الكبائر، وأهل الجاهلية الذين لم يعرفوا الإله الحق ، وقد خصص أحسن مكان من هذا الجزء (كذا) بكبار الشعراء والفلاسفة الأقدمين وكثيرين من مشاهير الرجال والنساء .

وفى الطبقة الثانية من النار التى وكلت حراستها الى مينوسى ذى الذنب العظيم ، رأى دانتى الخاطئين الذين أسرفوا فى حبهم وضحوا فى سبيل واجب الشرف والأمانة والاستقامة والإخلاص ، وانتهكوا حرمة القوانين البشرية والإرادة الإلهية ، وقد رأى دانتى فى هذه الطبقة

فرنشيسكا داريميني التى خانت زوجها الأعرج جاتسو تومالاتستا .

وقد ألف جبريل دانو نزيو قطعة تمثيلية عن موضوع غرام هذه المرأة وذكر فيها اسم دانتى، لأنه أفاد القصة من كتاب المهزلة السماوية.

وفى الطبقة الثانية من طبقات الجحيم رأى دانتى الشرهين الذين كانوا عبيد شهواتهم والذين عاشوا حتى آخر أيامهم منغمسين فى ملاذهم وشهواتهم وقد وكل بتعذيبهم الشيطان الفظيع شربيرو وهو على هيئة كلب فظيع مثلث الرؤوس .

وفى الطبقة الرابعة كان يعذب البخلاء والمسرفون الذين عاشوا ولا هم لهم إلا اكتناز الذهب والفضة والذين كانوا يسرفون فى صرف أموالهم ويبذرونها تبذيراً .

وفى هذه الطبقة أيضاً يوجد الحمقى والأشرار الذين كانوا يتسلط عليهم الغضب فى حياتهم ويدفعهم الى ارتكاب الشرور والآثام وإلى جانبهم الذين قضوا أعمارهم فى الكسل والخمول .

ثم انتقل الى مدينة دينتى التى أعدت لتعذيب الأرواح التى حكم عليها بالعذاب الشديد من أجل تجبرها وخبث ضميرها.

ثم رأى الطغاة الذين اعتدوا على جيرانهم ظلما وعدواناً ومعهم القتلة والحكام القساة الظالمون واللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا

يبتزون أموال المسافرين قهراً وكان بعضهم يغوص فى هذا الدم إلى ركبتيه ، ثم رأى زمرة المنتحرين الذين كان جزاؤهم على اعتدائهم على أنفسهم أن أعيدوا إلى جوف الأرض ثم نموا وصاروا أشجاراً تجرى الدماء فى أعضائها .

ثم رأى الذين كفروا بربهم وجحدوا قدرته وانتهكوا قوانينه وشرائعه، وقد وجد دانتى بينهم أستاذه برونتولاتينى ، ثم أبصر بالمرابين يئنون تحت وابل المطر الملتهب الذى كان ينصب على رؤوسهم وقد حمل كل منهم فى عنقه كيساً كبيراً مملوءاً بالفضة والذهب وهو رمز أبدى للشراهة والجشع وحب المال ...

ثم رأى فريق الخاطئين الذين خدعوا النساء إرضاء لشهوات غيرهم والآخرين الذين خدعوهن لإشباع شهواتهم الدنيئة ، كذلك وجد الفاسقين الذين استدرجوا النساء بالمبالغة فى مدحهن وغرورهن بالتشدق بمحاسنهن وهؤلاء هم أشد خلق الله غشاً ونفاقاً ولذلك استحقوا كل احتقار وكتب عليهم أن يبقوا منغمسين الى ما شاء الله فى الأوساخ جزاءً لهم على ما كانوا يصنعون.

ثم يبصر بجمهور كبير من رجال الدين ومن بينهم عدد غير يسير من البابوات وقد غرست رؤوسهم وأكتافهم إلى الأسفل فى حفر عميقة

وأما بقية أجسادهم فظلت معرضة لوابل النيران التى كانت تنصب عليها جزاء لهم على اتجارهم بالدين واتخاذهم من اسم الله ذريعة لجلب المنفعة الى أشخاصهم .

وكم من فقيه خابط فى ضلالة   وحجته فيها الكتاب المنزل

أما المنجمون الذين كانوا يدعون علم الغيب وهم كاذبون فقد رآهم دانتى يسيرون فى واد مظلم وقد التوت رؤوسهم بحيث كانت شعورهم تتدلى فوق صدورهم ودموعهم تنهمر على ظهورهم وهم سائرون الى الخلف لأن عيونهم كانت من ورائهم ، ثم رأى طائفة المدلسين فى متاجرهم والغشاشين فى وظائفهم وأعمالهم العامة طلباً للكسب وابتزازاً للأمول .

ثم أبصر دانتى ورفيقه ومرشده فرجيليو بمذنبين آخرين كان كل منهم يلبس برنساً ثقيلا فضفاضاً مذهبا ظاهره ولكنه مبطن بالرصاص ، وكانت هذه البرانس تغطى رؤوسهم ووجوهم وهم المراءون الذين امتلات نفوسهم بالحقد والشرور والذين كانوا يظهرون بمظهر الشرف والمروءة .

وقد هيأ الجنون والخبال المعنوى وفقد المروءة والنخوة لذلك العقل المريض المشتت الذى لعب به عشق امرأة وذراه فى رياح التهوس المقوت والتعصب الذميم ، عقل دانتى السخيف، لقد هيأ له ذلك العقل المريض أن يضع أعظم مقام فى الإسلام فى أحد تلك الأماكن فى الجحيم، وقد دافع

الكثيرون من أنصار دانتى عن تلك الجريمة التى يستحق من أجلها الخلود فى الدرك الأسفل من النار، وبأنه كان متأثراً بالشعور العام الذى كان مستولياً على نفوس الجماهير فى أوربا التى لم تكن حينئذ تعرف عن الإسلام شيئاً أكثر من أنه جاء لهدم الديانة المسيحية وتقويض أركانها. ولكن هذا دفاع باطل غير مقبول ويطول بنا المقام إذا حاولنا الإسهاب في الرد عليه ، ويكفى الإسلام والمسلمين فخراً أنه لم يقم منهم شاعر مشهور أو غير مشهور يطعن فى الأديان أو الأنبياء أو يضعهم فى الجحيم ، بل إن الكثيرين من شعرائنا وأدبائنا يصفون الأديان الأخرى بالفضائل والكمالات. وقد ساءنا من بعض الأدباء أن يعتذر لدانتى بقوله «إنه يؤكد أن التعصب الدينى لم يكن الباعث لدانتى على التعرض لهذا المقام الجليل بدليل أنه خصص أحسن الأمكنة وأشرفها لابن رشد وابن سينا وصلاح الدين وكلهم من كبار رجال المسلمين، بينما زج بكثير من الباباوات وكبار رجال الكهنوت فى نيران الجحيم» ص ٨٧ من كتاب دانتى .

وإن هذا الاعتذار لمن قبيل «الضحك على الذقون» فلا يقبله عقل ولا يرتضيه منطق. فما فائدتنا من تكريم ابن رشد وصلاح الدين إذا كانت الإهانة قد لحقت بالأصل الأصيل وبمصدر الإسلام الأول ومنبعه الكريم. ولكن اعتذار هؤلاء الكاتبين ينطوى فى قولهم «ناقل الكفر ليس بكافر» .

ونحن لانفهم جريمة دانتى إلا بأنها «لحسة شاعر مفتون» أصابه داء الفخامة، وهيأ له أنه أصبح إلاهاً يقسم النار على أعدائه ويوزع أماكن النعيم على أحبابه الذين شملهم برضاه.

(٣٦) الجاحظ

كتاب التاج (*)

لكل فن فلسفة ولا يقصد بتلك الكلمة ماترمى اليه عند إطلاقها للدلالة على العلوم الخاصة بها ، بل يقصد بها روح الفن ومعضلاته وأمهات مسائله ، ولما كانت سياسة الدولة من أكبر الأمور شأنا وأرفعها شأواً وأعلاها قدراً فقد انقطع لدرسها جماعة من المفكرين فى الشرق والغرب وأولهم أستاذهم بإجماع الآراء ابن خلدون الذى قضى شبابه ورجولته فى بلاد المغرب والأندلس وطوى كهولته وشيخوخته على ضفاف النيل فى مصر ، ومباحثه فى تأسيس الدول وسياسة الممالك وتقسيم الأمم وأنظمتها المدنية والحكومية أشهر من أن نذكرها للقارىء ، غير أنه يجمل بنا أن نشير الى أقدميته وأسبقيته على شبيهه نيقولا ماكيافيلى الذى يعد

(*) مقال بعنوان « سياسة الدولة والملك فى نظر الفلاسفة ، كتاب « التاج » للجاحظ وكتاب « الأمير » لماكيافيلى ومقدمة ابن خلدون » ، نشر بالبلاغ الاسبوعى فى ١٩٢٩/٥/٨ .

يحق تلميذه ومقلده •

وقد نشأ ماكيافيلى فى جمهورية فلورنس فى القرون الوسطى وفى بلد كان يحكمه المال والجاه وتحيط به الأعداء من كل جانب ويتصرف بالعباد فيه أحد أفراد أسرة مديتشى الشهيرة . وكان ماكيافيلى من نوابغ الأجيال أرباب الكفايات المتشعبة . فمن فنون التحرير والتأليف الى وضع القطع التمثيلية ، ومن نظم الشعر الغنائى الى درس أحوال الأمم والممالك فى التاريخ القديم والحديث ، ومازال يدأب ويعمل ويرحل ويدرس ويشاهد الى أن وضع كتاب الأمير وهو إحدى آيات الفن السياسى ، وقد اختلف العلماء فى بيان غايته ، فادعى بعضهم أنه أراد خدمة الاستبداد بإظهار وسائله للملوك والحكام فيتبعونها فى إذلال الأمم المحكومة والمغلوبة وادعى بعضهم أنه أراد خدمة الشعوب فبصّرها بمسالك الحاكم المطلق وحيل الفاتح سواء أكان الفتح بالحرب أم بالسياسة . وهو فى خلال ذلك يستشهد بنوادر التاريخ منذ بداية الممالك الى عصره ويذكر أخلاق الملوك والأمراء ورجال السياسة وقواد الجيوش ، كل ذلك فى اختصار وإيجاز بكلام قليل يدل القارىء على غاية المؤلف التى يرمى اليها ، وقد يحار المطالع فى فك ألغاز تلك الجمل القصيرة البليغة المنطوية على معان عميقة غائرة • ويروى أن نابليون بونابرت كان يحمل نسخة من هذا الكتاب أنّى

ذهب ، كما يروى أن أحد المتأدبين من حاشية جاكم شرقى قديم ذكر له كتاب الأمير وشوقه اليه وحببه فيه بالسماع فاستحضر نسخة فلما قرأوا له بعض فصولها ونقلوها الى لغته ابتسم وقال لقارئه « عفوا ياصاح !! هذا ماكيافيلى الذى رفعته الى عنان السماء ؟ إن عندنا من علمه وفنه أكثر مما حوى هذا الكتاب ! »(١) .

ويظهر أن سياسة الدولة شغلت كثيرين من مفكرى العرب وكتابهم وفتنت واحداً من أئمة الأدب العالمى وهو الجاحظ صاحب المؤلفات القيمة فى كل علم وفن ، فقد وضع كتاب التاج .

وعندى أن لكل كتاب إخوة من نوعه يحسن بالمتأدب أن يجمع بينها لشدة التقارب بين أفكار مؤلفيها ، فإنه من أنفع الأشياء لنا أن نقرأ كتاب الأمير وكتاب التاج معاً ، وإليك وصف هذا الكتاب العجيب بإيجاز حاولنا به الإلمام بروحه دون التفصيل .

بدأ المؤلف العربى العبقرى بالدخول على الملوك ومايجب على الملك إذا دخل الرجل عليه . وفى هذا الباب وصف دقيق لنظام « التشريفات » لطبقة السلاطين والطبقتين العليا والوسطى ومستمدة من نظام الدولة عند

---

(١) الحاكم الشرقى هو محمد على رأس الأسرة العلوية التى حكمت مصر حوالى قرناً ونصف قرن من الزمان (١٨٠٥ - ١٩٥٢) .

آل ساسان وما زالت تلك العادات والنظم فيهم حتى ملك كسرى أبرويز فغيّرها . وفيها نصيحة بتقبيل الأطراف « تقبيل اليد عند الأتراك » وانخفاض الصوت وقلة الحركة وإطراق الرأس وعدم إطالة القعود وحسن الاستماع وتحاشى الكلام على قدر الطاقة ، وهذه الآداب تدل على التمادى فى العبودية والاستسلام ومن ضمنها أنه اذا قعد الرجل بأمر الملك فيكون مقصياً أو جاثياً ، وبعض هذه الآداب (!!) إن صحت تسميتها كذلك ، لا يزال سائداً فى بعض الأوساط الشرقية التى جبلت على الذل والخنوع لغير الواحد القهار مثل الهند الصينية .

ثم انتقل الجاحظ الى مطاعمة الملوك والجلوس على موائدهم ، وعندهم أن حظ المدعو الى مائدة الملك المرتبة التى رفعه اليها والأنس الذى خصه به فلا ينبسط بين يديه فى مطعمه ، فلعل الملك أراد أن يعرف ضبط نفس ضيفه . وعلى الملك أن لايخص نفسه بطعام دون أصحابه لأن فى ذلك ضعة عليه ودليلا على الاستئثار ، ولما كان آل ساسان والفرس من أضداد العرب والمسلمين فكانوا اذا قدمت موائدهم زمزموا عليها فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع ، وقد جاءت سنة محمد بالتحدث على الطعام ولو بثمن الأسلحة .

وأفاض المؤلف فى باب المنادمة على عطف أخلاق الملك « ويكاد

القول يكون ماكيافيلياً محضاً » فقال إنه لا يمن بإحسان سبق منه ما استقامت له طاعة من أنعم عليه ودامت له ولايته ، إلا أن يخرج من طاعة الله إلى معصية ، فإذا فعل ذلك فمن أخلاق الملك أن يمن عليه أولا بإحسانه اليه ويذكره بلاءه عنده وقلة شكره ووفائه . ثم يكون من وراء ذلك عقوبته بما يستحق ذلك الذنب فى غلظه ولينه .

ولما انتقل الى الكلام على أخلاق الملوك قال إنها لاتكون معروفة وليست تقاس ولا يعاير عليها . ألا ترى أن الملك قد يغضب على الرجل من حماته والرجل من خاصته وبطانته إما بالجناية فى صلب ماله أو لخيانة حرمة الملك فيؤخر عقوبته دهراً طويلا ثم لا يظهر له مايوحشه حتى يتقى ذلك فى اللحظة والكلمة والإشارة وما أشبه ذلك ، فليس فى الأرض نفس تصبر على مضض الحقد ومطاولة الأيام بها صبر الملوك .

ومن حق الملك فى نظر الجاحظ أن يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق ، ومن لم يصلح لملكه لايصلح لنفسه ومن لم يصلح لنفسه لا خير عنده . وكان كسرى قد نصب رجلا يمتحن به من فسدت نيته وطعن فى المملكة وهو أخوه من الرضاعة وتربه فى الصبا .

ومن أخلاق الملك التغافل عما لايقدح فى الملك ولا يجرح المال ولا يضع من العز ويزيد فى الأبهة أى أن يكون سهلا فى كل مالا مساس له

بعرشه وماله ، وقد قال معاوية كلمة حكيمة جداً « إنى لأجر ذيلى على الخدائع » ، ومن واجب الملوك إكرام أهل الوفاء وبرهم والاستنامة إليهم والثقة بهم والتقدمة لهم على الخاص والعام والحاضر والبادى ، وأن لايثقوا بمن يغدر بمولاه تقربا لهم وقد قال الإسكندر « من غدر بملكه كان بغيره أغدر » . ومن حق الملك أن يترفع عن الاستماع للغيبة والنميمة فلا يعاب عنده أحد صغر أو كبر ، ومن حق الملك أن يعامله ابنه كما يعامله عبده وليس لابن الملك أن يظهر دالة الأبوة وموضع الوراثة ، وليس لابن الملك أن يسفك دماً وإن أوجبت الشريعة سفكه . وليس من أخلاق الملك أن يدنى من عظم قدره واتسع علمه وطاب مركبه أو ظهرت أمانته أو كملت آدابه ، إن الملك مثل الكرم الذى لايتعلق بأكرم الشجر إنما يتعلق بما دنا منه . يقول الجاحظ «وقد نجد مصداق ذلك عياناً فى كل دهر وأخبار كل زمان».

وقد تولى يزدجر الموصوف بالأثيم الملك فظلم الرعية وكان مبدؤه «ليس للرعية أن تنتصف من الراعى ولا للسوقة أن تتظلم من الملوك ولا للوضيع أن يساوى الرفيع فى حق ولا باطل » ولكنه لم يطل عهده وهلك .

وقد جمع الجاحظ شروط استمرار الملك فى أربعة أمور ، الأول أن لايرضى الملك لرعيته إلا مايرضاه لنفسه ، الثانى أن لايسوف عملا يخاف

عاقبته ، الثالث أن يجعل ولى عهده من ترضاه وتختاره رعاياه لا من تهواه نفسه ، الرابع أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضع عن منام رضيعها . وقد ضرب الجاحظ المثل ببعض الملوك الذين اشتهروا بالأمر الأخير وهم أردشير بن بابك ، وعمر بن الخطاب ومعاوية وزياد وعبدالملك ابن مروان والحجاج والمنصور والرشيد والمأمون . ومن أخلاق الملك اذا دهمه أمر جليل أن لايجعل للتسويف والتمنى وحسن الظن بالأيام نصيباً . قال معاوية « ماذقت أيام صفين لحما ولا شحماً ولا حلواً ولا حامضاً ، ماكان إلا الخبز والجبن وخشن الملح إلى أن تم لى ما أردته » ، وينبغى للملك أن يجعل المحاربة آخر حيلة فأسعدهم من غلب عدوه بالحيلة والمكر والخديعة و « الكلمة الخفية أنفذ من الرمية !!» .

ومن المصادفات أن ماكيافيلى أهدى كتابه الى أمير وهو لورنزو دى مديتشى ، كذلك أهدى الجاحظ كتابه الى الأمير الفتح بن خاقان .

هذا ما أردنا ذكره من كتاب التاج لمعارضته بكتاب الأمير تدليلا على أن الغرب لم يفضل الشرق فى قليل أو كثير وأن العقل العربى لم يقصر عن العقل الأوروبى فى معالجة سائر الشؤون وممارسة العلوم والفنون كافة .

(٣٧) المستشار پرول

الإجرام السياسى · ترجمة الأستاذ حسن الجداوى(*)

تفضل الأديب القانونى الأستاذ حسن الجداوى بإهدائى نسخة من الكتاب الطريف الذى أخرجه لقراء العربية باسم « الإجرام السياسى ».

وقد سبق لى مطالعة هذا الكتاب باللغة الفرنسية وإنه لكتاب ثمين حقا . وقد فكرت فى تفسير عنوانه قبل اليوم وذهب ذهنى الى مقصد المؤلف منه مذاهب شتى ، ولكننى بعد قراءة الكتاب للمرة الأولى أدركت أن المؤلف لم يقصد إلى الإجرام السياسى ولا الى الجريمة السياسية التى يكون الدافع اليها فكرة سياسية كالقتل السياسى ولا قلب الدولة بالعنف ولا الجرائم التى تقع وتكون مقدمة للثورة كالسلب والنهب والإحراق والشغب . ولكن المقصود بالعنوان وبالكتاب وصف مساوىء الحياة السياسية أو بعبارة أخرى « جناية السياسة » أو « جريمة السياسة » .

ففى الواقع كلمة « إجرام سياسى » التى اختارها المعرب لترجمته البليغة هى ترجمة صحيحة لكلمة « كريمنولوجى بوليتيك » التى يطلقها علماء هذا الفن (والمستشار پرول منهم) على هذا النوع من الجنايات التى

(*) مقال بعنوان « الإجرام السياسى ، كتاب فنى تأليف المستشار پرول ترجمة الأستاذ حسن الجداوى » منشور بجريدة الدستور فى يونيه سنة ١٩٣٧ .

يقصد بها قلب نظام الدولة . وإننى لا أقصد بهذا البيان تخطئة الأستاذ المترجم الذى خدم القانون والأدب والسياسة بكتابه ، ولكننى أريد إرجاع الحق الى نصابه ليصحح هذا العنوان فى المطبوعة الثانية ليكون العنوان أدل على حقيقة الكتاب .

. وإننى لا أرتكن فى هذا التصويب الى الاسم الفرنسى وحده بل الى محتويات الكتاب ومواده . فإن المؤلف عالج الميكافيلية وهو يقصد بها الى نوع السياسة المنطوية على الغدر والخديعة والتحلل من القيود والعهود والآداب ومبدأ «الغاية تبرر الواسطة» ، وبديهى أن هذا الفصل وحده كاف للدلالة على موضوع الكتاب . فإن ماكيافيلى لم ينصح أحداً باقتراف الجرائم السياسية كاغتيال الطغاة أو قتل الظالمين ولم يقل إن هذه الطريقة المثلى فى الحكم أو فى الوصول الى الغاية ، ولكنه وصف بدقة مظاهر الحياة السياسية وخفاياها لعهد أسرة بورجيا فى عهد الإحياء فى إيطاليا .

وإننى بهذه المناسبة أقول إن الذين ظنوا ماكيافلى فى كتاب «الأمير»[1] ينصح الناس بالقتل والغدر وخيانة العهود ظلموه ، وإنما هو

---

(١) نقله إلى اللغة العربية عن اللغات الإيطالية والفرنسية والإنكليزية كاتب هذه السطور وطبعته مطبعة المعارف سنة ١٩١٢ .

وصف كل مارآه من وسائل الحكم وأخلاق الأمراء والوزراء والسفراء وذكر ماينفع ومالا ينفع ، وتمثل الحياة السياسية عنده مسرحا وأن لكل واحد من هؤلاء دوراً يمثله بإتقان أو بإهمال كلما كانت مواهبه أو قدرته تسمح به حتى لقد ذهب جان جاك روسو الى القول إنه فتح عيون الشعوب ونبه الأمم الى مكايد الحاكمين ليتخذوا حيطتهم وينتبهوا إلى شؤونهم فلا يقعوا بسهولة فى الأفخاخ التى ينصبها لهم أهل الغدر والخيانة ومن لا ضمائر لهم .

ومهما يكن القصد من كتاب « الأمير » فإن كلام المؤلف عنه يدل على روح الكتاب ، فقد عالج بعد ذلك الرياء والسياسة ، الفساد الانتخابى، السياسة والقضاء ، السياسة والاستغلال ، السياسة والأخلاق .. إلخ . فأين هذه الموضوعات التى لها مساس مباشر بالسياسة وأين الإجرام الذى يصرف الذهن الى الجرائم التى تقترف بدافع سياسى أو باسم السياسة ؟

طبعا إن المؤلف ذكر بعض الجرائم السياسية كقتل بعض الطغاة وبعض المؤامرات ولكنه ذكرها لاليدرسها ويفحصها كما كان يفعل لو كان موضوع الكتاب هو الجريمة السياسية بل ذكرها بوصفها من مساوىء الحياة السياسية . وانظر الى إفاضته فى الكلام على أخلاق الساسة

أمثال بونابرت وكرومويل وتاليران وفوشيه ومارا وروبسبيير ودانتون وميرابو وغيرهم وتلخيصه آراء روسو وفولتير ومالبى .

يقول تاسيت المؤلف الرومانى الشهير « إن أفضل آلة للحكم الطيب هم الرجال الطيبون » وقبل تاسيت قال أفلاطون فى جمهوريته « إن الحكومات يجب أن يديرها الفلاسفة » وناهيك بأفلاطون وحكمته ، فقد كان رجل العلم والعمل ، رجل الحقيقة والأحلام وأنه لم يبد رأيا لم يكن مؤسسا على التجربة والاختبار ، وقد دون اريستوفانوس قبله فى رواياته الناقدة اللاذعة أخلاق رجال السياسة المستهترين والمستثمرين والطامعين .

وأراد أفلاطون أن يقرر حقيقة راهنة رائعة وهى أن هدف السياسة الحقيقى يجب أن يكون السعي لجعل الناس أكثر فهماً وأنقى أخلاقاً واتحاداً وسعادة . فأفضل السياسات هو مادعا الى الخير وتقليل الآلام وتخفيف حدّة البغضاء وتشجيع أهل الكفايات والاستحقاق وتنمية معانى الأخلاق الفاضلة بين أفراد الشعب ، فاذا لم تستطع أن تجعل من الفلاسفة حكاما تلقى اليهم بمقاليد الأمور فلا أقل من أن السلطة يجب أن لايتولاها إلا من لديه قسط من الفلسفة ، ولايسخرن أحد من هذه الفكرة فإن هذه الحقيقة لم تغب عن أهل أوربا فى القرن التاسع عشر وما قبله ، فهاهى انكلترا عينت فى مناصب الحكم لورد باكون وبنتام وستيورات ميل

وفى العهد الأخير كان هالدين وزير الحربية والبحرية فيلسوفا شهيرا وقد تخرج فى جامعات ألمانيا وهو الذى نقل كتاب شوبنهور «العالم كقوة وإرادة» فى ثلاثة مجلدات الى اللغة الإنكليزية ، ومثله بلفور ابن أخت سالزبورى وكان فيلسوفا من أنصار المذهب المادى وله فى ذلك كتب منشورة ومشهورة وكان كاتباً له أسلوب خاص وعاش حياته مكبا على طلب العلم والبحث حتى أن خطبه فى مجلس العموم كانت تمازجها روح البحث العلمى .

وفى فرنسا كثير من الوزراء كانوا قبل وزاراتهم علماء وفلاسفة أمثال تييرس وبانلفيه وهريو وجيزو وجول سيمون وكذلك فى ألمانيا السابقة للهتلرية كان وزراء حكماء .

إن هؤلاء الرجال وأمثالهم يخضعون لمبادىء مصدرها نوع من الاعتقاد الدينى ، ذلك الشعور الذى يمنع الهيأة الإنسانية من الاندفاع فى تيار الفساد .

ولكن ذلك الشعور لسوء الحظ فقد فى السنوات الأخيرة أثره سواء فى الغرب أم فى الشرق .

وإن المؤلف ليبدو لنا حسن النية وحسن الظن فى العالم والإنسانية فهو يقول « ولست أجهل أن الشهوات سوف تظل تلعب دورها فى شؤون

السياسة ولكن ذلك لايمنع من أن نأمل أن نرى السياسة يوما ما أقوم خلقا وتهذيبا . فقد نجح العقل الإنسانى فى التخلص من الرق والاستعباد ومن امتيازات الملوك واستبدادهم . فلماذا لا ينجح فى أن يجعل السياسة أكثر اعتدالا وإخلاصا وأقرب إلى العدل والإنسانية ؟ ».

(٣٨) ساطع الحصرى

مقدمة ابن خلدون(*)

لاريب فى أن سائر قراء العربية الذين قرأوا مقدمة ابن خلدون لوقوعها فى أيديهم مصادفة أو بنصح ناصح وأتيحت لهم فرصة الاطلاع على بعض كتاب التاريخ نفسه أو كله وهو الموسوم باسم (كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) قد شعروا بخيبة الأمل للفرق العظيم الشاسع بين المقدمة والكتاب ، فإن قارىء المقدمة ينتظر بطبع الأشياء أن يكون التاريخ على نسقها وأسلوبها وقوتها فى الاستنتاج واستخراج المعانى العالية ولاسيما وأن المؤلف رحمه الله قد أشاد بعلم التاريخ نفسه عندما قال فى

(*) مقال بعنوان « مقدمة ابن خلدون لساطع الحصرى ، نقد وعرض وتقدير » نشر بجريدة الدستور فى ١٩٤٣/٧/٥ .

المقدمة إن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال وتشد اليه الركائب والرحال وتسمو الى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال ، إذ هو فى ظاهره لايزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول تنمى فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية اذا غصها الاحتفال ... إلخ.

والسبب فى هبوط مستوى التاريخ عن المقدمة ليس راجعا الى عجز المؤلف العظيم أو تقصيره عن الإلمام أو ضعف اجتهاده عندما فرغ من المقدمة وتصدى الى تدوين التاريخ ، وإنما السبب الأول والأخير فى قصور التاريخ عن المقدمة وظهور ذلك لكل قارىء مميز كائن فى مواهب ابن خلدون نفسه ، فقد كان عالما وفيلسوفا وكان مفكرا متعمقا ومن أصحاب البصائر المستنيرة ، فبعد أن كتب المقدمة المنطوية على المبادىء الفلسفية والاجتماعية وعلى دراسة الطبيعة الإنسانية ومقدار تأثرها بالبيئة الجغرافية ووراثتها الفضائل والرذائل ، وتغلغل فى فحص النظم السائدة التى أنتجتها الضرورة بالطبع والتى أشار باتباعها العقل ، نظر الى التاريخ فى ذاته فاذا هو مجموعة أخبار لم تكن تؤيدها فى عصره إلا الرواية والقصة والأحاديث الإنسانية ، وهذه يعتورها التشويه والغلط وقد تمليها الأغراض والمصالح وتنقص وتزيد بفعل صاحبها متعمدا أو منساقا

لضعف الذاكرة أو تقادم الزمن ولاسيما وأن كثيرا من الكتاب ارتجلوا القيام بهذا الفن بدون تخصص ولا دراسة سابقة وبالغوا فى الخلط ومزجوا بين التاريخ والقصة واتبعوا بعض قواعد علم مصطلح الحديث ، ولكن عنايتهم براوية الحديث فى العصور الأولى كانت عظيمة جدا بالنظر لمقام النبى محمد عليه الصلاة والسلام وللعلاقة المتينة بين حديثه وبين أحكام الشريعة ونظام حياة المسلمين فى بقاع الأرض ، ومع هذا وذاك فإن الحديث الشريف لم يخل من الزيغ والوضع والخديعة والجهل ، وحسبنا دليلا على هذا أن كتب الحديث وهى ستة لم يصح منها صحة مطلقة إلا كتابا الشيخين الصحيحان (البخارى ومسلم) .

وكان ابن خلدون رحمه الله يعلم هذه الأمور بحكم علمه وصناعته ولذا أقدم على كتاب التاريخ متكلفا ، وفى ظنى أنه لو بدأ بكتابة التاريخ لما شرع قط فى كتابة المقدمة لأنهما عند الظهور تناقضا ، فالمقدمة علم وفلسفة ومنطق واستنتاج ، وهى أمور خاصة بالإدراك والذهن والفهم والمنطق . أما التاريخ فقصة كبرى تتفرع عنها قصص صغرى ، وكاتب المقدمة كالواقف على الصخر والمتشبث بأمراس كتان شدت الى صمّ الجنادل ، بينا كاتب التاريخ يشبه النازل فى قارب النجاة تتقاذفه الأمواج وتعبث به الرياح .

لو أن ابن خلدون اكتفى بعد كتابة المقدمة ببعض المثل العليا والواقعات الثابتة التى لا يأتيها الباطل ليقدم الأمثال ويقيم الأدلة على صدق نظرياته فى المقدمة ، لكانت ثمرة أعماله أشهى وأحلى وادخر قوته التى ضيعها فى التاريخ فى استكمال هذا البحث النفيس العالى ، وليس هذا الرأى منا نقدا لهذا العالم الجليل ولكنه أمنية ترددت فى النفس من زمن طويل بعد أن قرأنا المقدمة ودخلنا فى التاريخ وقد جاهرنا أن ابن خلدون لم يكن مؤرخا ولكنه فيلسوف وعالم اجتماعى .

وقد رأينا أمراً مماثلا وقع فيه هيجل الفيلسوف الألمانى بكتابه «فلسفة التاريخ» فجاء فيه من الخلط والتهويش والغموض مازعزع مكانته ، لأن التاريخ ليس له فلسفة غير ماكتبه ابن خلدون فى مقدمته ، ومع أن هيجل كان مدرسا للفلسفة ومدعيا تلمذته على كانط وزاعما أنه مكمل لمذاهبه فقد أخفق إخفاقاً شنيعا وجعل نفسه أضحوكة العلماء فى القرن التاسع عشر .

ولا يمكن أن يكون الفيلسوف مؤرخا لأن طريقة تفكيره وتصوره وإدراكه وتعلقه بالمقدسات والنتائج والمسببات والأسباب والزمان والمكان ومابعد الطبيعة ، تعوقه عن الاكتراث بالواقعات وتعدم قيمة الحوادث المروية وتحمله على الشك فى صدق الحكاية والقصة ، وهو بطبيعة الحال

لايمتلىء بالإعجاب بالشخصيات الفذة ، فإن نظر الى الرجال الذين يوصفون بالعظمة حكما واعتبارا فإنما يكون هذا النظر من باب التعليق على العبقرية أو مواهب العقل الممتازة ، ولا تدهشه حوادث الدنيا ولا يستخرج منها عبرة لأن كل حادثة مهما عظمت فإنها لاتخرج فى نظر الفيلسوف عن حلقة من سلسلة مايقع على قشرة الكرة الأرضية وهى أحد الكواكب السابحة فى الفضاء اللانهائى ، ومثل الفيلسوف الذى يشتغل بالتاريخ كمثل ابن الهيثم وهو رياضى كونى إذا اشتغل بعدّ البرتقال أو الليمون ليقدم عنها حسابا ، فعلم التاريخ بالإجماع علم وضيع بالنسبة للفلسفة وأشخاص العظماء أقزام بين يدى من ينظر فى الكون محاولا تفسيره وتعليل وجوده .

نعم كان توماس كارليل فيلسوفاً ومؤرخا ولكن انظر كيف كتب التاريخ ؟! فإنه وضع تاريخاً للثورة الفرنسية وكتابا فى عبادة الأبطال ، ولأجل أن ندلل على صحة الرأى نلفت نظر القارىء الى ماكتبه هيبوليت تين المفكر العظيم الفرنسى نقدا على كارليل فى كتابه الأدب الإنجليزى ، فإن تاريخ الثورة ليس تاريخا ولكنه سلسلة فصول يمليها العقل الباطن على الكاتب ، بل هى تأملات عقل مضطرب إذا صح الجمع بين الاضطراب والتأمل ، واهتزازات عصبية سببها إهراق الدماء وزفرات

خارجة من صدر ضيق ينفث اللوعة تلو اللوعة ويرجع الحوادث للقضاء والقدر ويجزم بأن دانتون وروبسبيير وكاميل دى مولان والملك والملكة وميرابو وجيوتين مخترع المقصلة لم يكونوا إلا ألاعيب فى يد القدر ولا يستطيع قراءة ذلك التاريخ إلا مؤرخ ملم بالحوادث والأشخاص صبور على الشدائد حلال للألغاز والأحاجى والمعميات وهذا ما أبرزه تين خير إبراز فى كلامه عن كارليل ، أما كتابه الآخر عبادة الأبطال وهم أمثال محمد عليه الصلاة والسلام ونابليون بونابرت ، فقد اتخذ عبقرياتهم نماذج لأممهم ووصف تأثر الأمة بالفرد سواء أكان نبياً أم سياسياً أم محارباً أم شاعراً أم كاتباً ، وليس هذا من التاريخ فى شىء ، بل هو تحليل لأثر الفرد فى المجموع لايتعرض فيه كارليل للحوادث إلا نادرا وشغله الشاغل هوالصورة الذهنية الكبرى التى يرسمها عن حياة الأمة التى ينتمى اليها البطل قبل ظهوره وبعد ظهوره ، ولا نشك فى أن دراسته لتاريخ الثورة الفرنسية هو الذى أوحى اليه كتاب الأبطال .

أدرك ابن خلدون بقريحته الوقادة وفطرته السليمة هذه الأمور فى المقدمة فأشار اليها فى فصل عنوانه « ومن الأخبار الواهية للمؤرخين - ماينقلونه فى أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى إفريقيا والبربر من بلاد المغرب وأن إفريقش بن

قيس بن صيفى من أعاظم ملوكهم الأول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا إفريقيا وأثخن فى البربر وأنه سمّاهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به حينئذ ، وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل عن حمير فأقاموا بها واختطلوا بأهلها ومنهم صنهاجه وكتامه ... » قال ابن خلدون تعليقا على هذه النبذة «وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة فى الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة» ثم قال فى ص ١١« وانظر ما نقله ابن عبد ربه فى مفاوضة الرشيد عم جده داود بن على فى شأن نكبة البرامكة وما ذكره فى باب الشعراء من كتاب العقد فى محاورة الأصمعى للرشيد وللفضل بن يحيا فى سمرهم ، تتفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة والمنافسة فى الاستبداد من الخليفة فمن دونه وكذلك ما تحايل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قول الشاعر :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد	وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة	إنما العاجز من لايستبد

وأن الرشيد لما سمعها قال أى والله إنى عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال

وسوء الحال . وأما ماتموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاش لله ما علمنا عليه من سوء . وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمرى ومكاتبته سفيان الثورى وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة فى طوافه وماكان عليه من العبادة » . انتهى عن المقدمة ص ١١ .

وظاهر تمام الظهور من هذه النبذة وماسبقها وما تلاها أن ابن خلدون رأى عيوب التاريخ والمؤرخين وعلم أن الذين يستحقون صفة المؤرخ على الرغم مما فى مؤلفاتهم من المطاعن والمغامرة قليلون جدا وأنهم لايكادون يتجاوزون عدد الأنامل وحركات العوامل ، وأما البقية فهم من الهمل الذين ليس يعتبر لهم مقال وينعتهم بأقسى النعوت مثل بليد الطبع والعقل وقوله إن الأخبار والحكايات مظنة الكذب ومطية الهذر والكذب متطرق للخبر بطبيعته ، وقد وضع شبه قواعد لنقد الخبر رقمها الأستاذ ساطع بك الحصرى من ١ الى ٧ ص ٢٢٥ ، وعلى الرغم من هذه المهاوى كتب ابن خلدون تاريخه .

(٣٩) أفلاطـــون

المأدبـة والجمهورية(*)

من المسائل التى تشغل بال العلماء والمفكرين فى كل أمة ناهضة المسألة الآتيه أيهما : أنفع لها فى نهضتها ، التأليف أم الترجمة ؟

فريق يفضل التأليف ، لأنه يدرب المشتغلين بالعلم والأدب على الابتكار . والابتكار أساس التفكير ، والوسيلة الفضلى لتنمية المواهب والمدارك. وفريق يفضل الترجمة ، وحجته أن الأمة الناهضة محتاجة للاستنارة بآراء العلماء الذين سبقوها فى مضمار البحث العلمى والتأليف الأدبى فهى أجدر بتقليدهم أولا قبل أن تخط لنفسها طريقا .

ولعمرى ، إن المغالاة فى كلا المذهبين خطأ ، والأفضل الاعتدال والجمع بين الوسيلتين: التأليف والترجمة ، وربما كانت الاستزادة من الترجمة أفضل ، ولايسمح بالتأليف إلا للأشخاص الناضجين، ذوى الاطلاع الواسع ، الذين أخذوا من العلم والاستقراء بأكبر نصيب ، لتكون لعملهم الثمرة المطلوبة النافعة .

وفى مصر أديب قام فى سنة ١٩٢٠ بنقل مائدة أفلاطون الى اللغة

(*) مقال بعنوان « جمهورية أفلاطون » نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٥ فبراير سنة ١٩٣٠ .

العربية[1] ، ويحسن فى نظرنا الآن أن نعدل الاسم من المائدة الى المأدبة فنقول « مأدبة أفلاطون » لأنها أقرب فى نقل كلمة Banquet ، أما المائدة فهى الأثاث التى تصف عليها أصناف الطعام ، ويجلس حولها الأضياف وهو مايسميه العرب « الخوان » ويطلق عليه العوام فى مصر « طبلية » محرفة من كلمة Table الفرنسية .أما كلمة مأدبة فتشمل الخوان والطعام والأضياف ومكان الضيافة وزمانها ، وهذا بالفعل ماقصد اليه أفلاطون بكتابه ، لأنه عبارة عن حوار فلسفى جميل حدث بين فلاسفة وأدباء ومتكلمين فى مأدبة أقامها أحدهم .

وإليك ماكتبته الأديبة الآنسة مى لصديقنا الذى نقل المأدبة الى اللغة العربية وفيه بيان رأيها فى المسألة التى افتتحنا بها هذا المبحث ، قالت بعد الديباجة : « وصلت هديتك الثمينة (وذكرت اسم الكتاب المنقول الى اللغة العربية) فطالعتها فى حلتها العربية الأنيقة ، بذلك السرور المتولد فى نفس المتفكر كلما غاص فى آثار الماضى ، حتى يخيل اليه أن مايسميه البشر حاضراً ومستقبلا ، لثغات أطفال لايعلمون !!

« وإنى لأعتقد مثلك أن أكثر ما نتناوله من معارف فى مدارسنا

---

(١) يقصد المؤلف نفسه ، فقد ترجم مائدة أفلاطون إلى العربية وقدم لها بمقدمة ضافية فى الفلسفة اليونانية ، وقد طبعت « المائدة » بمطبعة مكتبة التأليف سنة ١٩٢٠ .

ومطالعاتنا تافه ولا خير فيـــه ، يحشو الأدمغة ولا ينقيها ، ويثقل الأفكار ولا يرقيها ! ويملأ النفوس لغواً وغلطا ولا ينبهها الى مكنوناتها وممكناتها، كذلك أقدر نبل طمعك فى الجمع بين الأجناس والأمم بسمو الحياة العقلية والأدبية والفنية ، الموحدة فى كل زمان ومكان ، إن أنوار الفكر والعلم والإبداع تهزأ بالحدود الجغرافية والفروق الاثنولوجية الجيولوجية والدرجات الاجتماعية ، وتخترق الكثيف والشفاف على السواء، والسعيد المختار فى هذه الحياة إنما هو من أنالته الطبيعة استعداداً لاكتناه تلك الأنوار والانتفاع بحرارتها اللطيفة المحيية !

« كذلك أعتقد مثلك بوجوب نقل مؤلفات اليونان وغيرهم الى اللغة العربية ، غير أني أتردد في أن أقرر معك أن « لا وسيلة لتقدمنا العقلى غير هذا » ...

« أنا أريد لمفكرينا الجهاد الفكرى لأننا على العموم كسالى ... نتناول ماهو موجود ، دون أن نحاول إيجاد شىء جديد . نعم إن الحياة العقلية واحدة لجميع الشعوب وأن المبتكرين هم نوابغ الإنسانية بأسرها دون تفريق بين أمة وأمة ، ولكن هذا لاينفى أن كل شعب يطبع فلسفته وأدبه وفنه بطابعه ، والذى أريده لنا هو الطابع الذى لا يأتي بالنقل بل بالابتكار. أريد أن لانكتفى بالإعجاب بما هو موجود وبالاستفادة منه بل

أن نجتهد ونكد لابتكار صورة فكرية جديدة نضيفها الى متحف الإنسانية العام ، وتوليد قطرة جديدة نلقى بها فى بحر الفكر الشامل .

« أريد للشرق الشىء القريب المحسوس الذى ينبه ويلذع حتى يؤدى الى اليقظة العظيمة المنيرة !

« هذا وإنى لأحيى فيك هذه المقدرة المزدوجة مقدرة النقل ومقدرة الابتكار ... الى آخره .. المخلصة مى

فهذه الكاتبة الأديبة ترى رأيا مخالفا لنا وتسير على مبدأ الجامعات الأوربية ، التى تحتم على كل منته من الدراسة قبل أن ينال الإجازة أو «الديبلوم » أن يتقدم الى « عمدة الأساتذة » بمبحث جديد يسمونه «تيز» وعربه الكاتب العربى الفذ الأمير شكيب أرسلان بكلمة « أطروحة » ونحن نقرها مع الإعجاب والشكر لجنابه ، ومعنى الأطروحة فى نظر العلماء الغربيين أن يضيف الطالب المتخرج شيئا جديدا الى العلم الذى تلقاه يستحق عليه لقب دكتور أى « باحث » ومفسر وتابع لآراء السلف الصالح فى العلم الذى اختاره .

على أننا مع إعجابنا برأى الآنسة مى وتقديرنا لنبوغها وقوة حجتها فى شرح وجهة نظرها ، لانزال على رأينا وهو ضرورة الجمع بين التأليف والنقل فى فترتنا هذه التى هى فترة انتقال ، وخاصة فى كل ماله علاقة

بالعلوم الحقة مثل الرياضيات والطبيعيات والكيمياء والطبيعة .

إن أفلاطون وأرسطاليس هما الحكيمان اللذان نقل عنهما العرب معظم فلسفتهما ، التى صارت فيما بعد الفلسفة الإسلامية . وقد ولد أفلاطون ، وكان يكتبه بعض كتاب العرب « أفلاطن » ، بأثينا ، وقيل باجيثا (ومنها بحر إيجيه) فى أوائل القرن الخامس السابق لميلاد عيسى عليه السلام ، وعلى التحقيق سنة ٤٢٨ ، وقد أرادت الفخامة التاريخية اليونانية أن تنسبه من جهتي والديه الى أعظم الأصول وأعرقها ، فقيل إن جده لأمه كان من أولاد صولون الحكيم والمشترع اليونانى الشهير ، وأن جده لأبيه من نسل كودروس آخر ملوك أثينا .

ويظهر أنه بدأ طلب العلم مبكراً ، فقصد العلم العالى ، فإنه أخذ يتلقى الفلسفة على الفيلسوف الأول سقراط عام ٤٠٨ ق.م أى وهو فى العشرين من عمره ، ولازمه الى أن مات ، وكان لسقراط أعظم أثر فى نفس تلميذه فإن كل ماكتبه أفلاطون بعد ذلك كان مطبوعا بطابع الأستاذ الأعظم ، وقد أدخله فى كتبه ، وجعله بطل حوادثه ، والشخص المهم فى حواره ومناقشاته التى صاغ فيها فلسفته العجيبة ، وهو فى أثناء ذلك يذكر تاريخ الأستاذ ويصف أخلاقه وعاداته وآدابه ويشرح آراءه .

ولكن المنية عاجلت سقراط ، فلما مات لجأ أفلاطون الى أقليدس بميجارة فآواه وعلمه ، ثم رحل أفلاطون رحلة طويلة الى « سيرين » فأكمل دراسة الرياضيات على تيودور المطماطيقى (كذا كان يكتبها العرب ويقصدون الرياضى أو الحاسب) ثم قصد أفلاطون الى مصر فآسيا الصغرى (أناضول) وفى تمام الأربعين من عمره رحل الى إيطاليا فتعرف الى أتباع فيثاغورس ، ثم ذهب الى صقلية وسيراقصته وتقرّب الى ديون صهر دنيس الطاغية ، ولكن حرية فكر أفلاطون لم ترض دنيس فباعه عبدا رقيقا (!!) فى سوق الرقيق ، فشراه صديق له وساعده على الارتحال الى أثينا .

فلما بلغ أفلاطون وطنه افتتح مدرسة للفلسفة فى حدائق «أكاديموس» ومن اسم مدرسته اشتق اسم المجمع العلمى فى اللغات الحديثة (أكاديمية) .

وبعد أن مات دنيس الكبير (الوالد) بقليل هجر أفلاطون وطنه وعاد الى سيراقصته طمعا فى مودة دنيس الصغير (الولد) ، وقد رحل عن وطنه ، لأنه لم يجد نصيراً ولا صديقا فكان وحيداً منفرداً مريبا فى نظر الناس ، ولم يكن له أثر نافع فى معاصريه ، وهذه أبداً حال العظماء الحقيقيين فى كل زمان ومكان ، لأنهم يكونون فى العادة سابقين لأوانهم

بخمسين عاماً على الأقل ، فضلا عن أن تمسكهم ببعض مبادىء الحق أو الفضيلة يقصيهم نوعا عن محبة المتوسطين Mediocres وعطفهم .

ظن أفلاطون أنه يلقى بصقلية فى بلاط دنيس الثانى ، أو تحت رعايته ، مجالا للعمل ، لأنه كان يريد صنع الخير ، كما كان ذائقه بنفسه وقد خيل إليه أنه قد يعيد إلى سيراقصته مجدها اذا حقق فيها مبادىء السياسية ، فاستقبله دنيس الثانى استقبالا حسنا ، ثم مالبث أن مل أفكار الإصلاح السياسى والتطور الاجتماعى التى شرحها له أفلاطون . وأخذ يتقلب عليه ، ظنا منه أن أفلاطون قد يحدث انقلابا سياسيا يحرمه عرشه ويحرمه لذة الاستبداد ، فاضطر أفلاطون للفرار مرة ثانية من سيراقصته .

وسافر مرة ثالثة الى صقلية عام ٣٦١ ق.م . وأراد أن يوفق بين ديون المنفى ودنيس الثانى ، فلم ينجح فى مسعاه ، وكان فى خطر الموت لولا تداخل «أرخيتاس دى تارنت » أحد أتباع فيثاغورس ، فعاد أفلاطون من سفرته بعد أن تقشعت عنه غيوم الخيالات والآمال العريضة فى إصلاح البشر فتفرغ للحكمة بكليته ، ومات عام ٣٤٧ ق.م فى السنة الأولى بعد الثمانين .

وكل مؤلفات أفلاطون محاورات « ديالوج » أو محادثات بين جملة

أشخاص وتوجد باسمه خمس وثلاثون محاورة ، بعضها مشكوك فى صحة نسبتها اليه ، والبعض الآخر ترجح نسبتها اليه . وبعض كتب ورسائل .

ويمكن ترتيب محاورات أفلاطون بحسب ترقيه الفكرى ، فقد كان فى أول أمره تحت تأثير سقراط فاشتغل بمسائل الأدب ، وكتب خلال تلك الفترة أتريفون ومينون واحتجاج سقراط على أهل أثينا وكريتون وبروتا غوراس وجورجياس .

وفى الفترة الثانية أخذ يكون تعليمه الفلسفى فكتب محاورات نصيبها من النظريات الفكرية والفلسفية أكثر من نصيب الأولى وهى تينوفس والسفسطائى ، وفيلبوس ، وبارمنيد وكرائيل ومدير المدينة .

وفى الفترة الثالثة تمكن من أفكاره تمام التمكن وأخذ يكتب النوع الثالث من محاوراته وهى التى جمعت بين دقة المنطق وجمال الشعر : المائدة (المأدبة) وفيدون وتيماوس والنواميس والجمهورية أو السياسة المدنية .

فكتاب الجمهورية هو آخر ما ألفه الحكيم الإغريقى الشهير ، وهو مشروع لطوبى أو « لفردوس أرضى » تستكمل فيه الإنسانية سعادتها ، وقد نقله الى اللغة العربية كاملا الأديب الفاضل حنا خباز ، وجعلته مجلة

المقتطف هدية سنوية لقرائها عن سنة ١٩٢٩ .

قال الأستاذ ول دورانت فى المجلة الأمريكية عن كتاب الجمهورية إن مائة ألف تلميذ وطالب فى كل أنحاء العالم المتحضر ، مكبون الى اليوم منذ ألفى عام ، على جمهوريته ومحاوراته ، لأن الجمهورية من أثمن الآثار التى يقتنيها البشر ، ففيها اتخذت الفلسفة أولاً شكلاً ثميناً ، وفيها تجد مباحث ماوراء الطبيعة والآداب وفلسفة النفس واللاهوت (علم الكلام والتوحيد) والسياسة والفن ، فيها تجد المبادىء التى تنشدها طالبات التحرر من النساء ، وفيها تقع على القواعد التى يدعو اليها علماء الحياة لتحديد النسل ، فيها تطالع مبادىء الاشتراكية والإشاعية ، واليوجنية والأرستقراطية والديموقراطية والتحليل النفسى والمذهب القائل بأن الحياة مظهر من مظاهر التفاعل الكيماوى ، فلا عجب أن يقول إمرشون فى هذا الكتاب « احرقوا كل الكتب ففى هذا الكتاب غنى عنها ».

الجمهورية عشرة كتب أو مطالب منقسمة الى خمسة أقسام أو فصول :

(١) القسم الأول وهو الكتاب الأول ومداره البحث فى العدل .

(٢) القسم الثانى يشتمل على الكتب الثانى والثالث والرابع وهى تشمل البحث فى أركان الدولة المثلى ولاسيما تعليم طبقة الحكام وبحث فى

تطبيق العدل فى الدولة ثم فى أفرادها .

(٣) القسم الثالث وهو الكتب الخامس والسادس والسابع وهى تطويل وتفسير وتكميل للكتاب الرابع ، ويشمل هذا القسم مبحثا فى الإشاعية خاصة بطبقة الحكام ووجوب تقليد زمام الأحكام للفلاسفة ونظام تعليم الملوك الفلاسفة تعليما عاليا ، وتعليم الفلاسفة يستغرق الكتابين السادس والسابع .

(٤) القسم الرابع يشتمل على الكتابين الثامن والتاسع وفيهما يقف البحث على انحطاط الحكومة المثلى والفرد الأمثل ، والصور التى تتخذها فى انحطاطها ، فيرى أنها تتخذ أربعة أشكال تنتهى بالاستبداد وهو صورة التعدى التام تقابله العدالة الكاملة فى الدولة المثلى .

(٥) والقسم الخامس يشتمل على الكتاب العاشر ، فتعرض أمام القارىء المقررات التى سبق درسها وأدى اليها البحث فى الفصول السابقة ، ويختم ببحث طريف فى خلود النفس وجزاء الفضيلة ووصف ليوم القيامة والحساب والعقاب والثواب .

فالجمهورية هى المحاولة الأولى التى حاولها عقل من أرقى العقول البشرية ، ليخلق دولة مثلى أو كما يقول الإنجليز Ideal State أو إيتوبيا والمقصود بها « طوبى » .

ولما سئل أفلاطون مؤلف الجمهورية عن وسيلة تحقيق هذا الحلم الجميل ؟ أجاب « ملكوا الفلاسفة ! » والفيلسوف فى عرفه هو كل رجل يعرف الحقيقة ، والحقيقة فى نظره هى « صورة الخير » التى منها تستمد الأشياء الصالحة صلاحها .

والمؤلف العظيم يثير فى الجمهورية مشكلات جمة أولاها المسألة الأدبية فى العدل ، ثم المسألة السياسية ، فالمسألة النفسانية (بسيكولوجية)، ويقترح المؤلف لهذه المسائل حلولا هى الحل النفسانى أولا وينطوى على نظام التهذيب ثم الحل السياسى وهو نظام الجمهورية وهو يشمل اشتراكية الملك ، وإشاعية النساء ومساواة النساء بالرجال ثم الحل الأدبى .

أما عن نقل جمهورية أفلاطون الى اللغة العربية ، فقد جاء فى الصفحة الـ ١٤٨ وما بعدها من كتاب « تاريخ فلاسفة الإسلام فى المشرق والمغرب ، طبع مصر سنة ١٩٢٧ »[1] أن ابن رشد لم يشرح سياسة أرسطو ، وقال فى مقدمة الشرح الوسط للأخلاق إنه لم ير ترجمة عربية لسياسة أرسطو فى بلاد المغرب ، ولما أخذ فى شرح جمهورية أفلاطون قال إنه لم يشرع فيها إلا لأن كتب أرسطو فى السياسة لم تصل

---

(١) كتاب تاريخ فلاسفة الإسلام من تأليف المؤلف .

اليه ، ولو وصلت لاستغنى بها عن الجمهورية ، وهذا يدل على عدم إلمامه (أى ابن رشد) بآداب اليونان ، لأنه لو ألم بها لعرف أن ما دونه أرسطو فى السياسة كان نزراً ، وأنه كان مقلدا لأفلاطون ، فلم يكتب شيئا يدانى الجمهورية جمالا وحكمة » أ هـ . المنقول عن الكتاب المذكور ص ٤٨ و ٤٩ .

وقد سبق الفارابى الى نقل الجمهورية ملخصة فى كتابه « مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة » طبع ليدن سنة ١٨٩٥ فقال فى ذلك الكتاب :

« والمثل الأعلى للحكومة فى نظر الفارابى هو الذى يكون الحاكم فيه فيلسوفا (هذا قول أفلاطون بالدقة « ملكوا الفلاسفة ») ثم يقول الفارابى «إن الناس اجتمعوا بضرورة الاجتماع ووضعوا أنفسهم تحت إرادة فرد يمثل الحكومة » وهذا القول العجيب ينطوى على نظرية العقد الاجتماعى التى أسست مجد چان چاك روسو بعد الفارابى بتسعة قرون .

ولا ريب عندنا فى أن « آراء المدينة الفاضلة » هو نقل مشوه لجمهورية أفلاطون مصبوغ بالصبغة العربية الدينية ، ولكنه يشتمل على الآراء الأساسية ، مثل تمليك الفلاسفة والكلام على العضو الرئيسى ..

أما ابن رشد ، فقد تأثر بالجمهورية فى فلسفته السياسية والاجتماعية ، فقد أباح المساواة بين الرجال والنساء ، ولكنه لم يتورط فيما

سبق اليه أفلاطون من إباحة النساء وإشاعة الملك ، وإن كان ابن رشد قد جعل للعدل المكان الأول في النظام المدنى ، وما أشبه نهاية « آراء المدينة الفاضلة » بنهاية جمهورية أفلاطون حيث يقول أفلاطون على لسان الترجمان :

« إن هناك حياة مذخورة غير ردية ، حتى لآخر قادم ، إذا لزم القانون وأحسن الاختيار ، فيكون راضيا بها ، فلا يستهترن من سبق ، ولا يقنطن من تأخر !» ٠

(٤٠) أمين سعيد

تاريخ اليقظة القومية عند العرب(*)

أهدى إلينا الأستاذ الفاضل أمين سعيد صاحب مجلة الرابطة العربية « تاريخ اليقظة القومية عند العرب » وهو الحلقة الثالثة من كتاب الدولة العربية المتحدة ويحتوى على تاريخ مفصل لكفاح الأقطار العربية فى سبيل الحرية والاستقلال منذ إعلان الحرب العظمى الى الآن والأقطار هى

(*) مقال بعنوان « ثلاث كتب جديدة عن الشرق والعروبة واليهود » ، نشر بجريدة الدستور فى مايو سنة ١٩٣٨ ٠

مصر – فلسطين – سوريا – طرابلس الغرب – برقة – تونس – الجزائر والمغرب . وفى هذا الكتاب برنامج مفصل لإنشاء الدولة العربية المتحدة وعدد صفحاته ٦٥٠ صفحة بالقطع المتوسط .

وقد تخصص المؤلف فى تاريخ الحركات العربية منذ القدم فهو من دعاة القومية ومن أكبر أنصارها الذين يعتبرون الإسلام عنصراً من أكبر عناصر النهضة الحديثة ، ولا يغمطون الفكرة الوطنية حقها . وله فى ذلك كتب عن الثورة العربية منها النضال بين العرب والترك والنضال بين العرب والفرنسويين والإنجليز . وإمارة شرق الأردن والدولة الهاشمية . وكان يحسن به أن يضع كتابا فى النضال بين العرب والأسبان قديما وحديثا . فإن أول حروبهم مع إخواننا كان عندما تغلبوا عليهم فى الأندلس وكان منهم آخر ملوك بنى سراج . وهو الذى ألف بشأنه شاتو بريان قطعة تمثيلية فرنسية خالدة نقلها الى اللغة العربية الأمير شكيب أرسلان . ومن ألطف ماجاء فيها وأروعه أن أم الأمير الأندلسى المهزوم رأته جاثما على رابية ينظر الى عاصمته ويذرف الدمع وكانت أمه مسيحية أسبانية (وهذا أبلغ) فقالت له « اذرف بدل الدموع دما ونح كالنساء على ملك لم تستطع الدفاع عنه كما يدافع الرجال » .

وآخر مواقع الحرب بين العرب والأسبان ماحدث بين الأمير عبد الكريم وحكومة أسبانيا من سنة ١٩٢٠ - ١٩٢٥ وقد عالجها المؤلف من ص ٣٨٤ - ٤٣٣ . أما النضال بين العرب وإيطاليا فقد كان فى طرابلس الغرب وهو قصير الأجل ولا يحتاج الى كتاب مستقل ، ثم انتقل المؤلف الى التاريخ السياسى فدون تاريخ حروب الإسلام والرومان .

ولما كانت مصر فى نظر المؤلف واسطة عقد الشرق العربى فقد وقف عليها قسما كبيراً من كتابه من ص ٨٩ - ١٣٢ ومن ١٤٤ - ٢٦٤ ، أى خمس الكتاب تقريبا ، ولما كان منهاج المؤلف واسع النطاق جداً فقد اكتفى بسرد الوقائع على الطريقة الحديثة دون مقدمات ولا براعة استهلال ، بل تراه يروى الحوادث ويشفعها بالتواريخ والأسماء والوثائق فكأنك تقرأ سلسلة حية من تاريخ الشرق الحديث لا يخلو جل سطورها من الأعلام والأخبار والأرقام . ، وقد يهولك عدد الصفحات فى أول الأمر حتى اذا تصفحت الكتاب وجدت المؤلف قد اختصر وأوجز ، حتى فى بعض الأماكن التى كان يجب فيها الإسهاب .

هذه طريقته التى انفرد بها . فهو لايحمل القارىء فوق طاقته ، ولا ينقل عن سواه . وقد يبدو بعض الجفاف فى الوقائع ، ولكن المؤلف لايضع كتابا فى الأدب ولا يحشد المترادفات . وينقصه شىء مهم لعله يستدركه

فى المطبوعة الثانية وهو ذكر المراجع وتبويب الفهارس بأسماء الأعلام وبعض الخرائط الجغرافية التى تبين الأماكن ولا سيما عند ذكر الحروب والمواقع الحاسمة .

ومن أهم الأشياء عن مصر بلوغه فى تاريخها الى المعاهدة المصرية الإنجليزية (١٩٣٦) .

وللمؤلف غاية سياسية عملية نعتقد أنه أول من دعا إليها وهى التى شرحها فى ص ٦٣٥ - ٦٤٥ ، فإنه خصص هذا الكتاب لوصف نضال العرب فى شتى أقطارهم خلال الفترة الممتدة من ١٩١٤ - ١٩٣٧ ولتسجيل حركاتهم القومية وهو يرى فى الشرق الأدنى خمس دول ينبغى لها الاتحاد لتكوين دولة واحدة عربية وهى الحجاز واليمن والعراق ومصر وسوريا وقد عقد بين الثلاث الأولى منها حلف رسمى . وينتظر ميلاد فلسطين منضمة اليها دولة شرق الأردن ، ثم شمال إفريقيا ، فالناحيات التسع وهى إمارات جنوبى اليمن .

ويلوح للمؤلف أن نظام الاتحاد الألمانى ، الذى وضعه بيسمارك هو أصلح النظم للتوثيق بين الدول العربية المتحدة ، ونحن بالطبع ننتظر مع الأستاذ أمين سعيد اليوم « السعيد » الذى يتحقق فيه هذا الحلم اللذيذ والذى كان بالأمس صعب التحقيق وصار اليوم قريب المنال ، فهو أمل منشود ورؤيا صادقة تجد تفسيرها فى هذا الكتاب المفيد .

ومما يؤيد فكرة المؤلف التى قد تصبح حقيقة واقعة ، ما قرأناه فى كتاب الإسلام فى العالم الذى ألفه بالإنجليزية الدكتور زكى على[1] فقد قال فى ص ٣٧٠ ما نصه « إن حلم إحياء الدولة العربية المتحدة يملك نفوس كثير من دعاة الوحدة » وتجد هذا المشروع مشروحا شرحا وافيا فى مجلة الرابطة العربية الصادرة فى ١٩ أغسطس سة ١٩٣٦ ثم نقل المؤلف باللغة الإنجليزية معظم المقال الذى يفصل فكرة تكوين الدولة العربية المتحدة وهو الذى صاغه المؤلف العربى فى آخر كتابه .

(٤١) أحمد شوقى

مصرع كليوباترا[*]

كان الشعر العربى مهجوراً فى تأليف القطعة التمثيلية فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، ورمى بالعجز حتى نظم بعض شعراء سوريا أربع روايات وقلده المرحوم عثمان جلال فى نظم بعض روايات موليير شعراً ، ثم نقل المرحوم سليمان البستانى إلياذة هوميروس شعراً عربياً صحيحاً ، فأثبت قدرة الشعر العربى على معالجة فن القصص « إيبك » .

---

(١) انظر ماكتبه المؤلف عن هذا الكتاب ، ص ٢١٦ - ٢٢٧ .

(*) مقال بعنوان « مجد كليوباترا ومصرعها » ، نشر بجريدة البلاغ اليومى فى ١٩٢٩/١١/١١ .

وقد جدد شاعرنا أحمد شوقى طريقة نظم القطعة التمثيلية التاريخية ، فأحدث إحياء ونهضة توجب علينا شكره ، فاختار موضوعاً شائقاً ، تتوق إليه نفس كل مصرى ، وإن كان قد سبقه إليه كبار شعراء أوربا ، وهو تاريخ مصر فى عهد آخر أميرة على عرش الفراعنة ، من أسرة بطليموس المجيدة ، ولايزال العالم الشرقى والعالم الغربى ، يكترثان لتلك المرأة العجيبة ، فقد وافتنا أنباء البرق لبضعة أيام خلت بادعاء بعض العلماء اكتشاف موميائها فى فرنسا ، وأنها كانت من بين تلك الآثار التى نقلها الفرنسيون لدى فتحهم مصر ، ومازالت أخبار تلك الملكة الفاتنة تسترعى النفوس والأذهان ، ويلذ التقافها فى كل زمان ومكان ، لأنها كانت شقية بقدر ماكانت جميلة ، وكانت مجازفة بقدر ماكانت عاقلة وحكيمة ، وكانت خليعة ومتهتكة بقدر ماكانت حريصة على عفتها .. وكانت بعيدة النظر بقدر ماكانت محبة لاختطاف اللذات لساعتها ، وبالجملة كانت مجموعة نادرة من العجائب والمتناقضات ، ولعل أعجب مايؤثر عنها اقتدارها على فتنة الشيوخ والشبان ، فعلق بها يوليوس قيصر ، كما فتن بها أنطونيو ، والفرق بينهما عظيم ، أما أوكتافيوس فلم يعف عنها لحكمته أو لزهده إنما لأنه لم يكن رجلا كامل الرجولة ، ولم يكن فحلا فى ذكورته ، كما كان هذان البطلان ، فلم تجد معه نعومة الأنثى نفعاً ، ولم يجد من نفسه قوة تكفى لمهاجمة هذا الحصن الجميل !

وقد وضع الأستاذ أرثور فيجال ، باللغة الإنجليزية (ولا أعلم جنسه بالدقة ، لأن تركيب اسمه يخالف تركيب الأسماء الأنجلو سكسونية) كتاباً ضخما عن كليوباترا وعهدها ، ولعله أمتع ماكتب عنها بهذه اللغة ، وحشد فيه أعظم كمية من الحقائق التاريخية ، عن روما ومصر فى عهد كليوباتر وآبائها ، ولكنه لم يحاول تحقيق شيء أو تعليله ، ولم يبرز للتاريخ نظرية طريفة ، بيد أن مقداراً كبيراً من تاريخ كليوباترا مدون فى تاريخ بلوطارخوس ، فى عرض الكلام على يوليوس قيصر وأنطونيوس وأوكتافيوس .

ولدت كليوباترا فى القرن الأخير من قرون الوثنية الأوربية ، وقبيل ظهور المسيحية بجيل واحد (الجيل ثلاثون عاما) وهى من بيت بطليموس الإغريقى ، بيت علم ودهاء وفساد . وكان هذا القرن الأخير قرن الانحلال والاضمحلال اللذين أصابا المدنية اليونانية ، ونالا من الفلسفة ، وظهرت الإسكندرية وهى إحدى العواصم الإغريقية ، بثقافتها ومدنيتها ومكتبتها (التى أحرقتها نيران أسطول قيصر لدى حصار المدينة واقتحامها) كما تظهر باريس قبيل نهاية الحضارة اللاتينية بأعوام قلائل ...

ومن عادة البيت المالك فى مصر ، وإن يكن أفراده من الإغريق أن يسيروا على سنة المصريين القدماء من تزويج الأخوين ، ولم تكن كليوباترا

لتخضع لهذا ولا أخوها الأكبر من معدنها ، بل كان على أكبر نصيب من الليونة ، آخذاً بأوفر جانب من النعومة ، فلم يملأ عينها ، ولم يقهرها على أن تقنع به أو تكتفى برجولته ونفوذ آرائه وذكائه وسعة حيلته ، لخلوه منها جميعا فدبرت مقتله ، ثم فرت الى سوريا ، ككل امرأة تقترف جرماً فى وطنها ، لأنها علمت بمقدم يوليوس قيصر ، فتعجلت لقاءه ووفدت عليه ، قبل أن يفد عليها .

وكان لاستئذانها عليه قصة نادرة ، فقد أمرت أحد أرقائها من عمالقة الزنوج أن يحملها عارية ، مطيبة بأذكى طيب وأعطره وأثمنه ، ملفوفة فى لحاف من الدمقس المنسوج بخيوط من العسجد واللجين ، فلما استأذن العبد على مولى روما وسيدها ، ألقى بين يديه بحمله الجميل ! فكان لهذا اللقاء فى نفس قيصر أعظم روعة ، وناهيك بدلال يونانية متمصرة ، نشأت وترعرعت فى بيت الملك ، فى أحضان الدلال والغنى ! ثم أكملت بفنون غرامها الخفية مابدأته بزيارتها المفاجئة ، وكان قيصر فى كهولته ، وهى فى ريعان صباها ، ولا يطفىء نار غرام الكهل ، سوى غرام الفتاة ولو كانت مرغمة .. فلم تدخر كليوباترا حيلة ولا وسيلة من حيل الحب ووسائله فى سبيل غواية القائد العظيم الذى صار بعد طاغية روما وسيدها المطلق! فكافأها بأن محا عنها سابقة قتل أخيها الأكبر ،

وأجلسها على عرش مصر مؤيدة بحراب رومة ، وزوجها أخاها الأصغر ، فلم تطق عشرته بعد أن ذاقت عشرة قيصر ، فعادت الى جريمتها الأولى ، وقتلته بالسم (سلاح الجنس اللطيف !) وفرت إلى رومة، فأكرم يوليوس وفادتها وعاشرها عشرة المحظيات ، ومازالت تداعب كهولته المتأخرة حتى طمع فيه أعداؤه (بروتوس وكاسيوس وغيرهما) وذبحوه في ساحة السناتو تلك الذبحة الشهيرة في التاريخ فترملت كليوباترا ، ولكنها ترددت أى حزب من أحزاب رومة تتبع (كما يفعل بعض أهل مصر عند الانقلابات السياسية فى وقتنا هذا) ومازالت فى ترددها ، حتى فاز حزب الآخذين بثأر قيصر ، فعزم أنطونيوس على محاسبتها لهذه الذبذبة فدعاها فلبت دعوته الى طرسوس ، وكانت فى أواخر العقد الرابع من عمرها ، وقد أتقنت فنون الغرام وفتنة الرجال .

وأثبت التاريخ أنها لم تكن ليوليوس قيصر وحده ، بل عرفت رجالا غيره ، ومنهم أنطونيوس نفسه فى غزوة سابقة حضر منها إلى مصر ، فجن بها أنطونيوس كما جن بها يوليوس لأنه لايطفى غرام رجل فى مقتبل عمره سوى غرام امرأة فى خريف شبابها ، وكانت كليوباترا تلك المرأة فى سن وداع شبابها وغرامها ، فعرفها أنطونيوس قبل أن يتزوج ، وقبل أن يهنأ بعشرة امرأة عشرة دائمة مستمرة ، ومن سوء حظه أنه وقع فى

غرامها . فلما عاد إلى رومة وتزوج أوكتافيا أخت أوكتافيوس زواجاً سياسياً اضطر له كما يضطر أفراد الأسر المالكة لوقتنا هذا للمصاهرة ، لم يطق معاشرة أوكتافيا الجميلة العفيفة ، وعاد إلى محبوبته القديمة التى ملكت لبه بفنون غرامها وسحر خلوتها ، الذى ورثتها فيه تاييس !.. وهنا بدأ الانحدار ، وأعلن أوكتافيوس الحرب على أنطونيوس ومعشوقته وهى ضرة شقيقته إكراماً لها ، فكان صهراً موتوراً أكثر منه خصما سياسياً ، وقد تمكن أوكتاف الذى كان طامعاً فى « الحكم » من إسقاط اسم انطونيوس فى المدينة الخالدة بدعاية حاذقة .

ولما حل موعد الموقعة البحرية الفاصلة « أكتيوم » التى نشبت بين أنطونيو وأوكتافيو ، كان الأسطول المصرى إلى جانب أنطونيو يعضده ، ففرت كليوباترا أثناء المعركة ورأى عاشقها المفتون فرارها ، فتبعها وسجل على نفسه عار الهزيمة إلى الأبد . وكان هذا بداية النهاية والبقية معلومة لطلاب المدارس والعبرة فى الحب العظيم ، الذى جلب على صاحبيه خراباً وموتاً .

ويظهر لى من مطالعة تاريخ تلك السيدة ، أنها لم تقتل نفسها بالسم وهو سلاحها المحبوب ، إلا بعد أن وثقت من إعراض أوكتافيوس وأنه لن يقع فى شباكها ، وله العذر كله لأنه لم يكن ذا مزاج شهوى ، كما

كان سلفاه ، وهما اللذان أوردتهما كليوباترا موارد التلف ، كما أنها كانت قد دخلت فى حدود العقد الخامس فبرد دمها وترهل لحمها الذى كان من قبل غضاً متماسكاً ، وأدركها داء السمن وهو متلف للجمال لدى ضرائبها قصيرات القامة ، ولم يعد بدنها أداة صالحة للعشق كما كان منذ عشرين عاماً .

ولا شك فى أنها لو كانت فى مقتبل العمر ونالت قبول الفاتح الجديد لضحت بأنطونيوس وجميع أهله وقومه فى سبيل مصلحتها وعشقها الطارىء ، فلم تكن لها غاية سوى الاتصال برجل عظيم يحميها ويسعدها، وقد تفاوضت مع أوكتاف ، وبعثت إلى أنطونيو رسولا يبلغه كذباً خبر موتها لينتحر ، فنجحت حيلتها ، وجاد المسكين بأنفاسه الأخيرة بين يديها ولم يتبين غدرها لأنه كان من فرط حبه أعمى !

بقى أن أمير الشعراء يرى نظرية جديدة فى الدفاع عن فجور كليوباترا وخلاعتها وخيانتها وجرائمها ، ويصور لنا أن ذلك كان مبرراً لأنها ترمى إلى غاية وطنية ، هى حماية عرش مصر والدفاع عن استقلالها، وبدلا من أن يعطينا صورة الغدر والخيانة والإسراف حتى السفه فى سبيل الشهوات ، أعطانا صورة ملكة محنكة تحب مصر وتدفع عنها غارة الأجنبى الفاتح ، غير أنها ترى تبرير الغاية للواسطة فى سبيل استقلال الوطن ، فنشكره على الفكرة ونقبلها ، ولاسيما أن الملوك

الأقدمين، لم يكونوا أقل من كليوباترا فى ميولهم .. ولكنهم رجال ، ولهم مؤرخون ، يكذبون على التاريخ والحقيقة ، كما يشاء سادتهم ، أما كليوباترا فكانت امرأة وكانت ضعيفة ، وكانت شرقية ، ومؤرخوها أجانب وغربيون (بلوطارخوس . شكسبير . فيجال ، شو ، ريدرهاجارد) فأعطوا العالم صورة امرأة هلوك ، تحب الرجال ، وتسعى إلى اللذات ، وتبذل فى سبيلها كل مرتخص وغال ، حتى عرش مصر وتاجها ، امرأة وصولية ، وقد ظهرت فى أكتيوم بأنها من دعاة الهزيمة .. وكانت طول حياتها تمثل الأنوثة الخالدة التى تعمل على هلاك الرجال ، وتأخيرهم عن المجد ، ولو كانوا أزواجها أو عشاقها ، أو أقرب الناس اليها .. (نظرية توماس هاردى) ولذا نعتبر عمل صديقنا شوقى عملا وطنياً ، وإن كان يخالف التاريخ ، ولا ينتظم والحقيقة فى سلك .

(٤٣) أحمد زكى أبو شادى

رميات من غير رماة (*)

أو خبط عشواء Atrandom باللغة الإنجليزية تأليف الدكتور أحمد زكى أبو شادى طبع دينان وشركاه ٤٠ شارع جريت دوشل ستريت لندن،

(*) مقال بعنوان « ثلاث كتب جديدة عن الشرق والعروبة واليهود » نشر بجريدة الدستور فى مايو سنة ١٩٣٨ .

فى حجم الكف وعدد صفحاته ٢٢٥ المطبوعة الثانية التى ظهرت من الكتاب بعد نفاد الأولى فى سنة ١٩٣٧ .

ولهذا الكتاب قصة ، وكيف لا يكون لمؤلفات الدكتور أبو شادى قصة على طريقة بغض الكتاب .. ونحن لاندهش لصدور كتاب إنجليزى بقلم كاتب عربى مصرى . فقد انتقدنا كتاب « الإسلام فى العالم » فى هذه الجريدة منذ بضعة أيام وهو باللغة الإنجليزية ومن قلم طبيب مصرى يعيش فى جنيف[1] ، فلا عجب أن يؤلف أبو شادى باللغة السكسونية وهو مقيم فى الإسكندرية ، ولكن شتان بين الفكرتين ، فإن الدكتور زكى وضع كتابه ليجذب قراء من الإنجليز ليفهموا الإسلام ويعطفوا عليه ، أما الدكتور زكى أبو شادى فقد هجر العربية وكتب بالإنجليزية غضبا وسخطا وغيظا من قراء اللغة العربية الذين لم يقدروا علمه وأدبه قدرهما ، وهو الذى يكافح وينافح منذ أكثر من ربع قرن بماله وقلمه ونثره وشعره .

وقد كتب الأديب محمد عبد الغفور فى مجلة « التيمس المصرى » فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٧ يقول « أعلن الدكتور أبو شادى قراراً لا رجعة فيه فقد انتهى من الكتابة بالعربية نثراً وشعراً وانصرف الى التحرير بالإنجليزية التى يتقنها إتقانه للعربية ثم نشر كتابه الأخير « خبط عشواء»

(١) انظر ماكتبه المؤلف عن هذا الكتاب ، صفحة ٢١٦ – ٢٢٧ .

فى دراسات عدة عن الإنسان والمدنية - الديمقراطية والديكتاتورية - التنظيم الدينى وتقدم الجنس البشرى - المساواة بين الجنسين - الديموقراطية الاقتصادية ، والدكتور أبو شادى يحرر مجلة عالم النحل بالإنجليزية وله رسائل أسبوعية فى التيمس يهتم بها قراء الإنجليز فى بريطانيا والشرق . وأن الدكتور أبو شادى لم يفزع الى الإنجليزية إلا تخلصا من التحكك به والإساءة المنظمة التى توجه لإنتاجه وشخصه . وهو يقول إن تركه التحرير بالعربية هو الخطوة الأولى للرحيل إلى انجلترا بأسرته وله فيها أصدقاء وخلان . فهو مقبل على نفى اختيارى لأن أمته لم تقدره ولم تعرف له جميله وتضحيته بالمال والوقت والعلم فى مؤلفاته ودواوين شعره » .

هذه الكلمة تدلنا على الدوافع القوية الأليمة التى دفعت بالدكتور أحمد أبو شادى الى هجر الضاد وهجر وطنه بعد ذلك .

وقد علمنا أنه نظم شعراً فى هذا المعنى بعنوان « وداعا بنات الضاد » سمعنا منه بعض ماوعته الذاكرة :

وداعا بنات الضاد لم يبق مأمل	لديك وقد جافيت فنى ومأملى
فيالغتى هذا وداع جرت به	يراعة حر عاف كل مهلهل
إذا لغتى لم ترتضينى صفيها	أبدلها لكن أعاف تبذلى
أضن بعمرى أن يضيّع هكذا	هباء ونهباً عند كل مضلل

وما ألطف تضمينه لو أن تذكر البيت المشهور :

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجـد لغزلى نساجا فكسرت مغزلى

وإننى فى الحق آسف لهذا التصميم الأليم .

والآن نقول كلمة وجيزة عن كتاب الدكتور نفسه ، فأول مالفت نظرنا من منافعه المؤكدة إلحاق كل فصل من فصوله بمراجع منفصلة من أحدث الكتب الإنجليزية وأجدرها بالمطالعة . ومن يعرف الدكتور يثق أنه لم يقصد إلى المباهاة بسعة الاطلاع ولكنه قصد إلى فائدة القراء . وقد أهدى الكتاب الى المستر ر.و.ج . ريد رئيس كلية فيكتوريا وصديق المؤلف ونصير الصداقة المصرية الإنجليزية .

وأهم فصول الكتاب الفصلان السادس والتاسع عن الحكم السياسى والحالة الاقتصادية ، وقد وجب علينا وآسفاه أن نبحث عن معرب ينقل هذا الكتاب الى اللغة العربية مع أن المؤلف حاضر وكفء ولكنه مظلوم فى وطنه .. وهكذا صدق من قال « لا نبى فى بلده » و « مغنى الحى لايطرب » .

(٤٣) ألفرد كنج

تاريخ شمر وأكاد(*)

اشتمل هذا الكتاب على تاريخ بعض الشعوب السامية ومقوماتها وعناصرها وخواص الجنس السامي وفيما يلي ننقل بعض ماجاء في هذا الكتاب من بحث علمي تاريخي .

يقول المؤلف إن الجنس السامي مع كونه أعرق في القدم من الجنس الآري وأرسخ قدما في الحضارة إلا أنه ضيق العطن قصير النظر ضعيف الخيال ، راكد الهمة إلا فيما يهمه مباشرة كالحب والأخذ بالثأر ، وقد تجلت هذه الخلال أو المعايب في أدبه المكتوب والمحكي في نثره وشعره . فالسامي يصوغ الحكمة ويعي المعنى الرائع في العبارة البليغة الموجزة وينظم الشعر الغنائي القصير النفس الذي يعبر عن حالته في الفخر أو الرثاء أو الغزل ، وقد يكون ذا أثرة ظاهرة ، فيفضل نفعه على المنفعة العامة ، ويقيم الدنيا ويقعدها وراء كل أمر خاص بشخصه ، وتراه لايخضع للقوانين ونظم الحكم خضوع ولاء وطاعة ولكن خوفا ورهبة . وقد ينتقل من مكان الى مكان في سبيل الرزق أو المرعى أو خوفا من عدو

(*) مقال بعنوان « الشعوب السامية ، مقوماتها وعناصرها ، بحث علمي تاريخي من كتاب ألفريد كنج العالم الأثري مؤلف تاريخ شمر وأكاد » ، نشر بمجلة الرابطة العربية ، في ١٩٣٩/٣/٢٩ ، العدد ١٤٣ .

يهاجمه أو يقتفى أثره أو يتربص له ، ولكنه لا يكبد نفسه مشقة الانتقال للمغامرة فى سبيل المجد أو اللذة فلا يحب أن يخرج للصيد للذة الصيد المجردة كما يفعل الآرى ولكنه يصيد ليأكل الصيد ويحظى بالغنيمة ، ولكنه اذا أكل وشبع ثم صار الصيد على قيد شبر منه فلا يعرض له ، لا حنانا ورحمة وتورعا على إراقة الدم البرىء ولكن لعدم الحاجة اليه .

لقد كانت القاعدة الظاهرة فى طباع السامى الكرم والإكرام والإحسان الى الضيف وحمايته ولكن هذه الفضائل كانت أظهر ماتكون فى الأشعار والاخبار والقصص . ولكن بين الأشعار والأخبار والقصص والحياة الحقيقية بوناً شاسعاً وفرقا فسيحا .

واذا تأملت فى حب البدوى الذى سار مسير المثل ونظم فى وصفه الشعراء ألوف القصائد والمقطعات وجدته ككل شىء فى حياته الأدبية ، فهو حب شديد سريع كالعاصفة التى تظهر فجاة ثم تختفى وفى أثناء تلك العاصفة يجن العاشق ويصير شاعراً وخطيباً وتشحذ مواهبه ويحتد ذكاؤه وينتقل من الفتوة الطائشة الى الرجولة الكاملة ، ولكن بعد هذه العاصفة لايبقى شىء كالنار التى تنطفىء وتترك وراءها رماداً لايعود اليه الوهج مهما نفخت فيه ، وقد تصبح تلك التى كانت موضع حبه وإعجابه هى أبغض الناس اليه ، ولهذا ضربوا المثل بوفاء جميل وبثينة ومجنون ليلى

لندرة الوفاء فى الحب ولأن هذا الوفاء أدهش المعاصرين إن كان قد حدث حقاً،حتى رأوا وجوب تخليده بالشعر والنثر والرواية .

أما الحب عند الآريين فقد يبدأ هادئا مطمئنا ولا يبدو لهيبه المشتعل الذى يدعو الشعر والنثر ولكنه يبقى ويستمر على وتيرة واحدة وإن هو هبط أو ضعف فإنما يتخلف وراءه مودة ورحمة وحنان وصداقة قد تكون أبقى من الحب وأجدى على ذويه من الشعلة الأولى التى تخبو عند السامى ولا توجد عند الآرى إلا نادراً .

ويمتاز السامى ولا سيما البدوى بالتردد فى أفكاره فهو فى المجتمع أقرب الى الرياء منه إلى الصراحة لأنه بحكم حياته محتاج للموارة والمجاملة فهو أبداً فى رعب ، لأنه لاتحميه قوانين منظمة محترمة ، تراه لايأمن عاقبة العداء الخفى أو الظاهر فهو يخشى الغدر ويخاف الخيانة ولا يطمئن الى العهود .

وفى الأدب السامى ولا سيما العربى فى الجاهلية أنهار متدفقة من قصص الغدر والوقيعة والانتقام بعد التأمين والتطمين وتبادل العهود والمواثيق .

ومن هنا جاءت الفطنة التى اشتهر بها البدوى ، فهو شديد الحذر والحذر يورث المكايد ويولدها ، فالبدوى يقضى معظم حياته كما يقضيها

الطائر الذى يخشى نبل الصائد ، ومن هنا كانت سعة الحيلة ، فالرجل الذى فى خوف دائم على حياته والذى يرى فى كل شخص آخر عدواً ، والذى ينتظر مزاحماً فى شربة الماء ورغيف الخبز والذى يخشى الاعتداء على زوجته وأخته وبنته لأنه يرى فى ذلك الاعتداء عاراً لايمحى ، لايمكن أن يعيش هادئا ولا يمكن أن يكون صريحاً ولا يستطيع أن يمضى شطراً من حياته مطمئنا .

ثم إن هذا البدوى تراه فى معظم الأحيان فريسة الوحدة فهو فى قلب الصحراء الواسعة التى تكاد تكون لا نهاية لها ، أمامه الرمال والسراب وعلى مقربة منه الجدب والظمأ وبينه وبين الماء والعشب أميال لا عدد لها وبينه وبين الموت الذى تعددت أسبابه وطوارئه أقرب مما بينه وبين الأمل فى الحياة .

ألهذا كانت الحياة هنيئة لديه ؟ ألهذا اشتهر بالشجاعة والمخاطرة أحيانا ؟

هل شجاعة البدوى ثمرة اليأس من الحياة ؟ وهل سهولة زوالها جردتها من قيمتها وجعلتها من النعم التى يستهان بها ، وأن حياة العربى ترتفع قيمتها فى نظره كلما اكتسبت سبباً من أسباب التأمين والضمان ؟ .

هذا البدوى الذى بدأ من فجر التاريخ يرحل ويهاجر فى سبيل القوت وفى سبيل الغزو والنهب قد آن له أن يمثل دوره فى التاريخ وأن يأخذ بنصيبه فى دورة الحياة الإنسانية وأن يشاطر الأمم الأخرى عظمتها وآلامها . لقد آن له أن يخرج من أوكاره لا خروج الطيور الجارحة ولا يزحف زحف الأفاعى وراء الحدود فى طلب القوت والرعى ، بل خروج الشعوب القوية التى تحمل فى كنانتها رسالة للإنسانية ، رسالة تنطوى على السعادة والأمل .

لم تكن جزيرة العرب تشبه بقعة أخرى من بقاع الدنيا . وقد تمكن العلم الحديث من تقييد رحلات أسفار القبائل وهجرتها فى سجلات العلوم التاريخية والأنتوغرافية . فهناك قبائل هندوروبية نزحت من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال وهناك قبائل نورسية نزحت من الشمال الى الجنوب واجتاحت سهول أوربا الشرقية ، وهناك الفيزيقوط والفندال والهونز والجرمان التى أغارت على ألمانيا وسهول لومبارديا ووديان أسبانيا وفتكت بالمدنيات الرومانية واليونانية ، وهناك قبائل تيمورلنك وجنكيز خان التترية والطورانية والموغولية التى هجمت على الحضارة الإسلامية فى القرن السابع فاقتلعتها وابتلعتها فى العراق والشام .

وقد انتهت حياة تلك القبائل بمجرد اتصالها بالأمم المغلوبة واندمجت فيها وختمت قصة حياتها ، فهؤلاء النورسمان الذين انحدروا من الشمال على انجلترا قضوا عليها وحلوا محل شعبها ، وهكذا كانت قصة سواهم ٠

أما جزيرة العرب فكانت وسطاً بين الحضارات الكبرى ومركزاً لدائرة العمران فكانت محاطة بالروم والمصريين والفرس والبابليين والأحباش والكنعانيين ، وكانت طبيعة الجزيرة نفسها متفاوته كما أثبتنا من الخصوبة التامة الى الجدب العقيم المزعج ، فلم تملك تلك القبائل العربية أن لاتحتك بتلك المدنيات فى بعض أسفارها ، ولم يكن من المستطاع أن يلتقى بهم فى واحاتهم أو فى مرابط خيولهم وطرق قوافلهم رجال من أهل هذه البلاد النائية ليشتروا من خيلهم أو من سيوفهم ورماحهم أو ليبادلوهم المتاجر فى سلع يحتاجون إليها ٠

وقد يكون حب الاستطلاع قد تحرك فى نفوس هؤلاء العرب ولكن الضنك والضيق والأزمات المتتابعة كانت تدفع بالبدوى أكثر من كل شىء وفى سبيل الهجرة المنظمة تارة والمضطربة المرتبكة طوراً . ولكن هذا العربى لم يكن يملك صناعة ولا فناً ولا علماً ولا ثروة يتاجر فيها . كان لايملك إلا سيفه وغنمه ووراءه حريم وولد وفى الحريم العجوز والفتاة الناهد

التى يطمع فيها ولا ينتظر أن تخدم الأسرة . فكان العربى يتشاءم لميلاد البنت وهو يعلم أنه بدونها لايولد الذكر ولا تقوم للرجل قائمة ، ولكنه كان غارقا فى الحاضر ، والحاضر وحاجة الحاضر وشقاء الحاضر تعمى وتصم ، فهو يحمل هم الحاضر ولا يعمل حسابا للمستقبل فهو فى غنى عن تلك العجوز وعن لهاتها المفتوحة لابتلاع الغذاء وهو يرقب موتها بفارغ الصبر وقد يقتلها أحيانا اذا أمن الانتقاد أو الأخذ بالثأر .

أما البنت الصغيرة فهى ابنته وهى ملكه وهى التى ستنمو فتصير عروسا ذات خطورة تعرض شرفه حينا للابتذال وتعرض سمعته للقيل والقال ، فهو يقضى عليها ويقتلها ولكنه قتل قاس مؤلم وقضاء غادر لاتحتمله النفس البشرية . إنه يئدها ويدفنها حية بعد أن يزينها ويحليها ويخلع عليها أجمل الثياب وأغلى المصوغ فيهيئها للموت ويقدمها ضحية على مذبح الظلم والقسوة والأثرة ، وإن الأم التى تلبس ابنتها أفخر الثياب وتزينها أجمل الزينة وتسلمها للوالد الوحش لتعلم مصير ابنتها وإنها لتودعها فى سكون وخضوع كما تودع أم المحكوم عليه بالإعدام دون أن تخبره أن منيته قد دنت خوفا عليه من خوف الموت الذى سيلاقيه بعد ساعات ، فهذه الأم العربية تسلم بنتها وفلذة كبدها والبنت تجهل مصير نفسها وقد تكون على أشد ماتكون من الفرح بالزينة والشباب ، وهى

لاتقرأ فى عين أمها صورة شبح الموت الذى سيلقاها بعد برهة قصيرة فتترك الخيام وتسير آمنة الى أخدود مهيأ فيوردها والدها مورد حتفها ويدفنها حية ويخمد أنفاسها قبل الأوان ، تلك الأنفاس التى قد يطول ترددها قبل أن تصعد الروح الى بارئها .

هذه صورة من صور القسوة فى حياة الجاهلية وصفحة سوداء من صحفها السود[1] ، فلا عجب اذا كان الجوع وخوف الجوع الذى يفرق بين الوالد وولده هو نفسه الذى يدفع بالبدوى الى الهجرة والارتحال وترك الوطن .

غير أن هذا البدوى الذى ينزح ويحتك بإحدى الحضارات المجاورة له بعد أن ييأس من التنقل فى الجزيرة نفسها قد يتغلب عليها بالحرب والغزو كما فعل العرب فى مصر قبل مينا وكما صنعوا فى كنعان وبابل .

وقد يكون البدوى مسالما فيتغلب على الأمة القوية المتحضرة المتيقظة بسلاح أقوى من سلاح الحرب وهو سلاح الاندماج[2] . ومن الغريب أن

---

(١) سجل القرآن الكريم هذه العادة الوحشية فى غير موضع منه استنكاراً واستبشاعا لها .

(٢) ابتداء من هذه الفقرة مقال آخر بعنوان « خواص الجنس السامى ، بحث علمى تاريخى من كتاب ألفريد كنج مؤلف تاريخ شمر وأكاد » ، نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١٤٤ ، فى أول إبريل سنة ١٩٣٩ .

يبقى العنصر العربى متغلباً فى حياة الأمة مهما كانت قوتها السابقة وتبقى خصائصه ومناقبه ومعايبه ظاهرة فى حياة الشعب أيما ظهور ، وهذا مانشهده لعهدنا هذا فى سورية ومصر والعراق وشمال افريقية وبعض جهات الأندلس ، ولكن أمامنا فى التاريخ وقائع هجرة ونزوح وارتحال لايمكن تعليلها بسهولة ، فإنه من المعلوم أن الحضارة تتبع الخصب وجنوب جزيرة العرب كانت ولاتزال أخصب بقعة فيها ، ولذا قامت فيها مدنيات عظيمة كالمدنية الحميرية وقامت فيها أسر مالكة شادوا قصوراً وحصوناً .

وفى الحق قد ثبت علميا وتاريخيا أن الهجرات السامية بدأت من بلاد العرب الى البلاد المجاورة (العراق وكنعان ومصر والحبشة أخيراً) ثم توالت تلك الهجرات وتتابعت الى الوطن الأصلى السامى (جزيرة العرب) ثم منها الى تلك البلاد ثانية وثالثة . ولم تخل جزيرة العرب من سكانها مطلقا كما أن تلك المهاجر لم تخل فى وقت من الأوقات من العرب . وفى رأى بعض الباحثين أن القبائل القديمة التى قيل عنها إنها فنيت وأخنى عليها الدهر قد نزحت بأكملها الى مواطن أخرى .

وليس فى النصوص الحميرية التى اكتشفت حديثا فى بلاد اليمن ولا فى الآثار المسمارية (الآتية من بلاد شمر وأكاد) مايفسر لنا ألغاز هذه

الهجرة ، فهؤلاء اليمنيون هاجروا فى فجر التاريخ الى بابل وآشور لأسباب لانعلمها لأن هجرتهم لم تكن بسبب الفاقة ، فإن الخصب لم يفارق بلادهم والخيرات مازالت نعمها عميمة من أقصاها الى أقصاها وموقعها على شواطىء البحار وفى مناخ معتدل يجعلها بمأمن من تقلب الجو الذى يفسد أمزجة السكان ويعرضهم للأدواء والعلل . ولعلهم نزحوا مرغمين لتغلب شعب قوى هاجر الى بلادهم فزحزحهم عنها الى العراق فقضو أجيالا طويلة ثم عادوا الى بلادهم ، فهل عادوا بقوة الحنين الى الوطن أم عادوا بعد أن تقووا فى المهجر ليغزوه من جديد ويطردوا الذين اعتدوا عليهم وطردوهم ؟

ليس فى النصوص الحميرية ولا فى الآثار المسمارية مايفسر لنا ألغاز هذه الهجرة المزدوجة للآن ، بل إن هذه الآثار نفسها إن وجدت فقد حرص الإمام يحيى وحيد الدين وهو إمام الزيود باليمن على أن يحول بينها وبين العلماء ومنعها عن كل قارىء وباحث وناقل وترك تاريخ بلاده فى زمن النور لغزاً معقداً ومعمى لايحل .

وبعد أن تهدم سد مأرب هاجر اليمنيون هجرة ثالثة أو رابعة إلى شمال جزيرة العرب نفسها مخترقين الربع الخالى والدهناء الى الحجاز فأرض كنعان ومنهم العمالقة نزحوا الى مصر باسم الرعاع أو الهكسوس

وأسسوا ملكاً فى أواسط بلاد العرب فى تهامة وفى نجران وامتزجوا باليهود . ولعل هذه الهجرة الثالثة أو الرابعة هى التى نقلت بعض اليهود ونثرتهم فى أنحاء الجزيرة نثراً ، فقد كان من هؤلاء اليهود ملوك فى بلاد اليمن نفسها وأسسوا أسراً وجلسوا على العروش ولبسوا التيجان ، وقبل أن يصلوا الى أرض كنعان استوطن الكثير منهم الجهات الوسطى والشمالية من الجزيرة وأسسوا ملكا عظيما فى بلاد كنعان ، والمناذرة فى بلاد العراق منهم أى من اليمانيين وملكهم فى كنعان المعروف بملك بنى غسان.

كيف كانت عقائد هذه القبائل والشعوب المتباينة ؟ وكيف كانت درجات إيمانهم وهل تفاوتت أو تشابهت ؟ الجواب سهل وهو مأخوذ مما سبقت الإشارة إليه .

إن أهل الجزيرة كلهم من الجنس السامى ، بل إن الجزيرة هى المهد الأول لهذا الجنس نفسه ومقره ومسقط رأسه وموطنه الأصلى . وإن فروع هذا الجنس وإن اختلفت فى بعض تفاصيل خلقتها وأخلاقها إلا أنها متشابهة فى أهم مايردها الى أصل نشأتها ، فهم متشابهون فى تكوين الرؤوس والجماجم وفى استطالة الوجه ونحافة الأبدان وحدة البصر والقناعة فى القوت عند الاضطرار والميل الى الترف والجرى وراءه متى

وجدوا له سبيلا وشدة الطمع فى متعة هذه الحياة الدنيا ، وتفضيل الذات على الغير .

وكان دينهم واحداً وهو الدين الوثنى (تعدد الآلهة) وكذلك اللغة ، وهنا يجب التمييز : فاللغة العربية التى نقصد اليها ليست هى اللغة العربية التى نتكلمها الآن أو التى كان يتكلمها أجدادنا ، ولأجل هذا التدليل يجب أن نعلم أن أولى المدنيات فى الجزيرة كانت المدنية البائدة التى كانت لتلك القبائل التى زالت من الوجود كعاد وثمود وطسم وجديس وعمليق ، فإن هذه القبائل أو الشعوب قد عاشت فعلا وأسست حضارات عظيمة وورد ذكرها في التاريخ وفى القرآن والكتب المقدسة وفى الأساطير ولاتزال لها أماكن معلومة يشار اليها كانت مقر تلك الأمم . وإن العلم الحديث أثبت وجود هذه الشعوب ولم ينفها . فقد طاف فريق من السائحين الأوروبيين ببيوت تنسب الى بعض تلك القبائل ووصفوها وحاولوا أن يخرجوها عن طبيعتها ويقولوا إنها مقابر منحوتة فى الصخور ، وسواء أكانت تلك المبانى المنحوتة فى الصخور بقايا قصور أو حصون أو قبور فهى دليل على شعب كان يقطن تلك الأماكن ، وهذه قبور قدماء المصريين لاتقل فخامة عن قصورهم[1] ، والهرم الأكبر نفسه كان مقبرة ، وللطليان

---

(١) وادى الملوك أو تل العمارنة .

فى عصرنا هذا مقابر يطلقون عليها اسم «الوادى المقدس» أو كامبوسانتو، فيها جماع حضارتهم وفنونهم الرفيعة ونقوشهم البديعة وهى تدل بذاتها لو بقيت بعدهم على مدنية عظيمة رائعة ومن أشهرها مقبرة جنوى وميلانو ونابولى ·

وغنى عن البيان أن أرض جزيرة العرب لاتزال بكراً لم يحفر فيها أحد ولم تمتد الى رمالها المتراكمة أيدى العلماء والمنقبين لأن الأديان السماوية جعلت العرب يظنون مثل هذا التنقيب محرما . دع عنك أن الرياح والإعصار تسفى الرمال فتدفن الآثار وتطمرها وتمحو آثار الطرق وتطمس معالم المدن والقرى ·

وفضلاً عما تقدم فإن طيارين فرنسيين صمما على اكتشاف مدينة بلقيس تلك الملكة الجميلة الغنية القوية التى ورد ذكرها فى التوراة والقرآن والتى نقلت من مقر ملكها الى مقر ملك سليمان بفنون خفية نسبت الى الجن فزارت عاصمة ملكه وجلست على عرشه وتهادت بمحاسنها بين أعمدة هيكله فكانت معه رمزاً خالداً للجمال والقوة(١) ، وكانت أقوال العلماء عن عاصمة تلك الأمبراطورة الفتانة متضاربة فقالوا إنها فى الحبشة أو فى غرب الجزيرة . فلما صحت عزيمة هذين الطيارين

---

(١) سورة النمل ·

الفرنسيين اتخذا لذلك الأمر عدته وتزودا بالخرائط والمعلومات من القاهرة والحبشة ثم طارا حتى بلغا آثاراً وخرائب بيضاء لامعة عالية تغمرها الرمال تارة وتنكشف عنها طوراً ، فحلقا فوقها وعادا بغنيمة الاكتشاف العلمي وهما يجزمان بأنها عاصمة ملك بلقيس ، ووافقهما على ذلك فريق من العلماء العرب والإفرنج . وهكذا ينكشف الستار شيئاً فشيئاً عن أسرار هذه الحياة فى ماضيها البعيد والقريب . وهكذا يتغلب العلم الحديث على خفايا الدهر المستغرقة فى القدم ، وهذه الأخبار التى كانت أشبه الأشياء بالأساطير والقصص والتى لم يكن أحد ليؤمن بها أو ليصدقها لولا ورود ذكرها على صفحات الكتب المقدسة ، قد أصبحت حقائق ثابته واجبة الاحترام ، وأعجب من هذا أن هؤلاء العلماء يعتقدون أن تلك الخرائب لاتنطوى على فوائد تاريخية فحسب بل إنها تخفى فى أحشائها كنوز بلقيس وسليمان من الدر والجوهر والذهب والفضة وكنوزاً أغلى وأثمن ربما كانت فى صفحات بعض الكتب المنقوشة بأخبار ترفع الستار عن أسرار عظمى تقلب تاريخ العالم رأساً على عقب .

إذن كانت هناك أمم أو شعوب أو قبائل اسمها عاد وثمود وطسم وجديس وقد أسست حضارة وبنت مدنا وكانت لها لغة أو لغات وعقائد أو عقيدة مشتركة

وكل مايهم أمرها أننا لم نعثر حتى هذه الساعة على الأدلة العلمية التى تعطينا الوصف التام وليس لدينا من سند عليها إلا ما ورد فى الكتب المقدسة . ولكن هناك استنتاجات وقرائن قد تكون فى بعض الأحيان أقوى من الأدلة تجعلنا نعتقد بوجود العرب البائدة بحضارتها ولغتها ومعتقداتها التى هى اللغة العربية الأولى التى لم تصلنا نصوصها .

والأمة الثانية التى كانت لها حضارة هى الأمة أو الأمم التى سكنت جنوب بلاد العرب أو اليمن وهى السعيدة برخائها وخصوبتها وجمال مناظرها وحسن جوها واعتدال هوائها ونقاء مائها . وهذه الأمة كانت لها حضارة أو سلسلة حضارات وكان لها لغة بل لغات هى القحطانية أو العدنانية لغة العرب الذين عادوا من بلاد العراق الى الموطن الأول وعنهم نشأت قبائل بلغات كثيرة كالقحطانيين والحميريين والسبأيين والمعينيين ثم التبابعة .

وكانت لهذه القبائل معتقدات وطقوس وشعائر كما كان لها ملوك وعروش وتيجان وجيوش وفتوح وغزوات كما تطورت عندهم اللغة العربية .

والأمة الثالثة التى ترقت إليها مدنية العرب هى الأمة القرشية أو مجموعة القبائل التى كانت تسكن وادى الحجاز فكانت لها حضارة وكانت لها لغة أو لغات ومعتقدات وطقوس وشعائر وعادات مرعية وآداب وعلوم

وقواعد للحكم وللحياة ، وهذه الحضارة هى المعروفة خطأ باسم الحياة الجاهلية وإنما سميت كذلك لأنها سبقت الإسلام ولم يكن الاسم يدل على جهل الأمة بحال من الأحوال إنما يدل على جهلها بالعقيدة السامية .

هذه الأطوار الثلاثة للمدنية العربية تنقلت فيها الحضارة السامية الصميمة من الوسط الى الجنوب ثم إلى الشمال الغربى ، وهذه الحضارات الثلاث التى قد تختلف فى بعض مظاهرها المادية والمعنوية كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً برابطة واحدة هى الرابطة السامية ، ففى الحلقة تشابه وفى الأخلاق تشابه وفى اللغة تقارب وفى الأفكار تماثل ومحاكاة ، فكأنها ثلاث بنات لأم واحدة مهما اختلفن فيما بين أنفسهن طولاً وقصراً ونحافة وسمنا وبياضاً وسمرة فإن الدماء التى تجرى فى عروق الواحدة هى التى تجرى فى عروق الثانية والثالثة ، ولو أن هؤلاء البنات الثلاث افترقن منذ الصغر وترعرعن فى أحضان غير أحضان أمهن ودرجن فى بيوت غير بيتها ورضعن لبان أم غيرها فقد بقيت علامات مشتركة ربطت بينهن جميعاً وتميزهن عن غيرهن . ولابد أن تمر برؤوسهن فكرات متشابهة ولن تخفق قلوبهن إلا لسبب واحد وعلة واحدة أو لأسباب وعلل متشابهة .

وإذن يجب علينا أن نسأل كيف كانت عقائد هذه الأمم وماهى العناصر التى تكونت منها أديانها ؟ هل كان الدين ضروريا لها ؟

إنك تجد عبادة الكواكب والأجرام السماوية فى كل من تلك الأجناس المتباينة ٠

وإنك تجد الطوطم أو عبادة الوحوش أو الطيور واتخاذ أسمائها أعلاماً للقبائل ٠

وإنك لتجد الكهان والسحرة وعلماء الفلك ومفسرى الأحلام ومدّعى العلم بالغيب ٠

وإنك لتجد الإيمان بالجن والشياطين والأرواح الشريرة والخيرة وإنك لتجد الطيرة والتفاؤل والتشاؤم ٠

وإنك لتجد عبادة الأوثان والأصنام والاستسقاء بالأزلام واستشارة الأرباب عند كل من هذه الشعوب البائدة والشاهدة ٠

وإنك لتجد تمجيد هذه الأصنام بعد اليأس من الوصول الى عقيدة تطمئن اليها نفوسهم ومنها تقريب القرابين على مذابح الآلهة التى من أفظعها تقريب الإنسان وكان الآريون يقدمون الضحايا الإنسانية ٠ ولكن ليس بنية الساميين الذين كانوا يقدمون الولد البكر (الإنسان) ومن ذلك حديث إسماعيل وإبراهيم وعبدالله بن عبدالمطلب . وقد بدأ تغيير العقيدة

فى مسألة إبراهيم الذى أنزل اليه الفداء وقد بقى هذا المذهب الى ماقبيل عهد النبى بقليل .

(٤٤) المستشرق النمسوى إجناز جولدزيهر محمد و السنة المحمدية(*)

قال العالم جولد زيهر فى كتابه « محمد » وهو مجموعة فصول عن سيرة النبى العربى وتاريخ الحضارة وتعليل قواعد السنة المحمدية :

ما كاد المسلمون يخرجون من فيافى جزيرتهم ، وينسلون من مهامه صحرائهم ، حتى وجدوا أنفسهم حيال مباهج الحضارة الإغريقية ، وبدائع المدنية الرومانية اللاتينية ، ومشاهد العظمة المصرية الفرعونية ، ومفاخر الأمجاد الفارسية والإيرانية الآرية الأصل ، وماكان أغرب هذه المناظر لأنظارهم ، وأجذبها لأفكارهم ، وأشدها أخذاً بمجامع قلوبهم ، ولكنهم وإن وقفوا إزاء ها مشدوهين مدهوشين ، لم يضعوا أيدى التراخى على صدور الإهمال(١) بل أعملوا الفكر فى تفهمها وتعليلها للخروج من تأملهم

(*) مقال بعنوان « تغلغل العرب فى الحضارة الغربية وأسرار عظمة الشعوب الإسلامية ومستقبلها » من كتابى المستشرق جولدزيهر ، السنة المحمدية ، ومحمد » نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٩٧ ، ص ١١ - ١٣ فى ١٩٣٨/٤/٢٧ .

(١) مثل فارسى لمن لايكترث للأمور المهمة .

بنتيجة عقلية يحسن السكوت عليها ، وسرعان ما استبانوا التفوق الذهنى الذى ساعد تلك الشعوب على تأسيس حضارتها ، كما استبانوا من قبل تفوقها الحربى ، فلم يركنوا الى مجدهم العسكرى ، ولا للأفكار الدينية التى انطوى عليها دينهم ، بل جاهدوا فى مضاهاة تلك الحضارات العريقة المجيدة فى الغرب والشرق ، ودأبوا فى مساواتها ومجاراتها . فكان أول عنصر ساعدهم على بلوغ غايتهم أن زعماءهم وساستهم لما فتحوا البلاد ، فطنوا ببديهتهم السياسية الى أن دينهم أبعد الأديان حاجة الى الإكراه وأعفها عن أن يرغم الناس على الدخول تحت لوائه . وأنه وإن كان دين قوة روحية وسلطان أدبى على النفوس ، إلا أنه ينهى عن العنف والإرغام ، فكانوا فى كل بلد فتحوه وفى كل مصر دخلوه سواء أكان فى الشرق أم فى الغرب ، يعاملون المغلوبين بالحسنى ، ويأخذونهم بالمعروف ، ويداورونهم بأعظم اللين ، وأحسن الوداعة ، تاركيهم أحرارا فى البقاء على شرائعهم وأديانهم ، وعاداتهم وعرفهم ، غير فارضين عليهم لقاء السلم[1] التى ضمنوها لهم والأمن الذى حاطوهم به ، سوى أتاوة زهيدة وجزية طفيفة . وحتى هذه الجزية لم يكن أمراء المؤمنين ليتمسكوا بها تمسكا

---

(١) السلم بكسر السين وسكون اللام مؤنث قوله « سلم المؤمنين واحدة » .

شديداً . روى بطلر فى كتابه « تاريخ فتوح العرب فى مصر » ، عن الكندى فى كتاب القضاة والولاة طبع لندن « أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فطن الى قلة الخراج من مصر ، ولا سيما جزية النصارى التى يدفعونها عن كل رجل ديناراً فسأل ابن العاص واليها فى ذلك فأجاب أن معظم النصارى يدّعون الإسلام ، فإن أمر الخليفة فهو يكشف عنهم ليتبين ختانهم ، فأجابه ابن الخطاب منتهرا « كلا ! كلا ! ياعمرو إن الله بعث محمدا هاديا لا جابيا ! .. » أ.هـ .

وإذن لم تشهد مصر ولا غير مصر فاتحين بهذا التسامح ولا غزاة بهذا اللين وذاك الحدب على الرعايا . ولا عرفوا من قبل دين العرب وأخلاق العرب ديناً بهذا التساهل وتلك العذوبة المطلقة .

ولكن المؤرخين من كل الملل أغفلوا وصف هذه الحالة وأهملوا تقريرها وإليك الأسباب : كان مؤرخو العرب لايشعرون بحالة شعبهم التى كابدها من نعومة أظفاره والرجل الغارق فى النعمة لا يعرف قدرها ولا يميزها عن نقيضها الذى لايتذوقه . ومنهم مؤرخون أمثال ابن خلدون الذى لاينكر فضله ، واكنه كان متحاملا على العرب تحاملا شديداً ، لأنه من أصل البربر ، ولأنه يبغض البداوة ويبدل حسناتها سيآت وفضائلها

نقائص ومعايب[1] ، أما مؤرخو الإفرنج فقد تجاهلوا فضائل العرب وتسامحهم وعدلهم وبالغوا فى إنكارها لأسباب لاتخفى على فطنة اللبيب ، فإن مؤرخى الإفرنج ناصبوا العرب العداء منذ الحروب الصليبية ، التى لم تكن حروبا دينية كما زعموا باطلا وكذبا ولكنها كانت حروب هجوم على الحضارة الصناعية ، والعلوم والفنون الناشئة فى عواصم الإسلام الجديدة (دمشق - بغداد - القاهرة - القيروان - قرطبة)[2] فكان من أعظم ما اتجهت اليه إرادة هؤلاء الإفرنج إعداد جو المعاداة والاضطهاد للإسلام فى الأذهان الغربية ، فجعلوها حروبا بطانتها محاربة الحضارة العربية وظهارتها التعصب الدينى المسيحى ضد الإسلام .

ولكن تسامح الإسلام ولطف ساسته وأمرائه كان سبباً من أسباب السرعة التى امتدت بها فتوحات العرب وداعياً من أهم الدواعى التى ذللت فى كل مكان انتشار دينهم وشريعتهم ولسانهم ، وما زالت تلك المعتقدات والقوانين واللغة والآداب عالية المنار مرفوعة الذرى ، حتى بعد أن ذهبت ريح العرب وولوا عن مسارح العالم فى الشرق والغرب .

---

(١) راجع الفصول الأولى فى مقدمه .

(١) أصل الحروب الصليبية (هاولز الفصل الثانى ص ٧٥) طبع لندن .

ثم قال العالم جولدزيهر فى كتابه « محمد » : إن العظمة الإسلامية ظهرت ثابتة على قوائم متينة من المبادىء التى رسمها النبى لأمته ، فقد روى فى الحديث الصحيح أن محمداً جلس على أحد المنابر وجلس حوله الصحابة كما كانت عادتهم وقال[1] « إنى أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال رجل : أو يأتى الخير بالشر يارسول الله ؟!

فسكت عنه رسول الله ، ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق يمسح عنه الرمضاء وقال : أين هذا السائل ؟ وكأنه حمده ! فقال : إنه لايأتى الخير بالشر . وإن مما ينبت الربيع مايقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر ، فإنها أكلت حتى اذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وإن هذا المال خضرة حلوة . ونعم صاحب السلم هو لمن أعطى المسكين واليتيم وابن السبيل أو كما قال رسول الله . وإن من يأخذه بغير حقه فهو كالآكل الذى لايشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة » ا.هـ الحديث المحمدى .

وقال جولدزيهر فى شرح السنة المحمدية (جزآن طبع فينا ويعد من أمهات كتب المستشرقين) لقد ضرب النبى العربى فى هذه الرواية الدينية

---

(١) قد صححنا هذا الحديث ورددناه الى أصله كما ورد فى الكتب الستة .

مثلين ، الأول لمن يفرط فى جمع المال ، والإكباب على تكديس الدنيا مع منع ماجمع من حقه ، والمثل الآخر جعله للمقتصد فى جمع المال ، وبذله فى حقه ، فإن أحرار العشب التى يحلو طعمها للأنعام هى الأرباح الطائلة التى تستكثر منها الماشية كما يستكثر أرباب رؤوس الأموال وعبدة الذهب حتى تنتفخ بطونهم ويهلكون .

أما آكلة الخضر فهم من يقتصدون فى أخذ الدنيا وجمعها وعدم الإسراف فى قمها والحرص عليها فينجون من وبالها . وقد وصف الرسول العربى هذا المال الحلال بأنه خضرة حلوة وناعمة غضة وحث على إعطاء المسكين واليتيم منه مع حلاوته ورغبة الناس فيه ليقيهم الله وبال نعمتها فى دنياهم وآخرتهم .

وإن التخريج الجليل الذى خرجه المستشرق النمسوى لينصب على صميم المسائل التى يعالجها العالم المتحضر الآن ، فإن داءه كامن فى الاستماتة فى حب المال ، وبذل كل جميل وشريف وغال فى سبيل الحصول عليه والاستكثار منه وتكويمه وتكديسه حتى أصيب العالم بالتخمة فكان للعفة العربية التى نصح بها النبى تأثير فى حياة الإسلام فى الأمم التى أخضعها العرب . فإن الفرس واليونان والرومان تسودوا تقريبا على البلاد التى فتحها الإسلام بعد ذلك ، وبسطوا فوق أراضيها أروقة نفوذهم ،

ولكنهم لم ينجحوا وقتا ما فى هدم مدنية الفراعنة العتيقة ولم يتوفقوا الى إسقاطها وإقامة حضارتهم على آثارها ، ولكن الإسلام والعروبة نجحا حيث فشل الفرس والإغريق والرومان .

ومن أسرار عظمة الإسلام ، وحسن توفيقه أن نظمه السياسية والاجتماعية كانت من السهولة بحيث توافق حاجات الطبقات الوسطى فى الأمم التى استكانت للعرب ، وهذه الطبقات الوسطى هى العمود الفقرى لكل من الأمم .

قال جولدزيهر : يحدث أن النظم الإسلامية لم تكن ملائمة كل الملائمة لحاجات الطبقات المتوسطة فى البلاد المفتوحة ، فكان العرب أعلم بتحويرها وتذليلها لما تقتضيه الضرورات ، ولذلك ترى بين النظم الإسلامية فى الهند وفارس وبلاد المغرب ومصر فروقاً ، هى فى بعض الأحيان كبيرة، وإن كانت ترجع الى قرآن واحد ، وتأتم بهدى رسول واحد . وأبهر مثل على تلك القدرة فى التحوير والتحويل وتذليل القواعد للزمان والمكان والبيئة ، ما فعله قديما الإمام الشافعى ، فقد كان له فى العراق مذهب فلما ورد مصر وولى القضاء فيها جعل لأهلها مذهبا ينطبق على أخلاقهم وطباعهم ولايخرج عن شرع الله وسنة رسوله . وهذا العمل كان مؤسسا أيضا على أصل من أصول الشريعة من قول الرسول فى أحد أحاديثه (إن

هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى!) وهذا هو نفس مافعله المصلحون فى الإسلام ، فقد ساروا فى أعمالهم برفق وبلغوا الغاية القصوى بالرفق واللين لا على سبيل التهافت والخرق ولم يحملوا على أنفسهم ولا نفس الرعية ، ولم يكلفوها مالا تطيق فتعجز وتترك الدين والعمل .

ومن المبادىء الاشتراكية النبيلة التى أقرها الإسلام وهى روح الإنسانية ولباب النصفة ومحور العدل ، قول على بن أبى طالب وهو أمير المؤمنين ومن دعائم الدولة والملة : « لو شئت ، لاهتديت الطريق الى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى الى تخير الأطعمة ، ولعل بالحجاز وباليمامة من لاطمع لهم فى القرص[1] ولا عهد له بالشبع . أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى ، وأكباد حرى أأقنع من نفسى بأن يقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم فى مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش ، فما خلقت ليشغلنى أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة ، همها علفها أو المرسلة شغلها تقممها تكترش من أعلافها ، وتلهو عما يراد بها ، أو أترك سدى أو أمهل عابثاً أو أجر حبل الضلالة أو اعتسف طريق المتاهة ؟! » .

(١) رغيف العيش العادى ، أو الخبز القفار يقصد أنه لا يجوز لى أن آكل أطيب الطعام أو ألبس أفخر الحرير وفى الرعية من لا يجد الكفاف .

وهذا الكلام لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه يجمع بين صدق أبى بكر وعدل عمر وإباء على نفسه وحدبه على رعيته وعطفه على أمته منذ ألف وأربعمائة سنة . فى حين أن الحضارة الغربية المادية الجامدة الجافة قد أنجبت رجالا كامبراطور ألمانيا غليوم أو ويلهلم الثانى الذى سجل عليه التاريخ أنه قال : « ليس فى هذه المملكة إلا سيد واحد .. هو أنا ولن أسمح لنفسى بوجود سيد آخر ! ليس فى ألمانيا إلا قانون واحد ، هو قانونى ، هو القانون الذى وضعته بنفسى . إن الاشتراكية سحابة صيف عما قليل تنقشع . إن لفظة اشتراكى لهى عندى مرادفة للفظة « عدو للحكومة والوطن » إن الحزب الاشتراكى الذى يجرؤ على مهاجمة نظم الحكومة وأسسها والخروج على الدين ، والانشقاق على العقيدة وتبلغ منه الجرأة أن يتجاسر حتى على شخص الملك ، يجب أن يبيد ، إنى لأبتهج أن أرى يد كل فرد فى يدى مادام يبايعنى على هذه الحرب » ، انتهى كلام غليوم .

ولم تكن كلمات غليوم إلا صورة طبق الأصل من كلمات الظالمين السالفين من ملوك أوروبا أمثال امبراطرة الرومان ، وبعض ملوك فرنسا وانجلترا ، ولكن ملوك الشرق ولاسيما العرب والمسلمين منهم كانوا دائما يسيرون وراء مثل عليا ، من التى خطها لهم قرآنهم ورسولهم وأخلاق

خلفائهم الراشدين ، ولاتزال هذه الخطط كامنة فى حنايا ضلوع الإسلام ، تعين على نهضته الحاضرة نهضة يحوطها العدل وتغضدها الرحمة الإنسانية .

وكما تحدث جولدزيهر فى كتابيه عن أسرار عظمة الشعوب الإسلامية وتغلغل العرب فى الحضارة الغربية - تحدث أيضاً عن أسباب ركود هذه الشعوب فى العصر الحاضر وتناول موضوع اصطدام الإسلام بالغرب .

فإن سير الإسلام المحفوف بالنصر منذ ظهوره فى القرن السابع المسيحى أدى الى احتكاكه بالغرب واصطدامه بالمسيحية[1] وكان هذا الاصطدام أول ما صادف المنافسة بالقوى بين الشرق وأوربا ، ولكن فات بعض المؤرخين أن الاصطدام بين الشرق والغرب قديم ، وكان أول عهده على مايذكر المؤرخون حروب شعواء قامت بين اليونان والفرس . وفى مواقع عدة أشهرها ترموپوليس التى هزم فيها القائد اليونانى غستوكليس أسطول زاكزيس امبراطور الفرس الشهير فصار مؤرخو أوربا يصفون

---

(١) ابتداء من هذه الفقرة مقال بعنوان « الأمم الإسلامية وأسباب ركودها فى العصر الحاضر ، لمعات ولمحات ونفحات من كتاب العالم النمسوى المستشرق إجناز جولدزيهر » ، نشر بمجلة الرابطة العربية العدد ١٠٢ ، فى ١٩٣٨/٦/١ .

هذا الانتصار بأنه إنقاذ الحضارة الأوربية من البربرية الشرقية . واتخذوا منه سلماً لتبرير هجوم أوربا على الشرق وابتلاعه . وكان بعد ذلك هجوم الإسكندر المقدونى على الأناضول وسورية ومصر والهند وبلاد الفرس نفسها وقد قضى نحبه فى سهولها وهو لم يتخط العقد الثالث .

وقد فات المؤرخين المتحيزين أن الفرس من جنس آرى فهم أبناء عمومة اليونان وليسوا من الجنس السامى . والدليل على آريتهم أن هؤلاء الفرس أنفسهم بقيادة قمبيز هجموا على الشرق الأدنى ومن بين ممالكه التى افتتحوها وأذلوها مصر . وكان الهجوم الأوربى على الشرق بعد ذلك على أيدى البورتغال الذين فتحوا الهند الصينية للبحث عن البهار والتوابل[1] . وادعى المؤرخ اليهودى ستيفان زفايج وهو مؤلف ماكر ، أن أهل أوربا مذ تذوقوا الفلفل والشطة وجوزة الطيب والحريفة وفواتح الشهية لم يستطيعوا عنها صبرا ، فحشدوا الأساطيل للفتح ومازال أساطيل التجارة تحملها من مزارعها تحت خط الاستواء الى يومنا هذا .

أقول إن جولد زيهر يذكرنا بذلك بالمثل الهندى « من أكل الأنبا والبان ودخل أرض هندوستان نسى الأهل والأوطان » فهؤلاء الأوربيون الجائعون دخلوا أرض الشرق وأكلو البهار فنسوا أوطانهم واستعمروا

---

(١) راجع سلسلة مقالات لستيفان زفايج فى جريدة كانديد سنة ١٩٣٨ .

أوطاننا باسم البهار . وفى هذا الرأى اليهودى تدليل على نهم أوربا واتباعهم أهواء بطونهم ، وفى الحق أن البهار والحبهان وجوز الطيب لم تكن وحدها هى التى حرضت شهيتهم على الغزو والاستعمار ، فإن الشرق يحتوى على كنوز أغلى وأغنى وأضخم من البهار ، ففيه الجواهر واللؤلؤ ومناجم البترول والعاج والأبنوس والعنبر والمسك والأرض الخصيبة التى تنبت ذهباً وفضة ومئات بل ألوف من الخيرات التى أسالت لعاب أوربا .

ولم تنته غزوات الغرب بعد البورتغال ، فإن العصور الحديثة جنت علينا بالحروب الصليبية فجردت أوربا باسم الدين جيوشاً جرارة عقدت ألويتها لملك وأمراء تركوا عروشهم وتيجانهم للأوصياء والنساء «ريكاردوس قلب الأسد ولويس التاسع وغيرهما » ليهجموا على الشرق ويعودوا بخيراته إلى أوطانهم ، وقد أخفوا أغراضهم الحقيقية تحت راية الصليب منقادين إلى القساوسة والرهبان وماكان هؤلاء الرهبان إلا طائفة من المغامرين لبسوا مسوح الزهد وهم إلى قطاع الطرق أقرب ، وجمعوا فى صفوف جنودهم طوائف اللصوص والمقطوعين والمتمردين والمتشردين وجنّودهم بالتطوع مقابل القوت الضرورى .

وقد بدأ النزاع بين الإسلام والنصرانية قبل الحروب فى شكل مجادلات دينية . ولكن المسلمين تبعاً لكتابهم المنزل أحاطوا شخصية

المسيح بكل أنواع التبجيل والتمجيد والاعتراف برسالته ومولده المعجز
وانفراده بين الأنبياء بالوجاهة فى الدنيا والآخرة ، والرفعة الى السماء
«إنى متوفيك ورافعك إلىّ » وهو أمر لم يذكر فى القرآن عن محمد ..
النبى الذى نزل عليه الوحى . ولكن النصارى الأقدمين قابلوا هذه
بالنيل من النبى ، والتشنيع عليه فى كتبهم واختراع المساوىء البا
وكتبوا ذلك وخطبوا به وعلموه أولادهم وهيجوا العامة والدهماء ع
المسلمين كما فعل اليهود حذوك النعل بالنعل ، فإن القرآن الشريف
موسى عليه السلام تمجيداً كبيراً فى مئات الآيات بل جعل سوراً بأكملها
وقفاً على تاريخ حياته ونشأته وأخلاقه وزواجه « سورة القصص
والبقرة ... إلخ » كل هذا لم يعجب اليهود ، لم يطفىء من نار أحقادهم
كما لم يعجب النصارى تمجيد عيسى ابن مريم ولم يكن يرضيهم
الاعتراف بألوهية المسيح والارتداد عن الإسلام وتفضيل مذهبهم على كل
مذهب والإقرار بعبودية العرب والمسلمين لهم فيرضوا عنهم ...

فنحن لا نلوم الشعوب المسيحية بقدر مانلوم رجال الكنيسة
الأرثوذكسية والكاثوليكية . لأن القسس سمموا أذهان الشعوب ضد
المسلمين ونبيهم وكتبهم منذ ثلاثة عشر قرنا . ولهؤلاء القسس وسائل
جهنمية فى تنفير الناس عن خصومهم فلما ارتفعت الغشاوة عن أبصار

العلماء الأوربيين فى أواخر القرن التاسع عشر بعد أن تعلموا العربية وقرأوا كتبنا وفهموها كما فعل جولد زيهر ونولدكه وويلهاوزين وجريمه ونيكولسون وادوارد براون وهويار وريتان أرغموا على النصفة ولم يراعوا خاطر الدول المستعمرة التى أفادت كثيرا من الدعاية المعادية للإسلام فى أذهان الأمم الغربية .

كان بطرس الراهب الذى دعا الى الحروب الصليبية بأمر البابا أوربانه يعتلى صهوة بغلة فرهة ويدعو الى محاربة الإسلام فتبعه فى ضلاله من تبع من اللصوص والمحرومين . واقتفى أثر حوافر بغلته لفيف من الفلاحين البلهاء الذين بخلت عليهم أراضيهم المجدبة بالقوت الضرورى، فذهبوا الى الشرق فى « حملة الجوع » وكان البابا أوربانه ينادى بضرورة استرداد القبر المقدس من أيدى الكفار أى المسلمين . وكان المدعو برنارد كليرفو « الذى صار فيما بعد القديس برنارد » يقول « كل من ذبح مسلما دخل الجنة وكل مذنب يغسل ذنوبه بدماء المسلمين » ، فوجدت هذه الدعوة الظالمة صدى فى أنفس أمراء الإفرنج الطامعين فى المستعمرات والتجارة المتربصين لأسواق الشرق والجائعين الذين لايجدون فى أوربا الخبز القفار وكان من أوائل المنصفين للعرب جوستاف ديركس(١) .

(1) Gustave Diercks : Die Araber in Mittelater und ihr Einfluss auf die cultur Europas .

ومن أعجب الأمور أن المسلمين كانوا أكثر أمانة على قبر المسيح من سواهم ، لأنهم يحترمون صاحب القبر ولأنهم يمنعون تنافس الشيع والمذاهب والفرق والنحل المسيحية عن التزاحم والتناحر . وقد أظهر عمر ابن الخطاب وخلفاؤه تبجيلهم للقبر ، فلما وصل هرون الرشيد العباسى الى عرش بغداد وأراد ربط أواصر المودة بينه وبين شارلمان بعث بمفاتيح الضريح المسيحى اليه باعتباره ممثلا للسلطة النصرانية فى الغرب[1] .

ويعد كتاب جولد زيهر عن الإسلام من أصدق الكتب وأنصفها لأنه درس الإسلام فى مصادره الأولى بغير وسيط . وقد ظهر فضل هذا المؤلف عند مادافع عن الإسلام بوصف كونه عقيدة . فقال « إن كثيرين يردون ركود الإسلام الحالى الى الدين نفسه وهذه فكرة خاطئة فقد درسنا شؤون المسلمين فى أنحاء العالم وفى كل العصور فثبت لدينا أن الإسلام براء من كل عناصر التأخر والركود وأن سبب الاضمحلال راجع الى أمور خارجة عن الدين نفسه ، أهمها طبيعة الشعوب التى انتحلته ، ووراثتها السابقة . فإنها لم تتغير ولم تتبدل وبقيت على فطرتها . ومنها الترف والرفاهية والرخاوة التى اندفع بعض الخلفاء فى تيارها فأهملوا الشعوب والعدل

---

(١) ويلسون كاش فى كتاب « ثورة العالم الاسلامى » .

واكتفوا بالراحة الذاتية وكفوا عن الجهاد والنضال والمكافحة ، ومنها هجوم أوروبا على الشعوب الإسلامية بحجج مختلفة كلها واهية ومنطوية على المصالح»[1] .

وهذا الكتاب الذى نذكر اسمه فى الهامش بالألمانية هو نفسه الذى نقل الى الإنجليزية باسم «محمد» ونشر فى لندن سنة ١٩٢٢.

(٤٥) فرايا ستارك
مداخل بلاد العرب فى الجنوب(*)

هذا الكتاب من كتب الرحلات عن حضرموت . إن الغربيين ليسوا أهل سياسة وحرب فحسب ، بل هم رجال حرب وسياسة واستنفاض ، وعلم وأدب وتجسس وكهانة واستكشاف واستطلاع واستعمار . وإن كل مايدخل فى حيازتهم من الأراضى والممالك ومن الشعوب الجاهلة أو المجهولة يكلفهم قبل الامتلاك ملايين الدنانير ومئات الأعمار من الرجال الذين يمهدون السبل ويجوسون خلال الديار باسم السياحة والسفر لأجل التاريخ والعلم والتنقيب عن الآثار ودرس الأخلاق والعادات والأدب الى

---

(١) Lgnaz Goldziher - Vorlesungen uber den Islam. Heidelberg 1910 .

(*) مقال بعنوان « السياحة عند العرب والإفرنج ، كتاب إفرنجى جديد عن حضر موت » ، نشر بمجلة الرابطة العربيـة ، فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٧ ، المجلد الثالث ، العدد ٦٨، ص ١١ - ١٣ .

آخر مايوحى به إليهم شيطان الاستعمار من الأسباب والأعذار والحجج المنتحلة حتى ليحار المشاهد فى تحليل ذكائهم وسهولة التعليل لديهم ، وبساطة أهل الشرق الذين يصدقونهم ويفتحون لهم بلادهم وقلوبهم .

فمنذ عدة قرون سافر ماركو بولو الإيطالى الى قلب الصين وفؤادها ووطئت أقدامه أحشاءها وعاد منها الى بلاده بتحف وعاديات ومخطوطات، وأعظم من كل تلك النعم التى تحمل أعظم المشاق فى سبيلها ، وكابد من المتاعب ما كابد من أجلها نقل صناعة الحرير وتربية دودة القز ، وهذه وحدها ثروة طائلة ، فإنه قبل سياحة ماركو بولو ، لم يكن لصناعة الحرير وجود فى إيطاليا أو فى جنوب فرنسا ، لأنها كانت سراً مقدساً مصونا مكتوما عن جميع البشر ، ولم تنقل تلك الصناعة إلا إلى بعض البلاد الشرقية على أيدى رجال من الصين ، أمثال أسرة الشيشينى الصينية المسلمة التى هاجر أفراد منها الى القطر المصرى منذ ثلثماية عام واستقرت بهم النوى فى المحلة الكبرى لموافقة مناخها لزرع شجر التوت الذى يعيش الدود على أوراقه « كما رواه لنا المرحوم محمود الشيشينى بك المتوفى فى ١٩٣٤» .

ولكن ماركو بولو عاد بالصناعة الى إيطاليا وطنه غنيمة باردة ، وقد أخذ جزءاً من ثروة الشرق الى الغرب ، أما سائحو العرب فكانوا يهجرون

أوطانهم فى سبيل العلم أو الدين ويرحلون فقراء فيقضون نحبهم فى الطويق أو يعودون أفقر مما ذهبوا ، ولم يرحل أحدهم بفكرة وطنية أو سياسية قط ، فابن بطوطة كان رحالة سليم النية ، تزوج فى معظم البلاد التى حط فيها رحاله ، وعاش عيشاً مخرفجاً حيثما سمحت له أحوال البلاد أو كرامة مضيفيه وعاد بأخبار معظمها خرافى أو فى حيز الشذوذ والغرابة ، فهو رحالة مسل مفكه مرفه عن نفوس قارئيه . وذلك لأنه لم يكن وراءه حافز أو مدد من أهل وطنه أو حكومته القومية يشجعه ويعينه بالمال والعتاد ويشد أزره فى رحلته أو ينجده عند الضرورة أو يكافئه لدى عودته، بل ربما يتربص به ولى الأمر لدى عوده دوائر القصاص والانتقام بفتوى بعض مشايخ زمنه ، بحجة أنه عاش فى بلاد الأوثان أو خالط الكفار أو دخل هياكل أو معابد تعبد فيها الأصنام وتقدس فيها الأفاعى والقردة.

أما إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وإنجلترا فإنها كانت تمجد روادها وتفخمهم وتثيبهم وتجزيهم خير الجزاء وتغدق عليهم النعيم وتجهزهم فى رحلة جديدة سواء بالبر أو البحر ، حتى ولو كانت نتائج السياحة معنوية أو أفلاطونية كاكتشاف القطب الشمالى أو الجنوبى أو غرس علم دولى فى قمة جبال النار وهى إزاء جزيرة واق الواق !

وفى أوائل القرن التاسع عشر سافر الرائد الإنجليزى كنجليك من أوروبا الى الشرق وطاف بشمال إفريقية ومصر والشام ودرس أحوال البلاد والتقى بليدى ستانهوب النبيلة المسترجلة التى كانت سبقته الى الصحراء وعاشت بين مشايخ القبائل بحرية مطلقة وعندما زار مصر فى إبان الطاعون الأعظم وصف حياة العاصمة وانتشار الداء وأحصى الموتى والأحياء ، ووقف عند أبى الهول يناجيه ويتنبأ باليوم الذى يأتى فيه جون بول ويفشخ (كذا) رجليه فى الرمال ، وقد صح تنبؤ الرحالة بعد موقفه الرهيب بمائة عام فقط .

أما السادة الأوروبيون الذين طافوا الشرق وبلاد العرب لأجل أسباب دينية وعلمية واجتماعية واقتصادية فلا عدد لهم . وهم فى كل يوم يرفعون النقاب عن سر رهيب من أسرارنا ، فهذه روزيتا فوربس تطوف صحراء برقة من جغبوب إلى الكفرة ثم تنزح الى شواطىء بلاد العرب فتدخل عسير فالحجاز لتؤدى فريضة الحج باسم السيدة خديجة وتغريها السياحة فى العراق وكردستان وتركيا وإيران وبلاد عبادة الشيطان وسورية وأرمينية فلا تتردد ولا تتراجع بل تشد الرحال وتركب متن الخيل والبغال وتستعمل السيارة والطائرة وعند اللزوم الغواصة والمدمرة وتعود فتؤلف كتابا ضخما يكتب لها مقدمته سير مارك سايكس الشهير الذى

شارك بيكو فى تدوين اتفاقات لايزال أثرها يتردد فى الأذهان ·

وكانت روزيتا هانم فوربس فى حراسة قبطى أديب ذكرت اسمه تحت ك . ف . وقالت إنه قام وسهر على خفاء شخصيتها وسهل لها اتخاذ صفة امرأة عربية وقد أتقن الرجل هذا الفن حتى عين رئيساً لقسم المباحث الجنائية السرية فى إحدى مصالح الحكومة الكبرى ، مكافأة على نجاح سياحة روزيتا هانم ونجاتها من مؤامرة العرب « الوحشيين » ، ولكن روزيتا لم تكن شيئا مذكوراً فى جنب المأسوف عليها جرترود بيل أو «عنقاء العراق» التى حكمت تلك البلاد فترة من الزمن على ماجاء فى بعض كتب المؤرخين المحدثين من الإفرنج والعرب مثل مذكرات فيلبى وشكسبير والريحانى ·

وقد أثبتت هاتان السيدتان أن السياسة والاستكشاف ليسا على شىء من الصعوبة بل إن النساء تحل فيها محل الرجال الذين يدخرون لأعمال أكثر نفعاً ومشقة ·

فقامت السيدة فرايا ستارك برحلة شاقة فى بلاد حضرموت وألفت عن رحلتها كتابا أطلقت عليه اسم « مداخل بلاد العرب فى الجنوب» The Southern Gates of Arabia ·

والسيدة فراياستارك وصفها لنا شاهد عيان فقال إنها طويلة سمراء سوداء الشعر والعينين ذات أنف أقنى كأنوف النسور وهى ليست

بالبادنة ولا بالنحيفة التى تزدرى . وهيأتها كهيأة الرجال وإن كان فطرتها تنطوى على شىء كثير من الأنوثة اللينة وهى تخفى حبها للرجا ولا سيما العمالقة الذين استكملوا صفات الرجولة بقوة السواعد وانفتا العضل واكتناز البأس الخفى الذى تنم عليه حركات البدن والنظرات .

وهى كاتبة من الطبقة الثانية وشاعرة مطبوعة وواسعة الاطلاع على الآداب القديمة والحديثة فى لغات عدة .

ولم تكن سنها عندما قامت بسياحتها تقل عن الخمسين ولكنها ذات شوق عظيم للتوغل فى الصحارى والاختلاط بأبناء السهول والجبال لتقف منهم على أسرار الرمال ، قالت تصف عربيا فى ص ٣٥ من كتابها المسمى أبواب بلاد العرب الجنوبية :

« من كل هؤلاء الرجال لم يعجبنى إلا رجل واحد يبدو لى عن قرب وأنا أنظر إليه من نافذة قصر السلطان الذى قضيت فيه بضعة أيام ، فقد كان هذا الرجل كأنه عار ، لايغطى بدنه شىء وكان ينحنى ويعتدل ويميل يمينا وشمالا لا أدرى ماذا يفعل ولا أتبين سببا معقولا لحركاته المنتظمة الموزونة ، ولكن كان رجلا بكل ما فى هذه الكلمة من معان شائقة مغرية . وكنت أحس فى أعماق قلبى كأننى أريد أن أقابله عن قرب وأتحدث إليه وأسمع نبرات صوته وأتفهم حقيقة نفسيته . هذا هو العربى الصميم الذى

يعمل بعنف فى الحياة المملوءة بالنشاط وهو لايبدو عليه ملل أو كلل أو ضجر أو نفور من العمل الدائم المستمر ، كأنه آلة موسيقية منسقة الأوتار، منسقة الأوضاع والأنغام » ا. هـ نقلا عن ص ٣٥ ، ٣٦ من كتاب «مداخل بلاد العرب» .

لقد طافت السيدة فرايا ستارك شواطىء الجزيرة العربية ودخلت حضرموت من ثغر المكلا . ووصلت الى قصر السلطان فهى تصفه وتتغنى بمنظر البحر من نوافذه وتمتدح الرجال الذين لقيتهم بين جدرانه والخدم الذين خدموها وتعتب على الذين يذمون العرب ، ولا سيما الخدم منهم ، ماعدا واحدا وهو طاهى الملك فيصل الذى توفى وتركه « يفسد معدة الضيف » بسوء طهيه ، وأن البلاط العراقى لايفرط فيه لأنه تراث المرحوم العظيم . أما خادمها الأفغانى (من أشباه الحراس أو الفرسان الثلاثة) فهو حائز لرضاها كغيره من الذين خدموها فى القصر بأمر السلطان على ابن منصور وسلطان المكلا القعيطى وهى لاتنسى السادة بعد ذكر الخدم فهى تذكر الأمير سليم آل القعيطى وحاكم المكلا أو محافظها ، فقد أحاطوها بكل عناية واهتمام وأطلعوها على مايهمها الاطلاع عليه سواء فى الحكومة أو فى القصور والأكواخ ومصايد الأسماك واللؤلؤ ودور التعليم (وهى نوع من الكتاتيب) أو فى الأسواق ، فإن حياة أهل المكلا

محصورة بين القصر والشارع الأعظم وهو شارع مزدحم فى موازاة الشاطىء كأنه (كورنيش) لا تمل العين النظر إليه كما لو كان (برتسيكتيف نفيسكى) وهو أشهر شارع فى بطرسبرج لعهد القياصرة وكان مشهورا بفخامته وجماله وثروته وأشبه الطرق « بالبولفار ديزاتياليان » بباريس « وبيكاديلى سيركس » بلندن وشارع شريف باشا أو شارع محطة الرمل بالاسكندرية (مع حفظ النسبة والقياس) .

وإنه لأمر عجيب ، أن نرى هذا التشبيه ولكن اللذة التى تستنطبها المؤلفة من مناظر شوارع المكلا راجعة إلى إحساسها ومقدار ماتفيده من المعلومات الاجتماعية والإنسانية من رؤية عالم غير عوالمها التى تراها وراء البحرين الأحمر والأبيض .

وبعد أن طافت بالمكلا وأقامت بها ووصفت حكومتها وديوانها وقارنت بين القصور الشامخة فيها وبين حياة الفقراء من العرب السود وبين السادة الحضارمة الذين بنوا قصوراً ضخمة فخمة بالأموال التى جلبوها من جاوه والهند الشرقية ، نراها تطوف ببلدة شبوا وتصفها بأنها مدينة أحلامها ورغباتها ، ثم شبيام وقطان وتريم ، وتصف سياحتها بالسيارة والطائرة .

وتعجب بأسواق الخيل وتطلب اليهم أن ترى سوق الرقيق لتغذى غريزة الاستطلاع الكامنة المكبوتة فى ذهنها القوى ، ثم تسهب فى وصف الجمال والحياة والزواج وحياة البحر والصيد والأمراض التى تصيب القادمين وهى أنواع من حميات الشواطىء لا علاج لها ولا شفاء منها إلا بالصبر والكينا والكى أحياناً ، ولكن السيدة فراياستارك لا تحتمل النار.

وهى تصف أخلاق الرجال والزعماء فتلمح الى طريقة وقوفها على نفسياتهم ، فلا تسألهم مباشرة ولكنها تتركهم يتكلمون ، ولايخفى عليها ذكاؤهم الخارق فهم يعلمون غايتها من أسفارها ولكنهم لايشعرونها بمعرفتهم بل يظهرون لها الطاعة والخضوع ويتكلمون عن سادتها من بنى جنسها بعبارات التبجيل والتكريم ولايخفون عنها سهولة انطوائهم وتطبعهم وميولهم للمشاركة والمحالفة والائتلاف . ومن أمثالهم « اللبيب من دار » وهم شعراء بالفطرة وأدباء وحكماء ووصوليون ، وينتهزون الفرص ولا يدعونها تفر من أيديهم وسادتهم أحبابهم ولا عقل لمن يعارض حبيبه ولو ظلمه !

هذا ما استطعنا تلخيصه بعد النظرة الأولى فى هذا الكتاب الطريف .

(٤٦) الدكتور زكى على

الإسلام فى العالم(*)

لم يحمل إلى البريد ، فى هذه الحقبة من الزمن ، رسالة أشد أثراً فى نفسى ، وأقوى وقعاً على مشاعرى من الرسالة المسجلة التى وصلت إلى ، فإذا بها تنطوى على مكتوب مخطوط بقلم المؤلف وكتاب ضخم باللغة الإنجليزية من تأليفه[1] .

وقد تحريت البحث عن شخصية المؤلف الفذة ، فإذا هى غير شخصية الطبيب الذى يحمل اسماً قريب الشبه باسمه وكانت له صلة بجريدة المؤيد وسياسة فرنسا فى المغرب الأقصى منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، فإن الدكتور زكى على مؤلف كتاب « الإسلام فى العالم » الذى نحن بصدده دكتور فى الطب فى أواسط العقد الرابع ، أصله من مديرية الشرقية ، ولايزال والده على قيد الحياة وله أسرة معروفة وقد تخرج من كلية الطب وسافر الى أوروبا فى بعثة علمية وأتقن الإنجليزية والفرنسية والألمانية واشتغل بالطب والتاريخ والسياسة ، وهو ذو شخصية معروفة

(*) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١٠٠ ، ص ١١ - ١٢ ، فى ١٨/٥/١٩٣٨ .

(1) Islam in the world, Dr. Zaki Ali, 1938 Lahore India Shaikh Muhamad Ashraf . .

محبوبة ومقدورة حق قدرها في أوساط العلم والسياسة ، كما أنه معروف في فينا وجنيف ولندن معرفة جيدة ، وقد ندبته محطات الإذاعة الأوربية للخطابة في موضوعات إسلامية وشرقية باللغات الألمانية والفرنسية . وشهرته في الطب لاتقل عن شهرته السياسية والأدبية ، وقد دل بكتابه عن الإسلام على قدرة في التأليف بالإنجليزية بدرجة أسلوبه العربي الرائع .

أما الكتاب فمن القطع الوسط ويقع في ثلاثين وأربعمائة صفحة مطبوعة على ورق جيد جداً بأحرف واضحة ومجلد تجليداً حسناً للغاية وهو لايقل في مجموع إخراجه عن أتقن الكتب طبعاً وتجليداً مما تنتجه دور الطبع والنشر في إنجلترا ، مع أنه مطبوع في لاهور بالهند بعناية حضرة الشيخ محمد أشرف . ولاهور مركز الحركة الفكرية الإسلامية في مقاطعة بنجاب ، أكسبها مجدها وعظمتها في هذا العهد جهاد المغفور له بطل الإسلام سير محمد إقبال .

أما الكتاب نفسه فقد قسمه مؤلفه الى ثلاثة عشر فصلا وملحقاً به إحصاء المسلمين في أنحاء العالم وبيان بالمراجع التي ارتكن إليها في الاستشهاد ، جمعت مائة وثمانين كتابا من أمهات الكتب التي ألفت عن الإسلام والشرق والعروبة في جميع اللغات الحية . وقد ورد ذكرها جميعاً

فى المتون ، فلا سبيل الى الشك فى أنها ذكرت أو نمقت من قبيل المبالغة أو المفاخرة . ولا ينقص الكتاب إلا فهرستاً بحروف المعجم . وقد اعتذر المؤلف عن ذلك النقص بقوله « كما أرجو أن تلاحظوا أن عدم وجود فهرس أبجدى Index بالكتاب (على الرغم من أهميته وضرورة وجوده) راجع الى أن الناشر بالهند لم يجد فى لاهور من يستطيع القيام بتحضيره كما أن وجودى فى أوربا بينما الكتاب يطبع فى الهند جعل القيام بعمل هذا الفهرس هنا متعسراً أو متعذراً خوفاً من ضياع الوقت ، على أنه فى الطبعة القادمة سأقوم على تحضير هذا الفهرس إن شاء الله» .

والكتاب فى قسمين ، الأول ينطوى على تسعة فصول شائقة جذابة ، الفصل الأول منها فى سيرة الرسول بإيجاز من أوثق المراجع العربية والغربية ، والثانى فى الإسلام بوصفه ديناً ونظاماً اجتماعياً والثالث فى القرآن والشريعة الإسلامية والرابع فى السياسة الإسلامية والخامس فى الخلافة والسادس فى الحضارة الإسلامية والسابع فى انتشار الإسلام واتساع نفوذه والثامن فى تطور الإسلام والتاسع فى الإسلام والغرب . والقسم الثانى يشمل أربعة فصول من العاشر الى الثالث عشر ، فالعاشر فى نهضة الإسلام فى العصر الحاضر والحادى عشر فى تحرير الإسلام والثانى عشر فى الإسلام والسياسة الدولية والثالث عشر هو الإسلام فى

العالم وهو نفس عنوان الكتاب ، فكأن الفصل الأخير خلاصة للفصول السابقة .

وفى نظرنا أن الفصلين السادس والثالث عشر هما أهم مافى الكتاب بدون انتقاص من قدر الفصول والبحوث الأخرى التى دلت على غيرة المؤلف وسعة علمه وشدة إيمانه بمستقبل هذه العقيدة التى صحبتها حضارة هى أرقى الحضارات القديمة والحديثة فى الشرق والغرب . فإن المؤلف يشع ناراً ونوراً فى سبيل نصرة هذا الدين وسعة انتشاره والتبشير به لصالح الإنسانية وقد وهبه الله جلداً وصبراً وقدرة فائقة على تحمل المشقات لاتكون إلا للهداة والمرشدين ، إلى جانب تفكير قوى وأسلوب غنى ، وفكر منظم وإرادة نافذة قاهرة . فلم يضع كاتب حديث ولا قديم بلغة غير لغته كتابا على النمط العالى كما صنع الدكتور زكى على نزيل جنيف وخادم العلم والوطن والملة . فهو يمتاز قبل كل شىء بالصدق والأمانة فى النقل كما يظهر ذلك جليا فى الفصلين اللذين عقدهما لحضارة الإسلام ولتوسع الإسلام أو امتداد نفوذه ، ويمتاز بخلة ثانية نفيسة وهى قدرته على سرعة الإلمام بحقائق العلم ووقائع التاريخ وسهولة اهتضامها وصياغتها فى أفضل قالب وأبلغه وأوضحه .

وقد سبق له أن كتب عن الطب فى الإسلام وذكر من نبغوا من أطباء العرب فى مصر والشام والعراق والأندلس وعواصمها القاهرة ودمشق وبغداد وقرطبة وطليطلة ، ولم تكن مراجع الطبيب المؤلف مقصورة على ما كتبه العرب أمثال ابن أبى أصيبعة والقفطى (جمال الدين) فى معاجم العلماء (عيون الأنباء ... إلخ) ولكنه رجع الى مدونات مخطوطة ومحفوظة فى مكاتب أكسفورد وباريس ومارسيليا ومدريد وسالرنو وفيرنزه وغيرها من مراكز الحضارة التى أفادت من علوم العرب فى القرون الوسطى ، وذكر أن كثيرين من علماء أوربا سواء فى انجلترا أو فى إيطاليا وفرنسا تركوا أوطانهم وهاجروا الى الأندلس ليتعلموا اللغة العربية ويحذقوا علوم العرب التى كانت شائعة كالطب والرياضيات والكيميا واللوغاريتم (وأصل اسمه نسبه الى الخوارزمى) . ولم يهمل الاستقاء من مصادر قديمة محترمة مثل لويس فياردوت وكوسان دى برسيفال وسدليو .

فمن العلماء الإفرنج الذين نزحوا الى بلاد الأندلس ليتعلموا على العرب بتروس الفونسى (١٠٦٢) فتخرج فى الطب على أيدى العرب وعاد الى انجلترا فعينه الملك هنرى الأول طبيبا له ثم تلاه اديلارد الحمامى (نسبة الى مدينة Bath فى انجلترا التى يعيش فيها النجاشى

هيلاسلاسى الآن) ثم هاجر من إنجلترا الى قرطبة ميخائيل سكوت وروجر باكون (من ١١٧٥ ـ ١٢٣٢ ومن ١٢١٤ ـ ١٢٩٤) وهما من أكبر علماء الغرب ، والفضل فى علمهما راجع إلى العرب الذين علموهما فى مدارس الأندلس فتخرج سكوت فى جوامع طليطلة فى الفلسفة العربية والطب والرياضيات والطبيعة والفلك ، أما روجر باكون فصار عالما كونيا كحملة دوائر المعارف وله شهرة عامة . ثم تلاهما روبرت أوف إنجلاند (١١٤٣) أول من نقل القرآن من العربى الى الإنجليزى ودنيال مورلى وألبرت ماجنوس وفنسنت بوفيه وقد عولا فى كتبهما على مؤلفات جابر بن حيان .

وأغرب طالب أوربى ورد سجلات المعاهد العلمية العربية فى الأندلس جيربرت أوف أورليلاك (٩٣٠ ـ ١٠٠٣) وقد صار فيما بعد رئيس العالم المسيحى لأنه انتخب بابا باسم سيلفستر الثانى سنة ٩٩٩ فقد سافر هذا الرجل من القاهرة واخترق جبال البيرنيه الى طليطلة ليحصل من مدارس العرب على العلوم التى كانت مفقودة فى أوروبا القوطية . فارتشف من تلك المناهل ماشاء له الشوق والقدرة على التحصيل ثم عاد الى وطنه فرنسا فنشر فيها ماكسبه من علوم العرب في الطب والعلوم وألقى دروساً

بنجاح عظيم فى مدينة Rheims (رايمس التى دمرت فى الحرب) وقد قيل عنه بحق إنه بفضل ماحصل من علوم العرب هيأ نهضة إحياء العلوم فى القرن الحادى عشر فى الدين والأدب والعلم ، فنقل العلم العربى من الأندلس الي فرنسا وألمانيا وإيطاليا عندما صار بابا وزعيما للكنيسة الكاثوليكية وهو الذى نقل إلى أوروبا عن العرب الأرقام الحسابية المعروفة الى الآن بإسم الأرقام العربية وهى ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ إلى ٩ .

وفى سنة ١١٣٠ أسست أكاديمية الترجمة فى طليطلة لنقل العلوم العربية الى اللغات الإفرنجية ومن دعائمها الأسقف رايموند ، وكانت اللاتينية هى أهم اللغات التى نقلت إليها تلك العلوم . فكان نجاح الترجمة عظيما جداً حتى قيل إن عالما جديداً فتح فى وجه الغرب ، وأشهر المترجمين جيرار دى كريمونا (١١١٤- ١١٨٧) فقد نقل ٧١ كتاباً فى الطب والرياضة والفلك والكيميا والطبيعة والفلسفة وطبقات الأرض .

وأول جامعة أوروبية أسست فى القرن الثالث عشر أنشئت فى سالرنو حيث كانت كلية الطب العربية ، فهى إذن نواة الجامعات الأوروبية، ويوجد فى كلية باريس عن سنة ١٣٩٥ قائمة بأسماء اثنى عشر مؤلفاً عربياً فى الطب ، ولما كان لويس الخامس عشر شديد الحرص على صحته

فقد طلب أن تكون فى مكتبته مؤلفات الرازى ولم يكن منها سوى نسخة واحدة مخطوطة فاستعارها من كلية باريس بضمان قوى ليتمكن أطباؤه من الرجوع إليها كلما أصابه مرض ، وترجع شهرة مونبلييه الى أن مكتبتها كانت تحوى أعظم مجموعة من المؤلفات العربية ففاقت بذلك مكاتب العواصم حتى باريس نفسها .

إن الدكتور زكى على مؤلف كتاب الإسلام فى العالم ، لم يرم الى تمجيد الإسلام وحسب ، بل رمى الى حل مشاكله المعاصرة . فقد شرح النضال الحامى بين الغرب والشرق فى فصل ممتع ألم فيه بكل مايهم العرب أن يعرفوه عن تاريخ النزاع بينهم وبين أوروبا المجتاحة الغاصبة . وفى الحق أن هذا النضال من أغرب حوادث التاريخ الحديث . فإن آسيا وافريقية إذا صح التشبيه تزاوجا وأنتجا فتاة طائشة قاسية هى أوروبا ، تلك القارة الغشوم الطامعة التى قابلت والديها بنكران الجميل والجحود المطلق ، فهذه آسيا قد قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العريقة فى المجد والقدم كالحضارة الأكادية والشمرية والبابلية والآشورية واليمنية ، والهندية والصينية ، كما قدمت للإنسانية جميع الأديان المشهورة كالبوذية والبرهمية واليهودية والنصرانية والإسلام . وأبرزت آسيا العلوم والفنون

والآداب » وأنبتت الشعوب القوية المثقفة ، واللغات البليغة (كالفرس والهنود) ، وفى إفريقية قامت حضارة بنت سائر الحضارات وديانة حيرت عقول العلماء وهى الحضارة المصرية والمعتقدات الفرعونية ، وفى تلك الهياكل الضخمة ذات الأعمدة التى لايرتد البصر عنها إلا وهو كليل وحسير ، وحيث كان الكهنة يحتفظون بأسرار الخليقة ويطالعون علومهم فى كواغد ملفوفة من البردى ، فى هذه الهياكل فى هليوبوليس وصان الحجر ودام - ن - هور (دمنهور الحالية) وطيبة ، ورد إبراهيم الخليل ، وموسى ويوسف وأيوب وعيسى بن مريم . ولم يظهر نبى لم يقض فترة فى وادى النيل ماعدا محمداً بن عبدالله . وقد كانت لكل منهم مكانة وأثر فى الدولة . ولم تظهر رسالتهم إلا بعد خروجهم من وادى النيل ، ماعدا يوسف الذى جلب قومه الى وادى النيل .

فهذه إفريقية وفضلها على العالم وهى التى اجتاحتها أوروبا ووصفتها بأنها القارة السوداء واقتسمتها فيما بينها كالغنيمة الباردة من أوائل القرن الماضى الى منتصف هذا القرن . وكان أعظم الكيد والغيظ والغل والحقد الذى يغلى فى صدور أوروبا هو ما أفرغته ضد العرب والإسلام منذ الحروب الصليبية الى وقتنا هذا . ولم تنج الوثنية من أيديهم فى آسيا . وقد ساعدهم ما اعتقدوه فى البوذيين والبراهمة وأتباع

كنفوشيوس من البساطة وسلامة النية . هذا كان جزاء آسيا وإفريقية من بنتهما أوروبا « الشقراء » اللعوب التى ورثت العلم وطبقته شر تطبيق ، لجلب الدمار والهلاك والفوضى باسم الحضارة . هذا هو الأثر الذى يبقى فى ذهن المؤرخ الذى يتتبع سير الحوادث فى القرنين الماضيين وهذا ما يحاول المؤلفون المنصفون فى الغرب والموتورون فى الشرق أن يثبتوه ويظهروه للشعوب المخنوقة الجاهلة على ضفاف الأنهار لعل أصوات النذر تصل اليهم وتنبههم وتيقظهم ٠

وإننا نثنى على الدكتور زكى على مؤلف كتاب الإسلام فى العالم لأنه أضاف الى الأدب العالمى والبحث التاريخى ثروة جديدة بهذا الكتاب النادر الثمين ٠

والذى علمناه من سيرة المؤلف يدلنا على أنه سافر من مصر لسبع سنين خلت فى بعثة طبية حكومية ، بعد أن تخرج من كلية القصر العينى ومارس صنعته فى المستشفى الملحق بها ، ولم يدر بخلده إذ ذاك أن طوارىء الحدثان ستطوح به فى تيارات غريبة عن مهنته وقد استغرقت فكره وعلمه ووقته ومواهبه وحولت خطة حياته من العلم والعمل الطبى الى الجهاد العلمى والسياسى فى سبيل الإسلام والمسلمين ، حتى

ذهب ماله ونضب معين ثروته ، دون أن يفكر فى الاستفادة من جهوده المخلصة للحق ، معانياً فى تلك السبيل مرارة العيش وآلام الاغتراب كالشهداء والمهاجرين الأوائل ، الذين لولاهم لما قامت للمعتقدات الكبرى قائمة .

لقد وجد أوروبا جاهلة شؤون الإسلام الجهل كله ، كما وجد علاقة الغرب بالحضارة العربية « حالة مرضية مزمنة تحتاج إلى أشد عناية وأدق علاج[1]» فانقطع الى البحث والدرس فكانت نتيجة درسه وفحصه ذلك الكتاب الثمين . وقد قصد به الى غرضين : الأول - تصوير الإسلام على حقيقته منذ بزوغ نوره . والثانى تطوره وبلوغه الحال الحاضرة التى واجه فيها دول أوروبا وشعوبها وصمد فى المعارك الطويلة الأليمة التى أرغمته أوروبا على أن يخوض غمارها وخرج من معظمها فائزاً منتصراً . فليس الإسلام دين تعصب ولا جهل وليس فى نهوض الإسلام خطر يتهدد الحضارة الأوروبية التى هى وليدته فى كثير من المناحى كما أثبت أكابر علماء الغرب أنفسهم أمثال كوصان دى برسيفال وسدليوت وجوستاف لى بون وجولدزيهر و . ج . هـ . ولز وعشرات غيرهم . فهذا الكتاب الذى تعب فيه زكى على ، غايته التنوير والتعاون وإحلال المصالحة والوئام محل

---

(١) فى هذا التعبير الذى كتبه المؤلف تنويه طريف بمهنته وهو بليغ جدا فى الإنجليزية .

المقاومة والخصام . وأن الإسلام المنتشر فى آسيا وافريقية قد بدأ ينتشر فى أوروبا وأمريكا واستراليا وقد يصير فى وقت قريب قوة لا يستهان بها فوجب إذن أن يحسب له حساب ، ويؤخذ بيده ويبر ليعود بالخير على أتباعه وأصدقائه ، وأن عمل الدكتور زكى على لعمل جليل مبرور ، يدل على العلم والفضل والإخلاص والتضحية وبعد النظر وإن كل محب للإسلام ليرجو لصوته ارتفاعاً ، ولكتابه نجاحاً ورواجاً وللمسلمين من ورائه انتفاعاً ومتاعاً والغيوم المظلمة السوداء التى حطت على جوه زوالا وانقشاعاً ، ونحث المسلمين وغيرهم على اقتناء هذا الكتاب ودرسه والعمل بما جاء فيه.

(٤٧) ويليام پور

تعدد الأزواج والزوجات فى التاريخ (*)

صدر فى أميركا (جمهورية الولايات المتحدة) كتاب اجتماعى حديث من وضع العلامة ويليام پور موضوعه « تعدد الأزواج والزوجات فى

(*) مقال بعنوان « وجوب التشريع لتقييد تعدد الزوجات فى مصر - كتاب جديد يصدر فى أميركا عن تعدد الزوجات » ، نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١١٠ ، فى ١٩٣٨/٧/٢٧.

التاريخ « "Polyandry and Polygamy"والكلمتان من الإغريقية بهذا المعنى نفسه . وقد يدهش قارىء العربية من « تعدد الأزواج » ولكنه دور مر بجميع الأمم فى عهد الماترياركا أو سيادة الأم عندما كان للمرأة الكلمة النافذة فى الحياة المنزلية والحياة الاجتماعية وهو الدور الذى حل بعده دور الباترياركا أو سيادة الوالد (الرجل) فكانت المرأة تلد لجملة رجال من قبيلة واحدة أو أسرة واحدة كأن يكونون إخوته أو أبناء عمومته . وقد كان هذا الأمر الذى تراه الآن شاذا ، سائدا فى جزيرة العرب نفسها حيث كان الرجل يضع حربته ورمحه أو علمه على باب الخيمة التى تقطنها المرأة . وكانت المرأة تتزوج وتلد وتربى أولادها من جملة رجال ويحمل الأطفال اسم أمهم دون اسم الوالد ويرث الأولاد أمهم وأقاربهم من ناحية الأم ، ولايزال أثر ذلك فى الأدب العربى كقولهم « أبناء العواتك والفواطم » اسمى عاتكة وفاطمة ، ويفتخرون بالخال دون العم وفى أمثال العوام « الولد لخاله » أى يرث صفاته لأنه من ناحية الأم . وصارت المرأة تتزوج بعد ذلك من رجل واحد ولكنها محتفظة بالسيادة المطلقة .

وفى كتاب تاريخ القانون المقارن لوستمارك[1] عن قبائل الشمال الألمانية التيوتونية أن المرأة إذا جاءها المخاض تختبىء ويظهر زوجها

---

(١) Westmark.

راقداً فى الفراش، ويتظاهر بأوجاع النفاس كأنه هو الذى ولد ويهنئه الناس بأن الله أنقذه من آلام الوضع وعواقبه ، للتدليل على أنه هو الذى تحمل العبء رمزاً على خضوعه واستسلامه . ثم جاء دور سيادة الرجل فصار يبنى بالمرأة الواحدة وقد تحرر قليلا من قيود العبودية ، ثم جاء عهد الاستبداد الرجالى فصار الرجل ينكح النساء مثنى وثلاث ورباع ويتسرى بمن يطيب له مما ملكت يمينه بالسبي أو بالاسترقاق ... إلخ « وما ملكت أيمانكم » .

وقد قال المؤلف « إن حكومة الولايات المتحدة بوصفها دولة متحضرة ودولة مسيحية تمقت تعدد الزوجات وتعاقب عليه وتسميه Bigamy ونلاحظ أن الكلمة معناها التزوج من اثنتين فقط فإن مقطع Bi يدل على المثنى كقولهم فى اسم الدراجة والنظارة الزجاجية والعقود من طرفين : Binocle, Bicyclette, Billatteral حتى أن الأمريكان لا يتخيلون الجمع بين أكثر من امرأتين فى حين أن الأقدمين استعملوا مقطع Poly ومعناه الكثرة .

ويقول المؤلف إن « البيجامى » جريمة يعاقب عليها القانون بعقوبة الجناية وإن كل داخل الى الولايات المتحدة سواء أكان سائحاً أو مهاجراً يجب عليه أن يجيب على أسئلة كثيرة منها :

- هل تؤمن بشريعة تعدد الزوجات ؟

فإن أجاب بنعم حرموا عليه الدخول وإن أجاب نفياً سمحوا له به .

يقول المؤلف « ولكن فى عصرنا هذا تعيش أمم شرقية كثيرة ، وكثير من الأمم المتوحشة (كذا) على هذا النظام الشاذ وقد يكون الزوج معدما أو شيخا فانيا وعاجزا عن حياة الزوجية أو التناسل أو عن السعى على رزق أسرة كبيرة ولكنه يبنى ببضع نساء ، فحينا يستغلهن فى أعمال الزراعة والصناعات والكسب ، وحيناً يتركهن بالجوع والعرى والفاقة ، وهذه البلاد التى وصل الزواج فيها الى هذا الدرك من الانحطاط ، ونزلت قيمة المرأة لايمكن أن تكوّن مجتمعاً جديراً بالاحترام » .

وهذا الكلام قد ينطبق مع شىء من التعديل على حالة طبقة كبيرة من مصر . فإن هذه الأمور مشاهدة خصوصاً فى العمال والزراع ، وإن كانت قلت قلة واضحة فى الطبقات الراقية ، لثقل أعباء الحياة المادية وكثرة حاجات الأسرة . وقال الكاتب « نعم لا ننكر أن الرجل مخلوق قابل لتعدد الزوجات للأسباب الآتية :

(١) العلاقة الجنسية مع امرأة لاتترك فيه أثراً كالأثر الذى تتركه فى المرأة كالحمل .

(٢) المرأة أشد حاجة للرجل لأداء وظيفتها الطبيعية وهى الأمومة واقتصاديا لنفقات معيشتها ولعجزها عن مزاحمته .

(٣) أن المرأة قد تكون ممنوعة من الرجل فى أيام الاعتكاف بعد الحمل والحيض والأوجاع المختلفة .

ولأجل هذا نجد كثيراً من رجال الطبقة الوسطى والطبقة العالية يتسرون ويعاشرون نسوة من طبقة أقل من طبقتهن ويخفون علاقتهم بهن ، ويحاولون منع النسل بوسائل شتى ، فإذا فشلوا لجأوا الى الإجهاض ، فإذا فلت مولود كان طفلا غير شرعى محروما من نصيبه فى تركة أبيه .

ولما كان العنصر الاقتصادى قد استفحل فى الحياة العصرية فأصبح واجباً أن يكون فى الصف الأول » أ. هـ .

ونحن فى مصر نبيح تعدد الزوجات وإن كان فى القرآن نص يجعله مستحيلا « فإن خفتم أن لاتعدلوا فواحدة » « وإن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » .

فلا يضيرنا شيء فى ضوء التطورات الحديثة مثل تحديد سن الزواج ، وإضعاف عقود الزواج العرفية أن نسعى فى سن تشريع يحظر الزواج الثانى بدون إذن القاضى الذى يعطى له حق التقدير وسماع أقوال الطرفين وتعيين الخبراء الطبيين وغيرهم وفحص الحالة الاقتصادية والصحية والاجتماعية للزوج الذى يريد أن يطلق أو يجمع بين امرأتين ويصح جعل مجلس القضاء لهذه الأحوال مؤلفاً من قاض شرعى وآخر أهلى ومحام .

وغير خاف أن الإسلام بطبيعته دين تيسير لا تعسير ، وأنه قابل لكل جديد مادام فيه إصلاح . فإن تعدد الزوجات قد خرب بيوتاً كثيرة وله عواقب وذيول لاتنقطع منها التناحر بين أولاد الرجل الواحد من زوجتين أو ثلاث وتوزيع ثروة التركة حتى تصير غير صالحة فتبدد ، وتجعل الورثة فقراء كالمستحقين الذين يوزع بينهم ريع الوقف وما يزال على قيمته والأخلاف والأنسال يتضاعفون ٠

وعلى كل حال فإن هذا الأمر يقتضى البحث والمناقشة والمداولة فى لجنة تشريعية مؤلفة من رجال الشرع الشريف ورجال القوانين وبعض الرجال الممتازين فى البحوث الاجتماعية والاقتصادية ٠

ولا بأس من نشر المناقشات حتى يفتح باب لإبداء رأى الجمهور فتكون النتيجة مقبولة لدى الخاص والعام . وفى الواقع أن كل العقلاء لا سيما المتعلمين منهم يفكرون فى وجوب هذا التشريع ولكنهم لايجرؤون على التصريح بأفكارهم خشية الانتقاد أو التفنيد . ولكن هذا الخاطر وهم محض ولا يخشى المصلح من أخطار النقد الجارح وهذه الرغبة موجودة فى النفوس ولكنها مكبوتة . وقد اقترح أحد رجال التشريع أن يكون القانون اذا صدر وجيزاً جداً لاينطوى إلا على اشتراط إذن القاضى لتكون سلطته واسعة النطاق . أما التقرير الذى تقدمه اللجنة والمذكرة

التفسيرية فهما اللذان يجب أن يكون بحثهما مستفيضا مشبعا محتويا سائر عناصر الإقناع .

(٤٨) هيوج باترسون

لماذا تتضاعف الجرائم الجنسية(*)

قال لى أحد رجال الأمن « منذ أصبح قيد الجرائم ضد مجهول أمراً معلوما لدى المجرمين ، أصبحوا لايهابون القانون ولايرعون للمحاكم هيبة، وهم لو علموا أن كل جريمة يعاقب فاعلها الذى يبحث عنه ويهتدى اليه ، ويقبض عليه حتما ، لكان لهم قبل اقترافها شأن آخر » .

وهذا الموضوع ذكرنى بكتاب جديد صدر فى أمريكا بقلم أحد القضاة « هيوج باترسون قاضى نابراسكا » فقد هالته زيادة الجرائم الجنسية والقتل وغيرها زيادة فظيعة ، وقد ترجم كتابه الى اللغة الفرنسية باسم Pourquoi les crimes de la sexualité se multiplent ? أى لماذا تتضاعف الجرائم الجنسية ؟

(*) مقال بعنوان « تخفيف العقوبات سبب فى انتشار الجرائم » نشر بمجلة الرابطة العربية، العدد ١١٢ ، فى ١٩٣٨/٨/١٠ .

وقبل أن يخوض البحث الجديد ، عرض بعض الجرائم وعقوباتها فى العصور القديمة فى مختلف الممالك ، قال « كان أهل أثينا ينزعون شعر الزانية ويرشون على جلد رأسها رماداً ساخنا ليزيدوها ألما ، ويبيحون عرضها للمارة ، ومن قذفها أو سبها فلا عقاب عليه ، ونص دراكون «صاحب الشريعة المعروفة باسمه والموصوفة بالشدة » على وجوب إعدامها، وخفف صولون العقوبة واستبدل الحبس بها ، بشرط أن تحرم من دخول المعابد للصلاة والتحلى بالجواهر والمعادن النفيسة والعودة الى زوجها تائبة ، ولكل إنسان أن يطردها من داره أو يضربها دون القتل . واقتفى الرومان أثر اليونان وأضافوا عقوبة الغرامة التى قد تصل إلى مصادرة نصف أموال المرأة الغنية ، وحكم أحد الأباطرة بجدع الأنف ، وجعل آخر للزوج وحده أو بمعونة المحكمة المنزلية « مجلس عائلى » حق الحكم بالموت أو بالسجن أو بالغرامة . أما الأمبراطور ليون فقد أباح للزوج وللوالد والصهر أن يقتل شريك زوجته أو ابنته أو كنته « حسب الحال » بشرط أن يقتل الزوجة أو البنت أو الكنة مع الشريك وذلك خوفا من أن يتخذ هذا الحق وسيلة للانتقام من الأعداء بطريقة الاستدراج ، ولكن قتل المرأة وشريكها ينفى هذه التهمة . أما برابرة الفيزقوطيين ، فقد حكموا بأن تسلم الزانية العزباء أو المترملة الى زوجة الزانى معها لتعاقبها

بنفسها . وفى فرنسا كان الملك داجوبير[1] متساهلا ، ففى سنة ٦٣٠ سن قانونا يسمح للزوج المنكوب فى عرضه أن يتقاضى من غريمه غرامة قدرها ١٦٠ ريالا ، بطريقة ودية . وقضى أحد فراعنة مصر بأن من يقبض عليه متلبساً بجريمة الزنى يساق الى الساحة العامة ويعاقب بأن تفقأ عيناه بسيفين حادين ، ثم يرد إلى أهله .

وكانت معظم الجرائم كالقتل والسرقة بالإكراه والتزوير وتزييف النقود يعاقب فاعلها بالإعدام أو السجن المؤبد . وفى القرون الوسطى صارت الجرائم ضد الكنيسة وضد المعتقدات معاقبا عليها بعقوبات قاسية، ولاسيما الإلحاد والهرطقة ، والزندقة . فقد ألقى بجاليله من حالق لأنه قال بدوران الكرة الأرضية ، وأعدم العالم ميشيل سيرفيه لأنه سبق علماء الدنيا فى اكتشاف الدورة الدموية . وفى البلاد المغتصبة والمغلوبة على أمرها بحاكم ظالم كالمستعمرات والبلاد التى أخذت ظلماً تجعل أكبر الجرائم ماكان موجها ضد سلطة المغتصب أو المستعمر أو سلطة الحكم القائم . فسلامة الدولة هى الغاية العليا التى يرمى الشارع لحمايتها ، وفى الوقت نفسه تراهم يخففون العقوبات على كل الجرائم الأخر ، كالسرقة والنصب والاحتيال والإفلاس بالتدليس وهتك العرض والأفعال الفاضحة ،

Le bon Roi Dagobert . (١)

لأن الظالم أو المستبد يرمى دائما الى حماية سلطته ويعمل على إفساد أخلاق الأمة المحكومة لتزداد قبضته عليها شدة . والمشاهد فى جمهوريتنا « الولايات المتحدة» أننا منذ أصبحنا لانخشى على سلامة الدولة ، تساهلنا فى كل الجرائم ولا سيما ما وضعه مجلس السناتو من العقوبات الخفيفة وماسنه الكونجرس من القوانين الرحيمة بالمدلسين والغشاشين والمحتالين من الغرباء وأبناء البلاد الذين يكومون الثروات الضخمة على حساب الفقراء ، وهذا هو التشريع الخاطىء وقد أدى الى انتشار الجرائم وتشجيع الجناة حتى أنهم اتخذوا وسائل جهنمية فى سبيل كسب المال وأخذوا يكافحون حماة الأمن بأسلحة أقوى من أسحلتهم . وماعلينا إلا أن نذكر قضايا كراوشى بيل الذى زيف أوراق البنكنوت بالملايين ، وآل كاريونى وزايرا أوزالد التى تتجر فى الرقيق الأبيض والمخدرات وكادت تقبض على زمام البوليس والحكومة والعدل فى بعض الولايات .

أما جريمة اللينش وهى صلب السود وتمزيق أبدانهم والتمثيل بهم لأن واحداً منهم افترس امرأة بيضاء فهى تدل على الوحشية المطلقة والقسوة فى غير موضعها . لقد أرغمتنا قضية هويتمان الذى خطف نجل لندبرج وقتله على رفع عقوبة الخطف الى الإعدام ولكن هذا التشديد لم

يقمع أخطارها لأن الجريمة تأصلت فى دماء الأشرار من شعبنا النشيط.

يقول ادجار هوفر « وهو أحد أقارب رئيس الجمهورية السابق » إنه يكاد يجن من كثرة انتشار الجرائم فى الأربع والأربعين ولاية التى تتألف منها الجمهورية المتحدة ، ويقول إن الجنون قد انتشر بسرعة وحب المال وغواية الشهوات وإغراء النساء والعلاقات الشاذة والتطلع الى الثروة والنفوذ ، كل هذه الرذائل سممت الحياة وضيعت الأمن وأزعجت هدوء الرعايا المطمئنين .

ففى شارع العشاق Lovers Road بجوار سنترال بارك فى نيويورك ، وهو أشبه بهايد بارك فى لندن أو غابة بولونيا فى باريس ، قتلت أجمل فتاة فرنسين هاجيك وخاطبها لويس فايس فى سيارتهما التى كانت واقفة في ظلال شجرة كبيرة .. وقد أطلق عليهما الرصاص مجهول . إما منتقم وإما مجنون .

يكفى المرأة الآن أن تعلم أن عقوبة الزنى حبس ستة أشهر أو ثلاثة حتى تستهين بأقوى رابطة بين الرجل والمرأة ، ويكفى القاتل المجهول أن يعلم أنه يستطيع أن يروغ ويزوغ وسط الجماهير المتزاحمة فى مراتع

الغرام ومغانى الهوى حتى يتربص الجناة للأبرياء ويصرعوهم بالرصاص أو الخنجر .

لو كان القاتل المجهول نصيراً للفضيلة أو غيوراً على عفة الفتاة المقتولة لحمدنا له عمله ، ولكنه فى الأغلب مزاحم للخاطب أو عاشق مطرود أو مجنون جنسى أعمت بصيرته الشهوات المحرمة عليه والكبت Refoulment .

إليك هذا الإحصاء العجيب : من أول يناير الى يونيو (١٩٣٧) قد سجلنا فى دفاتر قيد الجرائم ٨٩١ جناية اغتصاب (هتك عرض بالقوة) بمتوسط أربع جنايات فى اليوم الواحد بزيادة عشرة فى المائة على العام الماضى (١٩٣٦) حتى أن جون المان حاكمدار بوليس شيكاجو وعد بجائزة قدرها ألف دولار لكل من يدل على قاتل إيفيلين ممرضة مستشفى الصليب.

وقد دل الإحصاء على أن معظم الجناة بين سن الخامسة والعشرين وسن الثامنة والعشرين وكانوا أطفالا ولدوا فى أثناء الحرب.

يوجد نوعان من التخفيف فى القانون ، الأول تخفيف العقوبة بالنص أى فى أصل التشريع . كأن تعدل العقوبة أو تستبدل أو تنحدر من الأشغال الشاقة الى السجن المصحوب بالشغل . وتخفيف فى التطبيق ،

فللقاضى أن يستعمل الرأفة أو يطبق مواد الظروف المخففة أو يقف التنفيذ، وكذلك يوجد تخفيف فى التنفيذ كأن تكون حياة السجن هينة لينة. وكل هذه الأمور مضرة لا محالة . فالشدة واجبة على كل حال متى ثبتت الجريمة على المتهم وأصبح فى نظر القضاء مذنباً .

لابد من مكافحة الجريمة بكل الوسائل الممكنة ! إن أبناء عمومتنا الإنجليز يبذلون بسخاء فى حماية حياة الرعايا وأعراضهم وأموالهم وقد ينفقون على الشرطة ورجال الأمن والمرشدين والأطباء الشرعيين والقضاة بضعة ملايين من الجنيهات ، أما فى الولايات المتحدة فبعض الذمم تشترى بالمال فى كل الجهات التى ذكرناها ، ويوجد بعض أئمة الشرطة شركاء فى الجرائم التى تقترفها العصابات وبعض القضاة يبعث وسطاءه للمتهمين ومحاميهم جهاراً نهاراً ليساوموهم على أحكام البراءة . وقد فضحت أعمال بعضهم فى كتاب «المحاكم المستعجلة» . وقد بذل روزفلت الرئيس الحالى لحكومتنا جهوداً جبارة وأموالا طائلة ليخلص من الإجرام، ولكن رجال الأموال والنساء الدواعر ومتجرى المخدرات والرقيق الأبيض أقوى من الحكومة ، فيجب الاكتساح ويجب العمل على جعل الجناة الذين يقعون فى يد العدل « عبرة لغيرهم » .

هذا ما أردنا نقله عن هذا الكتاب ، ونعلق عليه بأن انتشار الجريمة

فى مصر لايقل عنه فى الولايات المتحدة مع حفظ النسبة العددية . ففى القاهرة أماكن يلجأ إليها العاشقون المريبون وفيها تحدث جنايات قتل واعتداء تارة من بعض جنود الجيش أو موظفى المصارف أو من الأغراب أو من العاشقين أنفسهم ، وفى القاهرة والقطر المصرى تزداد الجرائم الخلقية وقتل النساء بعد الاعتداء عليهن بقصد استلاب نقودهن أو حليهن، وكذلك تزيف النقود وتصوب المسدسات من السيارات على بعض المار، «جناية مجحفة على أحد القضاة فى القاهرة سنة ١٩٣٧» وعصابات للتهديد واتجار بالمخدرات . وكان فى مصر بعض القضاة الذين اشتهروا بشدتهم وكانوا مبغوضين من الجناة ولكن جانب العدل والأمن كان مرهوباً فى عهدهم . إن المجتمع يكاد يفلت نظامه . وهاهم أولاء العلماء يحشدون قواهم لمحاربة الجريمة .

قال المؤلف الذى نقلنا عنه « إننا استغثنا بكل الأطباء الشرعيين وعلماء النفس والاختصاصيين فى العلوم الجنائية بعد أن قبضنا على ألوف من الرجال فى الحدائق العامة والغابات والحراج وكانوا كلهم يعتدون على الأطفال من الجنسين وعلى العشاق المختلين خلوة صحيحة فى السيارات أو فى ظلال الأشجار اللفاء . وكان أحد الصرعى بداء السادزم يقتل ضحاياه متربصاً فى زى شرطى يطلب رخصة القيادة حتى

اذا خدعهم قتلهم واعتدى عليهم ثم وضع على جباههم علامة وهى دائرة حمراء يرسمها بـ « التون روج » وهو عود الأحمر الذى تصبغ به الشفاه ، ولم نكن نصل الى هذا البلاء لولا التساهل فى التشريع وفى تطبيق مواد القانون » .

(٤٩) جيرالد هيرالد
نبع الحضارة(*)

وضع جيرالد هيرالد كتابا حديثاً اسمه نبع الحضارة The Source of Civilisation وقسمه فصولا عالج فيها تاريخ المدنية الإنسانية . ولايمكن لنا أن نصف مقدار سرورنا لدى العثور بهذا الكتاب الذى وإن كان منطويا على بعض المبالغات عن الإسلام ، التى لاتحتاج الى مجهود كبير فى تفنيدها وردها الى حجمها الحقيقى ، إلا أن مؤلفه يعترف صراحة أن الحرب بين الشرق والغرب لم تكن حرب دين أو عقيدة بل كانت حربا على الحضارة ، فإن أوروبا حتى فى أوقات نكباتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وفى أسود أيام تعصبها على نفسها

(*) مقال بعنوان « من أحدث الكتب عن الشرق والغرب ، ظهور الحضارة العربية وأثرها فى العالم » نشر بمجلة الرابطة العربية العدد ١١٤، فى ١٩٣٨/٨/٢٤ .

وانشقاقها لم تغفل طرفة عين عن الحضارة الشرقية التى بدأت تزدهر فى الشام ومصر وفلسطين وتنتج أعمالا مادية تنفع الحرب والسلم ، فقاومتها فى وطنها وشغلت أصحابها حتى قضت عليهم وعليها باسم العقيدة . والدليل على ذلك أن المؤلف اعترف بإرسال الأوغاد والحثالة والأشرار لاسترداد أرض المسيح المقدسة وهم لاتربطهم بالمسيح أى رابطة.

وفى القسم السادس عشر من هذا الكتاب الذى عنوانه « الغرب يتطلع الى النور » بحث فى الفصل السابع فى أصل الدعوة المحمدية فقال عندما كانت أوروبا فى اضطراب وارتباك وظلام حالك وقنوط مضيق للأنفاس الناشئة عن الجهل فيما يتعلق بعلاقة الطبيعة البشرية بالقوة الروحية ظهرت فى الشرق الأدنى تجربة جديدة غايتها حل مسألة العلاقة بين القيمة والحقيقة .

كان محمد نموذجا للرجل الذى يعيش فى البداوة ويرنو بعينه الى الحضارة فيصل الى علمه ماهو كائن ودائر من شؤون البشر ويشعر بمحاور التفكير فيبادر بذكاء الفطرة الى تناول أعضل المسائل بالحل . وقد علم أن فى كل من النصرانية واليهودية نقطاً ضعيفة وأغلاطاً يمكنه أن يعلم شعبه كيف يتحاشاها ، وقد أدرك هذه المسائل بسرعة الوحى ومفاجآته وقد فطن الى أن اتقاء تلك الأغلاط يعود على أمته بالتقدم

والرقى.

، وقد أوحى إليه بوحي جديد يمكنه من مقاومة عبادة الفتيش فى وطنه ومحاربة الأنانية العبرية واللاهوت الإغريقى المعقد الذى قسم العقيدة المسيحية الى فرق ومذاهب ونحل لا عدد لها . وما هذا الوحى الجديد الذى يسهل له محاربة كل هذه المعايب سوى الإيمان بقوة موحدة محصورة فى ذات « الله » الحكيم المطلق العليم المطلق القادر المطلق الرحيم المطلق . وقد آمن محمد بأن هذه الفكرة الناشئة من هذا الوحى كافية لإقناع العالم وتحويل الإنسانية من ناحية فكرية الى ناحية أخرى . وهذا هو الجزاء الذى يناله المجتمع على يديه .

وقد كانت عقيدة محمد فى صحة وحيه عظيمة الى درجة أنه ظن أن الناس سينضمون اليه بالسلم والملاينة والاقتناع القلبى ، مادام هو يأتى لهم بالنور والحقيقة والأمل ويرفع عن أعينهم قناع الجهالة والظلام . وقد اعتقد أن دينه يخالف القوة على خط مستقيم ، ولذا فهو ليس بحاجة الى القوة لنشر هذه العقيدة بين العرب . وقد صادفت عقيدته هوى فى نفوس بعض مواطنيه الذين تعبوا من عبادة الفتيش وخجلوا من انحطاط دينهم الى ذلك المستوى المادى الذى هو عبادة الأصنام والأحجار والأشجار خصوصاً وأن عقليتهم ارتقت عما كانت عليه عقلية آبائهم ، فكانوا

مستعدين استعداداً نفسانياً لقبول هذا التغيير الذى رأوا فيه تحقيقاً لفكرة الوحدة الإنسانية تحت لواء العدل والرحمة ، وقد جاءهم مواطنهم القدير بهذه الفكرة الدينية المنطوية على الوحى الربانى . فلم يشكوا فى دعوته وقبلوها وحاربوا المحافظين والرجعيين من بنى جنسهم لأجل تحقيق العقيدة ونصرتها .

ولم يمر الأمر بالسهولة التى كانت منتظرة بل اقتضى الاضطهاد والتعذيب قبل أن ينضم الى صفوف محمد عدد كاف من العرب ولا سيما الشرفاء منهم الذين اتخذ منهم بعد ذلك مستشاريه وأصهاره وخلفاءه وقواد جيوشه المظفرة . ولم يقتصر اعتقاد الناس فى صحة الوحى المحمدى على العرب الذين كانوا مزاحمين له ولكن العالم المتحضر كله الذى كان يحيط بجزيرة العرب إحاطة السوار بالمعصم بعد أن شك زمناً طويلاً وناقض النبى وجادله عاد فانضم اليه .

وكان من الطبيعى أن خضوع العالم المتحضر فى الشرق وفى الامبراطورية الزردشتية الفارسية للإسلام يقتضى أن يصير الإسلام معتمداً على السيف فى بقائه واستمرار وجوده .

والقرآن حافل بذكر الفروق بين الخالق والمخلوق . ولا يوجد فيه مايدل على أن الإنسان جدير بأن يكتشف الله فى نفسه وأن خلاصه كائن

فى تحقيق طبيعته التى لو تمكن من الإحاطة بها فيما وراء القيود الضيقة والحواجز الضئيلة لاكتشف أنها تمتد وتتعمق وتطول وتتسع حتى تتصل بالكل الأعلى .

ولكن الله يظهر فى الدين كأنه معين على النصر للمؤمنين وهزيمة الكفار ، وكأنه يهز سيفه ورمحه لمعونة القبائل المعادية لقريش[1] وقد جمع الرسول العربى بين رؤية الملائكة فى موقعة بدر وبين سياحة فى الجنة وما اليها (إشارة الى الإسراء والمعراج) وقد كان هذا السفر المحمدى بالجسم والروح معاً وقد أقام أدلة على ذلك لاسبيل الى نقضها فى نظر المؤمنين .

ولايمكننا التسليم أن الإسلام بعد أن أسس الدول العظمى لم يتأثر بالتصوف الهندى سواء فى بلاد الفرس أو فى الأناضول . فإن قرب الجوار بين تلك الممالك الثلاثة التى عاشت فى ظل الإسلام خليق بأن ينقل العدوى من مكان الى مكان .

لقد تقابل سيف القرآن بسيف الإنجيل وتحاربا فى سيادة الحضارة الغربية ، وقد ظهر لمدة قصيرة أن السيف البتار سيقطع الصليب ولكن شارل مارتيل الكارلوفنج فى مدينة « تور » هزم الهلال أو على الأقل أوقف نموه ولكن قرنى الهلال ضغطا على العالم المسيحى ضغطاً مريعاً . وقد

(١) إنه من الطبيعى أننا ننقل الآراء على علاتها لنعلم القراء بأفكار الكاتب .

هاجت الكنائس المسيحية من بيزنطة الى جبال البيرينيه وأخذت زنابير الصوامع والقسس تطن فى الآذان حتى رمتها بالصمم تحرض على الإسلام ووجوب محاربته . ولكن حظ المسيحية كان موفقا ، فإن الخلافة الإسلامية انشقت على نفسها والإسلام يحاول الاتفاق مع النصرانية كما فعل هارون الرشيد مع شارلمان وبعد قليل تضعف قوة الإسلام ويرغم على الوقوف موقف الدفاع فى فلسطين وإسبانيا ، وقد جاهرت أوروبا بمحاربة الإسلام وقال البابا يونيفاسيو للملك مارتيل إنه لم يكن ينجح فى دعايته لدى السكسون بدون حمايته المسلحة وهكذا لم يكن قاضى الرومان يحمل سيفه عبثا !!

وقد شعرت الكنيسة والدولة من الساعة الأولى للحاجة المطلقة للقوة سواء أكانت القوة مقنعه أو ظاهرة ٠

ومازال تيار العداوة يتقوى ويشتد حتى انتهوا الى فكرة الحروب الصليبية التى كسرت جسر الشرق الأدنى ، وقد حشدت أوروبا كل الجناة والأشرار والعاطلين والحثالة لتستعملهم فى محاربة المسلمين واسترداد الأراضى المقدسة من أيديهم . وهذه الحروب والمغامرات الشهيرة بوحشيتها وقسوتها ومشاغبتها نجحت فى شىء واحد فقط وهو أنها منعت تنمية الفكر العربى والثقافة الإسلامية اللذين كانا منشآن من جديد فى

الشرق ومركزهما دمشق وهذا أعظم انتصار أحرزته المسيحية (راجع ص ٢٤٥ من الكتاب) على الإسلام ، فإنها أوقفت تيار المدنية والحضارة العربية وعطلت نمو الأفكار والعلوم والفنون وقضت على الحضارة الإسلامية وهى فى المهد تقريباً . يدلنا على هذه الحضارة ما لدينا الآن من عينات ونماذج من أشغال الزجاج التى لا مثيل لها مجسمة فى مصابيح القاهرة والنوافذ ذات الزجاج الملون فى قبة الصخرة فى المسجد الأقصى، وأعمال الفسيفساء النادرة الباهرة فى كنيسة يوحنا التى صارت مسجداً فى الشام . وقد علمنا كثيراً عن العلوم الكيمائية التى أدت الى اكتشاف المفرقعات والمحرقات المعروفة باسم النار الإغريقية وهى ذات أثر عظيم فى الحروب قبل اختراع البارود واقتصرت شهرة دمشق على صنعة السيوف .

كل هذه الحركة العقلية والعلمية والفنية قد بدأت فى الشرق بفضل الإسلام فوجب على أوروبا المسيحية أن تقفها عند حدها بكل الوسائل لتعطل نمو المدنية العربية . فقد كانت هذه الثقافة معضدة ومستندة الى ما يماثلها من التفكير الفلسفى وأن الشرق كان يبحث من جديد عن أفكار أعمق من أفكار الغرب .

والآن وقد أمكننا أن نربط بين حركة الجنوستيزم والمانيشانيزم

بصفتهما طورين من أطوار نمو الفكر الروحى فى ظلال « الهلال الخصيب» فى البلاد الممتدة من شرق البحر الأبيض الى الخليج الفارسى، فإن هذه الشكوك تصير حقائق . وهنا أيضا نمت جذور الفكر الذى سيغذى الصوفية عندما تهدى بلاد فارس الى الإسلام قانوناً صارماً غير السيف . هذا الحس الناهض في الشرق قد اكتسحه طوفان الحروب الصليبية . وعندما تباطأت حركة المحارب الصليبى كان العربى قد انتهكت قواه وتعطلت حركة نموه وصعوده إلى العلى .

(٥٠) سير محمد إقبال

محاضرات إعادة بناء التفكير الدينى فى الإسلام(*)

نعى الى الثقافة الإنسانية ، وإلى العالم الاسلامى فى الشرق والغرب فى عشرين إبريل سنة ١٩٣٨ المرحوم السيد محمد إقبال أعظم شعراء الهنود المسلمين ومن أكبر قادة الفكر الحديث فى القرن الرابع عشر الهجرى ، لحق بالرفيق الأعلى فى داره فى لاهور عاصمة بنجاب بعد مرض نفسانى طويل عدا عليه منذ ثلاث سنين ، وقد قضى معظمها فى

(*) مقال بعنوان « سير محمد إقبال شاعر الهند الإسلامية وحكيمها » نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٩٨ ، ص ١١ - ١٢ ، فى ١٩٣٨/٥/٤ .

مخدعه ، بعد أن بح صوته لمرض في صدره وحنجرته فخفت حتى لايكاد يسمعه المخاطب إلا بمشقة زائدة ، وكان لايستطيع اليقظة أو النوم في الأيام الأخيرة دون أن يكون المدفأ في غرفته مشتعلا بنار هادئة ، ظنا منه أن الحرارة الهادئة تعينه على التنفس . بيد أن حياته العقلية لم تهمد ولم تضعف أثناء مرضه . وكان آخر مايفكر في إنتاجه ، سيرة حديثة لرسول الله محمد عليه الصلاة والسلام . ولكن منيته فاجأته قبل أن يخرج للعالم هذه الثمرة الأخيرة لتفكيره ، فلم يفته أجرها ، وإن فاته إنتاجها رحمه الله رحمة واسعة .

كانت شهرة السيد إقبال ذائعة من أواخر القرن التاسع عشر ، في مقدمة أبطال النهضة الإسلامية الحديثة وكان يذكر والمرحوم مولانا محمد في صف ويأتي بعدهما محمد على جنة الزعيم السياسي والدكتور الأنصاري وشافعي داودي وضياء الدين أحمد وغيرهم ، وكانت سياسته معتدلة على خطة شايرو وجاكرلي ، ولكنه كان يخفي التطرف في مكافحة الاحتلال الإنجليزي من قبيل التقية . وكان نفوذه عظيما بدواوين شعره ومؤلفاته الفلسفية وخطبه ومحاضراته ، وكان ينظم بالفارسية ويتكلم ويكتب بأشهر لغات الهند وهي الأوردية والهندوستانية ويتقن الإنجليزية والألمانية لأنه تخرج من جامعات إنجلترا وألمانيا ، ويقرأ العربية ويفهمها

ولكن قليلا ما ينطق بها ويعرف جملا بالفرنسية ، وكان رجلا فى أعلى درجات الثقافة الغربية والشرقية ولا يجاريه فى نفوذه الأدبى والسياسى سوى تاغور وغاندى . وقد فاقه الأخير بكثرة أتباعه من الهنادك ، ولكثرة ما أقام فى سجون الهند ولاشتهاره بالزهد والتنحى عن أعمال الدنيا حتى ممارسة مهنته المحاماة . وكان إقبال من أشهر محامى الهند . ولكن أرباحه من صنعته كانت قليلة لكثرة اشتغاله بالحياة العامة وانصرافه عن المنفعة الخاصة .

وكان أول عهدنا به بالقاهرة فى شتاء سنة ١٩٣١ لدى عودته من مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد فى لندن فى شهر سبتمبر وأكتوبر من تلك السنة ، وهو المؤتمر الذى حضره غاندى وأسفر عن دستور الهند ، فعرج المرحوم على القاهرة فى لفيف من أتباعه ومريديه ولاسيما صاحب جريدة (انقلاب) الهندية التى تصدر فى لاهور بمشاركة الشاعر والحكيم العظيم . فأقيمت له فى القاهرة حفلات تكريم وألقى بعض المحاضرات فى جمعية الشبان المسلمين وسافر الى القدس لحضور المؤتمر الإسلامى ثم قصد إلى وطنه وبقى به الى أن اختارته العناية الإلهية الى جوارها ، وأثناء إقامته فى القاهرة كان احتفال الهنادك وحفاوتهم به لاتقل عن

حفاوة المسلمين .

كان رحمه الله وسطا بين الرجال فى قامته وبنيته وكان عمره إذاك لايقل عن ستين عاما ، وهو إلى الاعتلال أقرب منه الى الصحة تبدو فى غضون وجهه الأسمر المستطيل آثار الجد والجهد المتواصل والكفاح الروحى . وكان قليل الكلام كثير التفكير متواضعا ، عميق الخبرة بالرجال والحياة ، قليل الانخداع بالظواهر[١] .

ومن أشهر كتبه مجموعة محاضراته باللغة الإنجليزية وقد نشرت فى كتاب بعنوان « ست محاضرات فى إعادة بناء التفكير الدينى فى الإسلام » فى مطبعة كايور بلاهور سنة ١٩٣٠ ، وهذه المحاضرات هى : المعرفة والتجربة الدينية - الفحص الفلسفى للوحى الدينى وتجاربه - فكرة الألوهية ومعنى الصلاة - النفس الإنسانية وخلودها وحريتها - روح الثقافة الإسلامية - مبدأ الحركة فى البناء الإسلامى .

وقد ألقيت هذه المحاضرات فى مدراس وحيدرأباد وعليجره . وكان لها تأثير عظيم ، فقد خاض فيها غمار الفلسفة الأروبية الحديثة وفحص أفكار الإسلام على ضوء مؤلفات إيكرمان ووليام جيمس وطاف بأزهار

---

(١) كان واسع الاطلاع دائم الاستقراء ومن الكتب الألمانية التى أوصى بترجمتها كتاب سبنجلر « انحلال الغرب » .

التصوف الإسلامى فاقتطف منها مايجمل حديقته الغناء ، ويؤيد أفكاره الناضجة ، ففى صفحة ١٢٥ يقول « إن الصلاة تعتبر متممة بالضرورة للنشاط الذهنى لكل من يرقب الطبيعة عن كثب ، وإن ملاحظة الطبيعة ملاحظة علمية تدنينا من الحقيقة وتربطنا بها ، وتشحذ إدراكنا الباطنى لنستعد لرؤية الأعماق ، وإليك ماقاله جلال الدين رومى الشاعر المتصوف يصف تطلع روحه الى الحقيقة :

دفتر صوفى سواد وحرف نيست جزول اسبيد مثل برف نيست

زاد دانشمند آثار قلم زاد صوفى جيست آثار قدم

همجو صيادى سوء أشكار شد كام آهو ديد وبر آثار رشد

جندكاهش كام آهو درخوراست بعد ازار خودناف اهور هبرابست

راه رفتن يك نفس بربوء ناف خوشتراز صد منزل كام وطواف

يقول الشاعر المتصوف ما تعريبه :

« ليست دفاتر المتصوف حبراً وأحرفا على الورق ، وليست قلبا نقيا فى بياضه كالثلج ، إن ملك المتعلم آثار العلم ، ولكن الصوفى يقفو أثر الصيد كالصائد الحاذق يرى الغزال الحامل للمسك[1] فيتتبع آثار أقدامه ، وحينا تبقى العلامة التى يتركها كعب الغزال دليله الذى يتبعه ويقتفيه ،

(١) يقول العرب « المسك بعض دم الغزال » ونحن لانعلم إن كان المسك يستخرج فعلا من دم الغزال أم أنه إفراز لبعض غدد هذا الحيوان .

ولكن بعد ذلك تصير (غدة المسك) التى يحملها الغزال هى علامته التى تدله . وإنه لخير للصائد الذى يسير شوطا واحدا متتبعا عبق العطر ، من أن يسير مائة شوط فى أثر الأقدام » أ. هـ .

كانت رسالة إقبال فى شعره الذى حاول به أن يبعث روحا جديدا فى العالم الإسلامى ليخرج الشرق العربى والهندى والفارسى والصينى من الظلمات الى النور ، ومن الضعف إلى القوة ، وكانت رسالة شاعر لاهور شاقة فقد تأثر فى مقتبل شبابه بفلسفة شوبنهور ونيتشه وهى فلسفة تجمع بين الزهد والغلبة والقهر ومقاومة الانثناء والانحناء فى سبيل الرفعة والعظمة ، بل هى فلسفة تعد بمثابة علاج ناجح لمرضى العزيمة وحياة جديدة لضحايا القنوط واليأس . وكان ذلك صعباً على رجل شرقى النشأة والنزعة ورث فى دمائه حضارة الفرس ومجد العرب وعقيدة الإسلام واكتسب بمجهوده فلسفة أوروبا وعلم القانون ، يعيش فى بلاد شرقية وتحكمها دولة غربية ، وهى فى الوقت نفسه ممزقة الأوصال ؛ وفريسة للنزاع الدينى والقومى فكيف السبيل وسط هذه التيارات الجارفة المتناقضة الى بلوغ الغاية ؟ ولذا ترى إقبال يصرخ من أعماق قلبه فى إحدى قصائده من ديوان « بانك درا » . « إن رسالتى التى أحملها تخالف رسالة غيرى ، وكلام العاشق المجرب حقا يختلف عن سواه ، لقد وصلت

الى آذانكم أنات العصفور السجين فاسمعوا نواح الطير الواقف على أعلى القمم » .

وكما قال إقبال فى ص ١٢٦ من كتابه « إن السعى لمعرفة الحقيقة أشق شىء على الباحث الراغب » ، تراه يكرر ذلك فى شعره ، وقد تستبين منه أنه أدرك السر ، ولكنه عندما أدركه كان قد شارف على الفناء ، ولحقه اليأس من تفهم من حوله حقيقة الأمر ، فلم يسعده الحظ بتبليغ تلك الرسالة تبليغا كاملا ، ولكن ماهو هذا السر ؟ إنه سر الكون ، أو سر الحياة أو سبيل الكمال المطلق الذى يبذل الحكماء أعمارهم وجهودهم فى الاهتداء اليه ولذا تراه ينشد متحسرا :

« إنى وإن أكن قد استطعت التعبير عن فكرى ولكن ليس حولى من يفهمه وآسفا على من يحتفظ فى صدره بسر، ولكن ليس له رفيق يعينه ».

ويقول فى مكان آخر :

« لقد جئت ببشرى ، ولكن لايصغى إلىّ أحد ، لقد جاء النور وأشرق ، ولكن النور أوشك أن يغيب ولايمد أحد بصره نحوه ليراه » .

إن دعوة إقبال كانت دعوة عالمية وإنسانية ، غير مقصورة على شعب دون شعب ، ولذا كان اهتمامه بالسياسة القومية أقل من اهتمامه بالرفعة الإنسانية .

وقد حاول شرح مذهبه فى أكثر من تسعة كتب شعرية ونثرية . وقد

أدرك أنه يعد مرافقا ومفارقا لتاغور ، لأن تاغور يدعو الى السلام والهدوء والتأمل الساكن ، أما إقبال فكان يصرخ فى بوق ليوقظ الأمم الإسلامية الراقدة ، ولكن جميع شعوب الهند كانت تصغى الى صوت إقبال بشعور متأثرة بالجانب العملى الذى انطوت عليه فلسفته .

وقد تحرك قلب الهند بأسرها لوفاة هذا المصلح العظيم فهب المسلمون فى كل حدب لتمجيده والاحتفال بذكراه . وفى اعتقادى أن مصر وفلسطين وإيران والعراق وجزيرة العرب وشمال إفريقية لا تقل اهتماما بشأنه ، فقد كان حبه شاملا لجميع شعوبها وكان جهاده شاملا لها منذ أن دبت فكرة النهضة فى كيان العالم الإسلامى .

كان إقبال من أعداء اليأس والتواكل وكان يرى فى القرآن الشريف أعمالا وحقائق لا أفكاراً وأوامر ونواهى ، ويعتقد أن كل آية من آياته تنطوى على حركة وحياة تدفع بالمسلمين الى الأمام فى طريق الفتح . كما أنه لم يغب عنه أن الإسلام كشف القناع عن أسرار الكون للذين يحسنون التفكير والإدراك ، وحدة الوجود وطريقة البحث الاستقرائى ولفت نظر البشر الى عظمة الكون وسر الخلق والتكوين ، وقد قارن بين كثير من الآيات القرآنية وبين ما أسفرت عنه بحوث العلماء والمفكرين فى أوروبا وأمريكا ولذا تعد كتبه حجة للإسلام على خصومه فى كل زمان ومكان ،

وإنا نهيب بكل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها أن يقيم على روح الفقيد العظيم صلاة الغائب اعترافا بفضله واستدراراً للرحمة على روحه الطاهر الأمين .

(٥١) ليونارد ولف
بعد الطوفان(*)

يعتبر هذا المؤلف ، الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) بمثابة الطوفان الجديد ، الذى أغرق الحضارة الغربية ، وقد جعل كتابه دراسة نفسانية لحياة الجماعة البشرية وافتتحه بكلمة ليبنتز(١) قال فيها « إن أولئك الناقمين على نظام الأشياء فى الكون ليسوا فى عداد من يحبون الله حق محبته ، كما يجب أن يحب سبحانه وتعالى ، يجب على بنى آدم أن يسروا ويقنعوا بنظام الأشياء الماضية ، لأنها تمت بإرادة الله المطلقة التى تنجلى بوقوع الحوادث . أما فى المستقبل فعلينا أن نجعل الأشياء المرتبطة بإرادتنا متفقة مع إرادة الله الاحتمالية أى كما يظن أنها تكون » .

وظاهر من هذه العبارة أن الفيلسوف ليبنتز يقسم الحياة الى

(*) مقال بعنوان « بعد الطوفان ، كتاب حديث تأليف ليونارد ولف » نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٩١ ، ص ١١ - ١٣ ، فى ١٩٣٨/٣/١٦ .

(١) ليبنتز Leibniz فيلسوف من أتباع ديكارت .

قسمين الماضى والمستقبل ، ويغفل الحاضر ، لأنه إما يمضى عليه وقت فيندمج فى الماضى ، وإما نتأهب له فيدخل تحت طى المبتقيل ، أما الماضى فقد انتهى ولا فائدة من الرجوع اليه فى رأى هذا الفيلسوف ، ومن العجيب فى هذا الرأى أنه يتفق وآراء الشريعة الإسلامية ، فلقد بعث الله نبينا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من ستمائة سنة والناس منقسمون الى مكذبين له من اليهود وعبدة الأوثان ، وإلى مصدقين له قد شاع الفساد فيهم كما شاع فى زماننا الآن . والمخالفون يخاطبون بفروع الشريعة ، والأموال كانت فى أيدى المكذبين له والمصدقين . أما المكذبون فكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام ، وأما المصدقون فكانوا يتساهلون مع أهل التصديق كما يتساهل الآن المسلمون ، مع أن العهد بالنبوة أقرب ، فكانت الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها فى أيدى الظالمين ، وعفا صلى الله عليه وسلم عما سلف ولم يتعرض له (وهذا يطابق رأى ليبنتز فى الماضى أو بعبارة أصح اتبعه الفيلسوف ولم يخرج عنه) وخصص النبى أصحاب الأيدى بالأموال .

وإنما استشهد المؤلف الإنجليزى واضع الكتاب الذى ندرسه برأى

ليبنتز لأنه يريد إصلاح المستقبل ، فتصدى لآراء الكاتب الرأسمالى سير جون فورتسكيو فقال « إن النظام المعروف باسم الرأسمالية لمن يقوم به من أصحاب الأعمال والطبقة الغنية التى تدعم النظام وتدافع عنه من أمثال فورتسكيو قد تعودوا أن ينظروا الى امتيازاتهم وحقوقهم كأنها شاملة لسلطة قهر العمال والفقراء بالقوة الجبرية وأنه من الطبيعى والمباح أن يستخدموا وسائل الحرب وعمليات ميادين القتال حيال العمال اذا بدرت منهم بادرة للمطالبة بحقوقهم أو الانتصاف من أرباب الأموال . فإذا لجأ العمال الى شيء من القوة التى يلجأ اليها أرباب الأموال بمعونة الدولة، فإن هذا يعدّ منهم ثورة وفتنة وانتقاض على السلطة وخروج على القانون فهنا أولا ظلم ظاهر وتفاوت ، فإن حق القهر الذى يعطى لرأس المال يجب أن يعطى أيضا للعامل ، ومن العجب أن الحضارة الأوروبية بعد عشرين قرنا من ميلاد السيد المسيح تفخر بمسيحيتها وتسمح لنفسها أن تأمر بجلد العامل (العاصى) حتى يعود الى عمله صاغراً ، والعصيان هنا معناه التذمر من مظالم رأس المال كنقص فاحش فى الأجور أو مبالغة فى إطالة ساعات العمل أو استغلال مرذول لزيادة الإنتاج ، فإن لم يكن الجلد كافياً فالعمال يستهدفون للرمى بالرصاص ، ويقتلون فعلا . وهذا القتل قال به سير جون فورتسيكو بالنص عندما كتب «أو عمليات حربية أشد

وأقوى » ، فلا توجد عمليات حرب أشد وأقوى من الجلد غير القتل ، وهذا مايقع فعلا ، اذا طلبوا المساواة بين العمل ورأس المال على قدم المشاركة مع أصحاب المصانع .

فمن ناحية ، تبيح الحضارة لرأس المال أن يرغم العمال على العمل بالأجر الذى يفرضه المال عليهم فرضا ، فإن رفضوا فمآلهم الجلد أو السجن ، وإن تطلعوا للمساواة فى الحقوق ، فمآلهم القتل رميا بالرصاص، ولا يخطر ببال الدولة التى تمد هؤلاء الماليين بالقوة المسلحة لتؤدب العمال أو تنتقم منهم ، أن تبيح للعمال أن يجلدوا أرباب الأموال إذا رفضوا أن يستخدموا العمال بالأجور التى يطلبها العمال أنفسهم (ص ٢٤٩) .

وقد يرد فورتسكيو وسيرجون سيمون ولورد أكسفورد (اسكويت سابقا) بأنهم لايعارضون فى إضراب عمال المناجم ضد أصحاب المناجم ، ولا إضراب عمال سكة الحديد ضد شركات السكة الحديد ، ولكنهم يقاومون اتحاد عمال المناجم ضد أصحاب المناجم وأصحاب سكة الحديد.. وبعبارة أخرى يقبلون مشاكل العمال والمال الفردية ، ويقاومون اتحاد كتلة العمال ضد كتلة رأس المال ، أى أنهم يخشون حرب الطبقات . ولكن هذه سفسطة ومغالطة وقلب للحقائق . وهذه الحضارة مملوءة بأقذار

الكذب والنفاق والمراوغة . وهؤلاء الساسة وأصحاب صنعة الكلام هم الذين أفسدوا الحياة وقضوا على حسن سمعة الديموقراطية ، وعاشوا عشرات السنين على التدجيل بأسماء وكلمات خالية من المعنى . ولكنها تفرقع . وكل الذى يهمهم ويكرثهم ويكربهم من وراء هذه الجعجعة أن لاتصل تلك الدعوة الى الجندى المحارب الذى سلحوه لمحاربة العامل ليخضعه لهم ، مع أن العامل والجندى من طبقة واحدة هى نفسها التى يعمل سيرفورتسكيو وسيمون وأكسفورد على إذلالها . فهم يلجأون الى كلمات جوفاء ومبادىء سفسطائية . ولكن هذه الوسيلة هى التى قضت على حضارة القرن الثامن عشر . فأسخطت جموع الشعوب فثارت وحطمت ماحطمت . وكان ساسة القرن الثامن عشر أمهر وأفصح وأخبث من ساسة القرن العشرين كما كانت شعوب القرن الثامن عشر أجهل وأغبى وأصبر وأضعف من شعوب القرن العشرين (ص ٢٥٠) .

وعندما يضيق أفق الرأى فى نظر هؤلاء السادة تراهم يحتمون تحديد الأجور وساعات العمل ونظم المصانع بالحرب جاهلين أو متجاهلين مخالفة هذه الطريقة لروح الديموقراطية السمحة التى كان آباؤهم وأجدادهم من دعاتها وأنصارها عندما كانوا مظلومين من أمراء الالتزام فى عهد الفدنية .

وما أبعد رأى سير فورتسكيو عن الحقيقة عندما اقترح تحليل الحرب الاقتصادية للحد من النزاع بين المال والعمل ، فإنه يزعم أن أسلحة أرباب المال مشروعة ومباحة للنيل من العمال ، أما أسلحة العمال فباطلة وممنوعة ، وقد أراد هذا الرجل المتعنت أن يسن قانونا للحرب الاقتصادية، وغاب عن ذهنه أن إنجلترا وفرنسا وغيرها من الدول أرادت أن تضع حداً للحروب الدولية بمعاهدات وأحلاف فكيف تبيح تلك الدول حروب الجماعات فى نفس أوطانها ، وكيف يمكن الجمع بين العاطفتين ، السلام بين الأمم ، والحرب بين الأفراد والطبقات ، ألا إنهم لخاطئون ومتعنتون !!

عندما نودى فى إنجلترا بالإضراب العام كان زعيمه مستر توماس (أحد سائقى قطارات السكة الحديد ، وصار وزيراً بعد ذلك) ، لجأ أصحاب المال ورجال السياسة الى الخداع ، فزعموا أن الملك والأمة فى صف العمال ومستر توماس فى صف آخر ، ولكن هذا الوضع كان كاذبا وباطلا، لأن العمال لم يكونوا غرباء عن الأمة ، وربما كان الملك ميالا بقلبه وعطفه لرفع المظالم عن كاهل الشعب ، ولكن هذا هو التصوير الذى رسموه للحوادث نكاية بالعمال الذين بلغوا بضعة ملايين (ص ٢٤٤) ، فنهض مستر.بولدوين فى مجلس العموم وقال « إن الحكومة الدستورية فى خطر ، لأن العمال يهاجمونها ، فليقف وراء الحكومة كل من يريد أن يحمى

حقوقه ، لأن قوانين إنجلترا حقوق ينالها الفرد منكم عند ميلاده ، إن الإضراب العام تحد صريح للبرلمان ، وطريق معبدة للفوضى والخراب ..»٠

« راجع بريتش جازيت ٦ مايو سنة ١٩٢٦ » ٠

(٥٢) أندريه جيد ومؤلفاته(*)

يعرف المثقفون من المصريين من هو أندريه جيد ، فيكفى ذكر اسمه ليستحضروا فى أذهانهم تلك الشخصية الجذابة التى نشأ صاحبها فى بيئة من أرقى البيئات العلمية ، فهو ابن شقيق الأستاذ شارل جيد الاقتصادى العظيم الذى لاتزال كتبه بين أيدى الطلاب والعلماء فى أنحاء العالم . وقد اختار فنون الأدب من نعومة أظفاره فكان شاعراً نظم ديوانين من أرق الشعر هما « امينتاس » و« أغنية الأرض » ثم وضع قصصاً شهيرة أهمها «المزيفون» و«روبرت» و«مدرسة النساء» و«كوريدون» ، واشتهرت مؤلفاته شهرة عظيمة لأنه كان منوع المواهب فلم تقصرها الطبيعة على الشعر والقصص بل حبته منحة التأليف المسرحى ، فوضع «شاول» و«برسيفون» وساح فى ممالك شتى ولاسيما إفريقيا الغربية

(*) مقال بعنوان « التطور العظيم فى فرنسا ، أندريه جيد والعصر الحديث » ، نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١١٩ ، فى ١٩٢٨/٩/٢٨ .

والوسطى وعاد منها بكتابين عن الكونجو وبحيرة تشاد وسجل بضع قضايا جنائية كبرى فى «مذكرات محكمة الجنايات» وكتب مذكرات عن حياته الشخصية فنشر «البذور لاتموت» و «صفحات من كتاب الحياة اليومية» وكان أثناء ذلك ينقل عن الإنجليزية بعض أمهات الكتب فى المسرح والشعر والقصص ، فترجم لشكسبير «أنطوان وكليوباترا» ولطاغور «القربان الغنائى» و «آمال وخطاب الملك» و «تيفون» لجوزيف كونراد ونقل بعض قصائد والت هويتمان الشاعر الأمريكى وكتب عن الشرق كتابا فريداً هو «الحاج» وقد نشر فى أصفهان مزيناً بصور جميلة.

والناظر فى هذا الملخص الوجيز لمؤلفاته التى تبلغ الأربعين كتاباً يمكنه للوهلة الأولى أن يدرك قيمته الأدبية . ولكن قراءة بعض تلك الكتب تبين للناقد البصير أنه أديب نابغ شديد التطلع للحقيقة والجمال والخير ، يريد روحه الوثاب أن يلم بأكبر مقدار من ثمار الفكر البشرى فى الشرق والغرب والشمال والجنوب فى كل العصور والعهود ، وهو ذو عقل نهم لايشبع ولايقنع ومزاج ملتهب لايقر له قرار ، ونفس طماعة فى الاتجاه نحو النور ، وفؤاد قلق يقلب صفحات الحياة ويتناول عناصر الوجود ليهتدى الى الحق . وهو بتاريخه الشخصى الحافل ومؤلفاته الملونة المتعددة ينفى

نظرية الاختصاص فى الأدب والتفكير ، فلم يقصر جهوده على نوع بعينه من الفن والدرس فتعلم وعلم وساح فى أقصى الأرض وضرب فى مناكب الشرق والغرب ، واستقصى النظم الاجتماعية والدينية الفطرى منها والعريق ، ودرس مراتب الوجود الإنسانى القديم منها والحديث سعياً وراء الحقيقة والجمال .

وإن الواقف على تاريخ الأدب الفرنسى ليجد فى أندريه جيد أثراً قويا من فنون القرن التاسع عشر فهو يمثله فى أقوى مظاهره وأنصعها وأنفعها ، ولم ينقطع سعيه المشكور بانقطاع سلسلة ذلك القرن العتيد ، بل واصل الجد حتى أدرك بهمته القعساء نبوغ القرن العشرين ، فساير أكبر كتابه من الشبان والكهول والشيوخ ولم يعتوره فتور السن المتقدمة ولم يفتّ فى عضده ظهور جيلين أو ثلاثة متوالية من الكتاب أمثال « جيرودو » و « دورجوليس » و « بول موران » ، بل تمكن بنبوغه من الاحتفاظ بمكانته وبقرائه بل كون منهم جيلا جديدا . فكان كاتب فرنسا الأول بعد وفاة أناتول فرانس وأثبت بذلك أنه ليس من الكتاب الذين يندثرون باندثار أنداده بل من النوابغ الذين يتقدمون ويتجددون و «تحسد أسحارهم عليهم الأصائل » لوفرة محصوله وكثرة إنتاجه وتحسن مادته وفى جنب ذلك أسلوب شخصى دقيق ليس براقا ولا صاخبا ، ولكنه أسلوب غنى بالفكر ،

طلى بقوة الروح الذى يصوغه ويخرجه سلاسل ذهب وعقود جوهر متألقة خاطفة للبصر مشبعة للبصيرة ، فهو كاتب عظيم يمثل زمنه ويحكم جيله بفكره وقلمه ولكنه لم يصل الى هذه الدرجة حتى التهم أدب معاصريه وهضمه واستساغه فجاء فى فنه وأدبه من كل الثمرات ، ثم طبع كل صفحة من صفحاته بطابعه الشخصى الخاص ، ففيه من هيجو ولوتى وفارير وسارسى وبودلير وميربو وفينى وموسيه . وفيه قبل هؤلاء جميعاً من أساتذته الأول فولتير وروس ومونتانى ورابليه وكل عظماء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وفيه من أوسكار ويلد ومترلينك وشكسبير وديفرتوا ومورياك وموروا (لاسيما مدرسة النساء) ، وفيه من بروست وريمى دى جورمون وفلوبير وموبسان ، ولكن هو قبل كل شىء أندريه جيد بقضه وقضيضه ونفسيته العجيبة المتطلعة ، وقد بلغ هذا الكاتب العظيم ثمانى وستين سنة قضى منها خمسين عاما فى التأليف ، ولكنه لايزال فتياً يحملها على كاهله برشاقة الشاب الذى لايغلبه العمر ولاتبهظ كتفيه الأعوام . فقد نشأ وتربى غنياً ميسوراً لا تشغله مطالب الرزق اليومى ولا تعوزه حاجات الجسم التى كثيراً ماتذهب بالمواهب بدداً .

وهذا الرجل الذى قضى كل هذه الأعوام معتكفاً فى قصره مكباً

على كتبه وأوراقه ومحابره وأقلامه ، مقيما فى « برج من العاج »[1] نهض أخيراً عن جلسته الطويلة وترك وراءه كل مظاهر العظمة والفخامة والاكتفاء بالنفس ونزل الى « الطريق العام » وانحدر بجسمه الى الشارع ، ولكنه ارتقى بعقله الى « الحياة الجديدة » فهجر التأليف والتصنيف وأعلن انضمامه الى صفوف المجاهدين فى سبيل الإصلاح الاجتماعى الذى تتطلبه التطورات التى طرأت على العالم فى هذه السنوات الأخيرة ، فكان لهذا الأمر ضجة عظمى شغلت أفكار الشعب والمفكرين ، فرحب به الشعب أعظم ترحيب ورأى فيه منقذاً جليلا ساقته له الأقدار فانقاد له وسلمه زمامه .

وإن الذى حدث فى شأنه هو بالدقة ما حدث لعهد قضية دريفوس، فإن الظلم لما استحكمت حلقاته وأزمة الاضطهاد لما اشتدت قبضتها على خناق الأمة ، هجر العلماء والشعراء والأدباء قصورهم ومكاتبهم ونزل الأساتذة عن مقاعدهم فى الجامعات وانحدروا الى الطريق يجادلون ويناقشون ويحتدمون ويصطدمون مضحين فى ذلك بالمناصب والمال والمكانة العليا التى كانوا يشغلونها فى ظلال الحكم الذى اعتبروه مرهقاً مستبداً . وفى تلك الفترة ودع أناتول فرانس كرسيه فى كوليج دى فرانس

---

(١) يقال فلان فى برج من العاج أى فى عزلة مستغنية عن الناس وما إليهم من فكر ونشب.

وأهرق مداد أقلامه فى نصرة دريفوس التى اعتبرها نصرة للحق والعدل وألف كتاب « جزيرة بانجون » التى جعلها قصة رمزية لتاريخ فرنسا الحديث ، وترك إميل زولا مكتبه وطوى صحفه وقصصه وكتب خطاب «أتهم» فحكم عليه بالسجن والغرامة ولكنه تمكن من الفرار الى بريطانيا فقضى ردحا من الزمن منفيا باختياره من وطنه وقومه الذين ظلموه لأنه ناصر مظلوما .

ولكن قضية دريفوس التى قلبت الحياة فى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر رأسا على عقب ، لم تكن إلا مسألة فردية رأى فيها المفكرون حادثاً قوميا قد يؤدى الى رجوع عهد المظالم ، فدافعوا عن الحرية والعدل وحاربوا التعصب والتحزب والاضطهاد . أما التطور الاجتماعى الحديث فهو أكبر من ذلك وأخطر لأنه يتناول حياة الأمة بأسرها فى جميع ناحياتها . وقد اشتبك الكتاب كلهم فى معارك حامية وذلك بعد انشقاق الحزب الاشتراكى وظهور الفاشيزم والهتلرزم وما تبعهما من مبادىء الديكتاتورية المطلقة كالموسولينية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا وما يشبهها فى أسبانيا والنمسا واليونان . فتنبهت العناصر الحرة فى فرنسا وضمت صفوفها بعد الانشقاق لتؤلف جبهة واحدة ضد الحركة الفردية

التى أوشكت أن تقبض على خناق العالم ٠

وبعد أن كانت طبقات الشعب تنظر الى المفكرين والكتاب بعين الحذر لأن معظمهم من طبقة « البورجوازيه » أصبحت ترحب بهم بعد أن استبانت إخلاصهم وبعد أن أحست بالحاجة الملحة إلى السير وراء زعماء مثقفين متورين أثبتوا بحياتهم وفكرهم وثمار عقولهم أنهم فوق المطامع المادية سواء أكان ذلك فى مناصب الحكم أو فى مراكز الزعامة الجوفاء التى تدق لها الطبول تمجيداً للوصوليين وأصحاب المنفعة المباشرة ٠

ولما كان الكتاب أمثال فاليرى ودهاميل وجيد وموروا وكلوديل وجورج جي جران ورامون مزنانديز وهنرى ماسى وجبريل مارسيل وتيرى مولنييه وجاك مارتيان ومورياك وجيلوان وجان جوهينو وهاليفى ، ممن يشار إليهم بالبنان وإن اختلفوا فى المذهب والمبادىء فمن الكاثوليكى المتشدد والبروتستنتى المتسامح وحر الفكر المؤمن بمكارم الأخلاق والملحد المعطل الذى لايدين بشىء ولايخضع لسلطان المعتقدات ، إلى الملكى (حزب دوديه وموراس) الذى يحلم بعودة العرش والبلاط والمحافظة على التقاليد ، والجمهورى والاشتراكى والشيوعى - نقول لما كان هؤلاء جميعاً بحق قادة الفكر الفرنسى بل الفكر الأوروبى الحديث على اختلاف منازعهم ومشاربهم تفرقهم الوسائل والمناهج وتجمعهم الغاية الفضلى والمثل الأعلى

فى خدمة الإنسانية والوطن :

« تتنافى النزعات والدين والعا   دات منهم والزى والأسماء
ألفتهـم مع التباعـد نعمــا   ؤك حتى كأنهـم خلطـاء

فقد أجمعوا رأيهم على تبادل الأفكار فى « نادى الوصول الى الحقيقة »[1] فى كل أمر يهم الأمة من جهة التفكير السياسى والاجتماعى والدينى والإصلاح القومى والنهضات الوطنية ، ولما كان لهذا النادى شأن عظيم فى فرنسا ومساس دقيق بتطور أفكار أندريه جيد ، فقد فضلنا أن نأتى على ذكر مبادئه ليكون نموذجاً للشرق والشرقيين .

فقد تأسس هذا المجمع العقلى لاثنتين وأربعين سنة خلت فى باريس وغايته أن يكون « ميدانا للبحوث الفلسفية والمدنية والتهذيب المتبادل » بين أعضائه وجعل مقره فى ٢١ شارع فيسكونتى ، ونذكر بهذه المناسبة أنه كان محل الاجتماع لأعضاء المؤتمر المصرى الذى دعا اليه الحزب الوطنى فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ برياسة المغفور له محمد فريد بك ، فاستقبل المصريون فيه ضيوفهم عشية الافتتاح ، ولكن الحكومة الفرنسية لذلك

---

(١) Union pour la verité تأسس فى باريس سنة ١٨٩٢ ولايزال قائماً فى غرفة بسيطة ولكن صدى مناقشاته تصل الى أقصى الأرض وتساعد على تكوين المبادىء وتكوين الأفكار .

العهد نكثت بوعدها وكان الوزير الأول اريستيد بريان خاضعاً فى السياسة الخارجية للنفوذ البريطانى فنهته حكومة لندن عن السماح بعقد المؤتمر الوطنى المصرى فى باريس فانتهى وانعقد المؤتمر فى بروكسيل[1].

(٥٣) آرتور ريمبو
الإنارات وموسم فى الجحيم[*]

إن زعيم الرمزية أو مذهب سيمبولزم فى فرنسا هو أرتور ريمبو وهو فتى فلاح من شمال فرنسا تلقى العلم الابتدائى والثانوى فى مدارس بلدته ، ونظم الشعر صغيراً فأدهش المعاصرين ، وكانوا لم يشقوا بعد طريق الرمزية ، وعلى رأسهم بانفيل وبودلير وبول فيرلين . ثم ظهر الشذوذ فى أخلاق الفتى فهجر المدرسة ونزع الى باريس ، وقصد الى مقاهى

---

(١) من أفاضل الذين شهدوا هذه الحوادث الدكتور عبدالحميد سعيد ومحمد بك فهمى والأستاذ وفيق .

(*) مقال بعنوان « الرمزية أو مذهب سيمبولزم فى الأدب الأوربى الحديث » نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١٠٢ ، فى ١٩٣٨/٦/٨ ، والإنارات ويترجمها البعض بالإشراقات تنقسم إلى قسمين أولهما مجموعة من الأشعار والثانى قصائد نثرية ، أما موسم فى الجحيم فديوان شعرى يحتوى على فقرات نثرية .

الأدباء في « كارتييه لاتان » ومعاهد التصوير وكان فقيراً مدقعاً . قال أحد واصفيه عند بلوغه باريس :

« رأيت ولداً أشقر ، أزرق العينين أصفر الشعر ، دميم الخلقة فيه ميوعة الصبى ، ولكنه خفيف الروح خارق الذكاء . وكنا نؤويه ونطعمه ونكسوه لأنه لم يكن يملك شيئاً .

« وكان أول ما أطلعنا على شعره قصيدة « السفينة السكرى » Le Bateau Ivre فدهشنا لها ونالت إعجابنا وأيقنا أن نجماً جديداً قد بزغ فى سماء الأدب ، ولكننا لم نكن ندرى كيف نوفر له وسائل الحياة . فقد كنا جميعاً فقراء ونكاد لا نملك إلا ما نحتاج إليه . وكان فى هذا الوقت أن تعرف إليه پول فيرلين فاتصل به وحماه وعاشره إلى أن انتهت حياتهما بالفواجع » .

أما پول فيرلين فهو من أكبر شعراء فرنسا فى القرن التاسع عشر . وله دواوين كثيرة ابتكر فيها طرائق فى الفنون الشعرية ، لم يسبق إليها . وكان فيرلين عندما تعرف الى آرتور ريمبو فى العقد الرابع ومتزوجاً وله ولد وبيت وأسرة محترمة . ولكنه كان يميل الى المعاقرة . وكانت زوجته وحماته من أسرة محافظة ، ففطنتا الى الجديد فى حياته فنغصتا عيشته تنغيصاً شديداً انتهى بأن هجر البيت وعاش باستمرار فى صحبة آرتور

ريمبو الذى بدأ ينظم شعراً ويكتب نثراً . وكانت حياتهما محفوفة بالمكاره ومحاطة بالشكوك . وكانت عبقرية الولد الشاعر فى نمو دائم ، وقد وهب الأسلوب وقدرة اختيار الألفاظ ، والانسجام الشعرى على صورة رائعة مدهشة . وأخذت المجالس والمجامع الأدبية تلهج بذكرهما وتفسح لهما المجال وتخاطف الناشرون شعر الاثنين ونثر الفتى .

أما فيرلين فكان من قبل شاعراً معروفاً فى مقام « طرفة بن العبد . فى الإباحية والشباب والتغنى بالخمر والغرام ، غير أنه يمثل الحالة الخلقية العليلة التى وصلت إليها فرنسا فى عهد الانحلال Decadence ، وكثير من المتأدبين يظنون أن المقصود بالديكادنس انحلال الأمة الذى أدى بكتابها وشعرائها الى طريقة جديدة وهذا فكر خاطىء ، فالديكادنس ينصب على التفكير الشعرى والصياغة اللفظية التى امتاز بها كتاب فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر . ومنهم باربى دورفيلى وجان ريشبان وتيوفيل جوتييه وبودلير وتيودوردى بانفيل وبول فوروعشرات مثلهم . وكان هؤلاء « المنحلون» Poéts Decadents أعظم وأقوى وأنقى وأصدق من فيكتور هيجو وألفريد دى موسيه وأضرابهما الذين كانوا لايزالون متمسكين بالمدرسة الإتباعية Classic وكانوا يطلقون على فيكتور هيجو وصف «أكبر منار فى محيط اللغو والكلام الفارغ » ويعتقدون أن أدبه

الرومانتيكى وإن كان قد عد تجديداً فى شبابه إلا أنه اصبح عتيقا ولا يصلح لتمثيل الأفكار فى نهاية القرن . ونحن لا نحب أن ندخل فى هذا النقاش الذى يشبه البحر الخضم ويحتاج الى استشهادات يضيق عنها المجال على عظم أهميته وجلال شأنه ، من حيث هو تاريخ الأدب الأوروبى الحديث فى مظاهره الأخيرة .

أما آرتور ريمبو Arthur Rimbaud فلم يكن عارفا بالشقاء الذى سببه لصاحبه وحاميه پول فيرلين ، والبؤس الذى جلبه على ولده الصغير جورج (الذى توفى فى سنة ١٩٢٢ فى وظيفة ناظر إحدى محطات السكة الحديد الأرضية (مترو) بعد أبيه بثلاثين عاماً تقريباً) .

وقد ألف ريمبو كتاب « الإنارات » ووضع اعترافا قصيرا اسمه : Une saison en enfer أى موسم فى الجحيم . ولايزال هذان الكتابان الصغيران من أعجب ماكتب فى اللغة الفرنسية . وجمع فيرلين وصاحبه مالا يسيرا سافرا به الى إنجلترا ، وكانت فى ذلك الزمن مشغولة بأدب أوسكار وايلد الذى ظن كثير من الدهماء « وبعض الظن إثم » أنه كاتب إباحى[1] ، وأنه يجيز الغزل المذكر وما وراءه ، وكتب أندريه جيد «لايزال على قيد الحياة وقد تطور» كتابى « كريدون » و« المزيفون » وهما كتابان

(١) يعد نثره ونظمه وقصصه ومقولاته فى الدرجة الثانية بعد شكسبير ولكن حظه كان عاثرا فى النهاية .

مريبان ؛ وفى لندن عاش فيرلين ورفيقه العبقرى عيشة الفلاكة والمفلوكين فغشيا أماكن الشراب وأندية الليل ، ومعارض المصورين ، وأنتجا أدبا ضخما فى كل فن ، وكانت المجلات الأدبية تنشر لهما ثمار قريحتهما ، وكتب فيرلين فى تلك الفرصة شعرا رمزياً كثيرا فيه اعترافات ود أصدقاؤه لو لم تصدر عنه ، مجد فيها الخمر الممزوج بالحب الشاذ ولم تكن الزوجة ولا الحماة ولا الكنيسة الكاثوليكية لتفهم هذه الميول أو تقرها ! فرفعت قضايا زادت المهاجرين النابغين « الكهل والفتى » ارتباكا واضطرابا ، وعطفت عليهما قلوب أدباء الإنجليز الذين كانوا يعشقون كل غريب وطريف. وعاد فيرلين الى باريس ، ومعه تلميذه ومريده فواجه المحاكم فى دعاوى النفقة والحضانة ومناورات الطلاق لأن زوجته لم تعد تحبه ، بعد أن تأكدت أنه هجرها فى صحبة الغلام ، ولم تدرك أنه عليل بعبقريته التى تلتمس كل شاذ ، وتتطلب كل غريب وتحتاج فى كل آن الى مايهيج مواهبها الراكدة وينعشها .

وسافر الرجلان الى بروكسل عاصمة بلجيكا . وكانت أم آرثور ريمبو وهى سيدة فلاحة قد سمعت وقرأت وترامى الى أهل قريتها نبأ ابنها وما أصابه من النجاح والفضيحة ، فسافرت لترده الى حظيرة الطاعة الوالدية ولقيت مدام فيرلين وأمها العجوز فى بيتهما فسممتا

أفكارها . ولما بلغت بروكسل اجتمعت بهما وبذلت النصح لولدها فأطاعها. وكان قد مل وتعب حياة السهر والسكر فى المدن المقفلة ، وقد حرمته الحياة من هواء الريف ونوره وغذائه وعناية الأم . وأراد أن يعود فغضب پول فيرلين العظيم البائس وأطلق عليه الرصاص من مسدسه فأصاب الفتى فى يده . وحاولوا التحايل على كتمان أنفاس الجناية « شروع فى قتل » ولكنها بلغت دور القضاء . وأهل بلجيكا أشداء فى الحق والفضيلة ، فقضى عليه بالسجن سنتين ، وهو حكم مماثل للذى صدر على أوسكار وايلد فى سنة ١٨٩٥ فى لندن ، وكثير من أسبابه تدل على أن القضاة إنما قسوا عليه لسوء الظن بالعلاقة بين الشاعرين .

وهاجت فرنسا غضبا للشاعر السجين ، وكتب إليه فيكتور هيجو خطابا كان سببا فى العناية به واحترامه لدى مأمور السجن ، لأن شهرة هيجو عالمية ولم يكن مأمور السجن عارفا بقدر فيرلين من قبل ، وعاد ريمبو الى بلده ثم هاجر الى الشرق وانقطعت علاقته بصاحبه وبالأدب ووصل فى أسفاره الى مستعمرات فرنسا فى شمال إفريقية ومصر ، ووصل الى الحبشة وموّن حكومتها بالسلاح والذخيرة فجمع ثروة طائلة وتكبد مشقات الأسفار فى الصحراء ، فكسرت رجله اليمنى وعاد الى فرنسا بساق خشبية فعنيت بتمريضه شقيقته الى أن مات فى سن الرجولة

الناضجة ، وعنى كبار النقاد بأدبه وتفرغوا لتدوين حياته وطبع دواوينه التى هى أساس الرمزية الأدبية .

أما پول فيرلين فقد عاد بعد إطلاق سراحه الى باريس واستمر فى إنتاجه ، فكان شعره دينياً وعاطفياً وقد يشبه شعر أبى العتاهية وشعر شوقى فى أواخر أيامهما (مع الفوارق) ، وكان قبيل وفاته بثلاثة أعوام يجلس فى كافيه فاشيت أشهر مقاهى الحى اللاتينى وينغمس فى معاقرة «الإبسنت» حتى يغيب عن وجوده وتتدلى رأسه بوجهه الملتحى الغريب على صدره فاذا مادق ناقوس جامعة باريس ، ومر الطلاب به جالساً ، رفعوا جميعاً قبعاتهم وأساتذتهم بالتحية وكان عددهم يبلغ ثلاثة عشر ألفا ! لأنه كان أحد أمجاد الوطن الخالدة Une Gloire de la France ولم يعد الى حياة الأسرة ومات فى فراش المستشفى بعد أن ذاق المرض الأليم وكانت امرأته تستولى على معظم إيراده من كتبه .

نظم پول فيرلين فى شهر يوليو سنة ١٨٩٠ مقطوعة شعرية[١] فى أربعة عشر شطراً - رباعيتان وثلاثيتان وأهداها الى صديقه ومترجمه

---

(١) مقال بعنوان « نماذج من الأدب الرمزى ، پول فيرلين ، آرتور ريمبو » ، نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١٠٦ ، فى ١٩٣٨/٦/٢٩ .

ادمول نيبلتييه[1] قال على الطريقة الرمزية :

(١) صديقى القديم بعث من صفوف الأشباح ٠

(٢) أشباح ليست صامته ولا ساكنة بل ٠

(٣) متحركة كالذر الذى تتكون منه الأرواح ٠

(٤) فى صف من الأقمار المشرقة قبل الأوان ٠

(٥) أعيننا أدركتها غشاوة الظلام ٠

(٦) وأضعفتها مشاهد الرؤى والأحلام ٠

(٧) تحت الأغصان المتشابكة والأفرع والأفنان ٠

(٨) ذات الأوراق المتلاصقة فى شتى الألوان ٠

(٩) تلك الأغصان التى خلق منها الخريف قبابا ٠

(١٠) تلك القباب المقبرية التى يتنهد فيها الهواء ٠

(١١) باها ! إن الحياة فى جملتها قصيرة ٠

(١٢) يقظة بلهاء بعد سنة من النوم فلا يجوز لنا أن نفكر فى أشباح الراحلين من الموتى الذين ذهبوا ولن يعودوا . هل الأمر يستحق كل هذه العناية ٠

---

(١) أديب فرنسى عريق فى الأدب والتاريخ وقد ترجم لپول فيرلين ترجمة حسنة وابن هذا الكاتب كان ناظرا للمدرسة التوفيقية بمصر ٠

(١٣) لانفكر فيهم إلا لنشفق عليهم . عبثا نفعل ذلك أو نقول .

(١٤) ألسنا عما قليل نلحق بهم عما قليل . عما قليل .

وقال عندما رأى خطيبته التى صارت فيما بعد زوجته فى ديوانه الموسوم « النشيد الطيب » ص ٢١٨ :

« فى ثوب رمادى وأخضر ورسوم تمثل الخلايا .

فى يوم من شهر يونيو كنت منشغل الخاطر ، فبدت ضاحكة أما عينى ، هل كانت ضاحكة أم باسمة . لقد بدت الدموع فى عينيها تنبىء بالمستقبل القريب ، فعيناى أعجبت بها ، دن أن ترهبا الشباك المنصوبة ، دون رهبة الفخ . فجاءت وذهبت وجلست ، تكلمت بخفة ورزانة ورشاقة وجد وتهكم لين الكلام ، فشعرت فى نفسى المظلمة بانعكاس البهجة من منظرها وكلامها وصمتها . صوتها كان كالموسيقى الهادئة مصحوبا بروعة حديثها المنزه عن الرياء ، منبئا عن الابتهاج الذى أحاط بقلبها النقى. وفجأة أصبحت ، بعد ثورة تمكنت فى الحال من قمعها ، مملوكا ملك اليمين لتلك الفتاة الشبيهة بالأرواح الملائكية الخيرة ، تلك الروح التى أرجوها وأدعوها وأنا مرتعد الفرائص مرتجفا » .

وقال : ص ٢٤٢ قبيل الزواج :

« عندما كان الفجر يعلو ويظهر ، وكان الشروق يحارب الليل فى

الأرض والسماء وقد فضح هزيمتى أمام الأمل الفار ، الذى كان يطير بعيداً عنى وأنا أطلبه وأتمناه ولما كانت كل تلك السعادة تريد أن تكون ملكى ، فلنودع الأفكار السوداء والأحلام المزعجة . وداعاً . خصوصاً أيها التهكم من تلك الشفاه المطبقة بخبث أصحابها الهازئين الصامتين . وداعاً أيتها الكلمات التى ينصرها العقل دون الروح . وبعداً لإشارة الوعيد التى يمليها الغضب فتطبق الأنامل فى صورة لكمة موجهة الى الهناء ، وبعداً للأشقياء والبله الذين نلقاهم فى طريقنا . الى الوراء . أيتها الأحقاد والضغائن الى الوراء وبعداً للنسيان الذى نبحث عنه فى مناهل كدرة وموارد عكرة » .

وقال آرتور ريمبو فى كتابه موسم فى الجحيم « قدما ـ إن كنت أتذكر جيداً كانت حياتى وليمة ومأدبة وعيداً ـ حيث تفتح كل القلوب وتسيل كل أنواع الخمور ، وتهرق دماء بنت الكروم ـ كنت فى إحدى الليالى جالسا والجمال على ركبتى ، فوجدته مرا وسببته وتسلحت ، تسلحت ضد العدل ، فهربت وهربت . أيتها الساحرة أيها البؤس ، أيها الحقد لديك أودعت كنزى ـ توصلت الى إخماد الأمل الإنسانى فى نفسى ، ولأجل أن أتمكن من خنقه تحفزت ثم قفزت قفزة الوحش الضارى وناديت على الجلادين حتى اذا قضيت حياتى تمكنت من عض أطراف بنادقهم ـ ناديت

على النوازل ، كى أخنق نفسى بالرمل والدم كان الرزء إلهيا ، فتمددت فى الأوحال وجففت نفسى فى هواء الجريمة ولعبت أدواراً حاذقة للجنون . وجاء الربيع بضحكة الأبله الفظيعة ولكن أخيراً حينما وجدت نفسى أوشك أن أرسل النغم الفظيع الأخير[1] فكرت فى البحث عن مفتاح الوليمة القديمة حيث قد تعاودنى شهيتى . وهذا المفتاح هو الإحسان . وهذا الإلهام يثبت أننى حلمت « ستظل ضبعا ... إلخ » يصيح الشيطان الذى كللنى بهذه الأزهار ـ شقائق النعمان ـ اكتسب الموت بكل شهواتك وبأنانيتك وبخطاياك . أواه ! لقد أفرطت فى الأخذ والحيازة . ولكن أيها الشيطان المحب أسألك أن تنظر الى نظرة أقل غضبا بحدقة أقل حمرة ، وأن تمهلنى وأن تصبر على بعض الخيانات الصغرى . أنت يا من تحب لدى الكاتب والشاعر انمحاق مواهب المعرفة والوصف ـ اقتطع لك تلك الوريقات السوداء من دفتر الملعون .

ورثت عن أجدادى الغاليين الأعين الزرقاء البيضاء والإدراك القصير المدى وعدم الحنكة فى الكفاح ، وجدت ثيابى وحشية كثيابهم . ولكننى لا أمشط شعرى مدهونا بالأدهان . كان الغاليون ذباحين ، يقتلون الحيوان ويحرقون الأعشاب ليحصلوا على عنصر النار وعنهم أخذت الوثنية وعبادة

---

(١) الأصل Couac اسم صوت فاسد على آلة موسيقية نشاز .

الأصنام وحب الكفران بالأرباب . أواه ! كل المعاصى والعيوب : غضب ، زنا ـ الزنا والفحش الجميل خصوصاً الكذب والكسل . أعاف كل المهن وأبغض الصناعات أكره العمال والرؤساء والفلاحين . كلهم فظعاء محتقرون فى نظرى . إن اليد التى تقبض على القلم لاتقل قدراً عن اليد القابضة على النورج والمحراث . ياله قرناً تمجد فيه الأيادى ، لن تكون لى يد بالمعنى الذى يقصدون اليه .

وبعد ـ الخدمة نفسها بعيدة . النزاهة والاستجداء يؤلمان نفسى . الأمانة والشحاذة ! بغيضتان إلى نفسى[1] يكره المجرمون كالمبددة أوصالهم . أنا سليم صحيح معافى وهذا يكفينى . ولكن ما الذى جعل لسانى مريراً حتى هذه الدرجة ؟ إلا أنه قادنى ووقانى الى الآن من كسلى. دون أن الجأ الى استخدام جسمى لأعيش ، وهو جسم أشد كسلا من الضفادع . لقد عشت فى كل مكان لاتوجد أسرة فى الغرب لا أعرفها، لقد خبرت بعائلات تستمد حياتها من إعلان حقوق الانسان .

لقد عرفت أبناء الأعيان . لو كان لى أجداد فى مراحل التاريخ القديم ! ولكن كلا ! لم يكن لى حظ الانتساب الى الأصول الفخمة . ويظهر

---

(١) يؤخذ من ترجمة أرتور ريمبو أنه نزح الى الحبشة وربح عشرين ألف جنيه بتجارة السلاح ومات فى العقد ال ابه غنا فى أرض وطنه فرنسا وكان رجل عمل وهمة .

لى بجلاء أنى كنت دائما أنتمى الى جنس وضيع لا أستطيع أن أفهم الثورة . إن جنسى لم يثر إلا لينهب ، كالذئاب التى تأكل جثة الفريسة التى لم تفتك بها . أتذكر تاريخ فرنسا . بنت الكنيسة البكر ـ كدت أسافر نازحاً إلى الأراضى المقدسة ـ فى خزائن ذهنى تصاوير سالك فى سهول سوابيا ومناظر بيزنطة وقلاع وحصون سوليم وعبادة مريم ويتيقظ فـ نفسى الحنان على المصلوب بين ألف فكرة غيرة دينية أعنى أنى أسـ روحى :

أبنت الدهر عندى كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام[1]

(٥٤) محمد المويلحى

حديث عيسى بن هشام أو فترة من الزمن[*]

أصل تسمية الكتاب تقليد لمقامات أبى الفضل أحمد بن الحسين بن يحى بن سعيد الهمذانى المعروف ببديع الزمان .

واتخذ المويلحى اسم بطل بديع الزمان إشارة الى موضوع الكتاب.

بدأ المويلحى كتابه الذى كان ينشره تباعا فى جريدة مصباح

(١) ص ٥ و ٦ من فصل فى الجحيم تأليف ريمبو .

(*) مقال نشر بجريدة البلاغ اليومى . العدد ٢٢٠٨ فى ٢٨ يونيه ١٩٣٠ ، ص ٢ .

الشرق[1] بالإشارة الى فضلاء عصره الذين يعترف بفضلهم وتأدب هو بأدبهم وأخذ عنهم وهم المرحوم الأديب الوالد (إبراهيم بك المويلحى) والحكيم جمال الدين والعالم محمد عبده واللغوى الشنقيطى والشاعر البارودى .

ثم تفضل على أدباء عصره وأبناء جيله بصورة الخطاب الذى أرسله إليه جمال الدين الأفغانى ونصه :

حبيبى الفاضل

تقلبك فى شئون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسراتها وخوضك فى فنون الآداب يريح قلوبا علقت بك آمالها . وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز . ولك يومئذ التحدى . ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية فى مصر كرة أخرى . وهذا توفيق من الله تعالى . فاشدد أزرها وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها ، حتى تكون كلمة الحق هى العليا . ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها ، وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها . وحسبوا أنهم يحسنون صنعا . ويصلحون أمرا . وكن عونا للحق

---

(١) نشر « حديث عيسى بن هشام » منجما فى جريدة « مصباح الشرق » ابتداء من العدد ٣١ الموافق الخميس ٣ رجب ١٣١٦ ، ١٧ نوفمبر ١٨٩٨ . واستمر النشر الى العدد ١٠٧ الموافق ١٩٠٠/٦/٨ حيث نشر (إبراهيم المويلحى) تحت عنوان « مرآة العالم » أحاديث موسى بن عصام ابتداء من ١٩٠٠/٦/٢٢ ثم تعاقب نشر العملين .

ولو على نفسك . ولا تقف فى سيرك إلى الفضائل عند عجبك . لا نهاية للفضيلة . ولا حد للكمال ، ولا موقف للعرفان ، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك ، والسلام .

جمال الدين الحسينى الأفغانى

وقد ذهبت الأقوال فى هذا الكتاب مذاهب شتى ، فقال فريق من الناس إن الأفغانى رحمه الله كتبه الى المرحوم إبراهيم بك المويلحى ، لما كان بينهما من أواصر المودة وروابط الألفة والمحبة فى مصر والقسطنطينية ، وأن المرحوم الوالد تنزل عنه لنجله محمد بك لعلمه بأنه ثروة لايستهان بها ويستشهدون على صحة قولهم بأن الخطاب مستهل بقوله «حبيبى الفاضل» وليس فيه اسم المرسل اليه محمد بك ، وأن تاريخ السنة التى أرسل فيها الخطاب غفل إلا من تاريخ اليوم والشهر ١٩ ربيع الثانى ولا يعقل أن يكتب الأفغانى تاريخ اليوم والشهر ولا يكتب تاريخ السنة .

ونحن لا نميل مع أحد الرأيين ولكننا نحقق المسألة ، فإن المرحوم محمد بك يقول فى مقدمة عيسى بن هشام إن الخطاب أرسل إليه منذ خمس عشرة سنة والكتاب مطبوع سنة ١٩٠٧ ، فمعنى ذلك أن خطاب الأفغانى وصل إلى يد محمد بك المويلحى سنة ١٨٩٢ ، والمرحوم جمال

الدين توفى فى اصطامبول سنة ١٨٩٧ أى قبل وفاة الأفغانى بخمس سنين .

فلو افترضنا أن عمر محمد بك المويلحى عند وفاته كان ٧٥ عاما . فكأن عمره كان فى سنة ١٨٩٢ وهى سنة تاريخ إرسال خطاب الأفغانى إليه ثمانيا وثلاثين سنة أى أنه كان فى حدود الأربعين ويصح أن يرسل إليه جمال الدين مثل هذا الخطاب الذى ينطوى على النصح ، ولا يعقل أن جمال الدين يبعث بمثله الى المرحوم إبراهيم بك المتوفى فى سنة ١٩٠٦ فإنه كان من أنداده وكان فى سنة ١٨٩٢ على الأقل فى الستين من عمره باحتساب أن بينه وبين ولده محمد اثنتين وعشرين سنة وقد توفى المرحوم إبراهيم بك فى الخامسة والسبعين من عمره .

ثم إن أسلوب الخطاب نفسه يدل على نصيحة كبير لصغير أو أستاذ لمريد فهو يقول له « يريح قلوبا علقت بك آمالها » .

ويشير المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى الى الحركة الوطنية فى دورها الثانى وقد ظهرت حوالى سنة ١٨٩٢ فلذا هو يقول تمثلت اللطيفة الموسوية فى مصر كرة أخرى وهذا توفيق من الله (تعالى) فاشدد أزرها.... إلخ .

إذن نخرج من هذا بأن خطاب الأفغانى مرسل الى المرحوم محمد

بك حقا ».

قال المرحوم محمد بك إن الحديث « أو مجموعة المقامة المصرية » إن كان موضوعا على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة متبرجة فى ثوب خيال لا أنه خيال مصبوغ فى صبغة حقيقة قصد به أن يشرح الأخلاق والأطوار ويصف ما عليه الناس من النقائص التى ينبغى اجتنابها والفضائل التى يجب التزامها .

وفى مستهل الكلام يظهر بطل القصة سائرا فى المقابر فتخطر بباله فكرة أبى العلاء والخيام وكلاهما يتخيل المقابر منطوية على أجسام كانت موضع الإجلال والإكرام والمحبة فيقول :

« إن فى غمار تلك الرمم لمباسم طالما حول العاشق قبلته لقبلتها ، وباع عذوبة الكوثر بعنويتها ... (و) إن تلك الخدود التى كان يغار منها الورد فيبكى بدموع الندى ... قد طوى الدهر حسنها طى الكتاب ، وصارت بحكم القضاء أديما لوجه الفضاء ».

ثم ذكر بقية أعضاء البدن وذكر الملوك والعظماء المدفونين فى تلك الصحراء حتى أدركته الحسرة والموعظة المرة .

وإن « المؤلف » فى هذه المواعظ والعبر اذا به يرى قبرا من بين تلك القبور قد انشق وخرج منه رجل طويل القامة فأخذ عيسى بن هشام

يسرع فى مشيته ، فإذا الدفين المبعوث يناديه ويسأله عن اسمه وعمله وغايته من زيارته . ثم يظهر أن الدفين هو أحمد باشا المنيكلى (؟!) ناظر الجهادية المصرية .

وقال المنيكلى إنه يتنكر فى مصاحبته لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا فى الليالى التى كان يصرفها فى البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية وأن البلد لا يدخل بابه إلا اذا عرف الداخل كلمة سر الليل التى كانت تصدر من القلعة فى كل ليلة الى الضابطة والى جميع القره قولات والأبواب فلا يصرحون لأحد يمشى بالليل إلا اذا كان حافظا لهذه الكلمة فليلة تكون كلمة « عدس » وليلة تكون « حمصة » وهلم جرا .

ويرى القارىء أن الصورة التى رسمها المرحوم محمد المويلحى عن محاكم الجنح فى أواخر القرن التاسع عشر (ص ٣٤ ومابعدها) ، لا تختلف كثيرا عن الصورة الحالية ، فلا يزال القضاة يتعجلون الدفاع ويستحثون المحامين على الاختصار والإسراع ، ولايزال المحامى يحاول جهده فى تفهيم القضية للرجل الذى يمثل العدل ، غير أن النيابة لا تترافع الآن فى مواد الجنح والمخالفات إلا فى النادر ، وقد أخطأ المرحوم فى عبارة بسيطة وهى ختام مرافعة النيابة بتفويض الرأى للمحكمة ، لأن هذا الطلب كما هو معلوم لاينطبق على طلب العقوبة ، ولكن هذا خطأ مادى

بسيط لا يدركه الخارجون عن الصناعة ، على أن التلخيص للحالة صحيح جدا وموافق فى مجموعه للحقيقة ٠

(٥٥) اللورد بيڤربروك
النجاح فى الحياة(*)

كان الموسيو هنرى باربوس زعيما اشتراكيا وبالغ بعض ناقديه وحاسديه فوصفوه بأكثر من ذلك تطرفا ولكن فى الحق كان أقل تطرفا من الفيلسوف الانجليزى المعاصر برتران روسل مؤلف « المثل العليا فى السياسة » و« الطريق الى الحرية » وقد أنشأ الكاتب الفرنسى مجلة « أوربا » وجريدة « موند » وعالج معانى شتى من معانى الحياة وكان فى غاية الاعتدال . فحاولت الرجوع الى كتاب اللورد بيفربروك الذى ألف كتابا شهيرا جدا فى « النجاح » وبناه كله على الحصول على الشهرة عن طريق المال - حتى النوابغ فرض عليهم أن يكونوا أغنياء - والى بعض كتب روسل لأجمع فكرة واضحة عن النجاح .

قد يقف المرء حائرا مبهوتا كلما علم أن إنسانا كان بالأمس فقيرا

(*) مقال بعنوان « النجاح فى الحياة ، مانوعه ؟ ما معناه ؟ ما وسائله » ، منشور بمجلة الرابطة العربية ، ٢٠ أكتوبر ١٩٣٧ ، المجلد الثالث ، العدد ٧٢ ، ص ١١ - ١٤ ٠

معدما فأصبح اليوم يعد من الأغنياء ، ومن ثم يسأل عن أسباب نجاحه المالى ويسره أن يقف على سر ثروته لعله يقتفى خطواته ، وكما أن نجاح الفرد يستنهض الهمم ويستثير العزائم من مكامنها ويدفع ببعض الرغاب الى تحدى الناجحين فى مايظنونه سر نجاحهم ، هكذا يجب على الأمم والجماعات أن تقتدى بمن سبقها من أمثالها فى سبيل الارتقاء .

قلت النجاح المالى . وأنا أقصد الى ضرورة تحديد النجاح . فهل يقصد به الى النجاح المالى أم المعنوى وهو العلمى والأخلاقى والسياسى ، وقد يكون النجاح فى العلم أو الأخلاق أو السياسة سببا للنجاح المالى . كالنجاح الذى يصيب الكتاب والمصورين وكبار الأطباء ، وقد يكون النجاح باهرا ولكن ثمرته المادية محدودة بل معدومة كما هى حال معظم الناجحين فى الفلسفة والحكمة فى العصور القديمه والحديثه ، فقد كان سقراط معدما وكذلك كان زينوفون وهيراقليط ، وفى العصور الوسطى سبينوزا وديكارت ، وفى العصر الحديث هربرت سبنسر وأوجست كونت وبرجسون لا يملكون عشر معشار مايملكه تاجر سيارات أو بائع أقمشة أو قصاب غنى ولكنهم يحسبون على كل حال ناجحين .

ولكن النجاح الصحيح اتخذ فى العصر الحديث شكلا خاصا . وهو

أن يكون مصحوبا بالكثير من اليسر المالى . وقد أصبح المخترع أو المكتشف أو المؤلف أو العبقرى المفلوك أو الذى يتضور جوعا أسطورة من أساطير الماضى وخرافة مللنا سماعها . بل لقد نزعت الشفقة على هذا النوع من الخائبين من قلوب أبناء هذا العصر وحل الازدراء لدي النظر اليهم محل العطف القديم . فإن الذى يخيب مسؤول عن خيبته ، وصدق من قال « لأم المخطئ الهبل » ، إذن وجب أن نعتبر النجاح هو الحالة المعنوية والمادية المزهرة التى يصل اليها الرجل باجتهاده مستثمرا مواهبه على حقيقتها أو بأكثر مما تستحق تبعا لفطنته وقدرته على الانتفاع بعطف أهل عصره وبيئته وما يستخرجه من عطفهم عليه أو مايظهره من حاجتهم اليه أو تقديرهم لشخصيته .

وقد حاول لفيف من الكتاب فى كل أنحاء العالم منذ بزوغ الحضارة أن يرشدوا الشبان الى الوسائل التى تكفل النجاح فوضع بعضهم تراجم العظماء الذين نبغوا فى المال والأعمال والفنون والحروب ليكون من تفاصيل تراجمهم حافزا للطامعين الطامحين وقدوة حسنة تقود خطواتهم فى سبيل ممهدة للفوز والغلبة . وقد أفادت هذه المؤلفات فوائد جمة ، ولم يذهب المداد الذى سال فوق قراطيسها عبثا .

ولكن فات جميع المؤلفين أمر واحد هو أهم الأمور وهو أن يكون

الرجل المتطلع للنجاح مستعدا بالفطرة . أى حائزا للصفات والمؤهلات والمواهب التى تكفل النجاح ، يقول الإنجليز « الشاعر لا يصنع ولكنه يطبع» ، وكذلك الناجح مخلوق مفطور على سلوك سبل النجاح بغير دليل أو مرشد إلا فى الندرى . وإذن يكون الاستعداد الفطرى هو الشرط الأول .

الشرط الثانى ــ صحة البدن وملاك القوة ــ فإنه وإن يكن اختراع الآلات فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن غير حال العالم تغييرا كليا فصار النجاح حليف المهارة فى استعمالها وحسن إدارتها ولم تعد قوة الأبدان تغنى فتيلا حتى فى الحروب التى حلت فيها المدافع والطائرات والدبابات والأسلحة النارية محل شجاعة القلوب وقوة البدن .

ولكن على الرغم من كل هذه الاعتبارات فإن الرجال الأشداء الأبدان لا يزالون يحرزون قصب السبق فى مضمار الحياة ، فإن عددا من مشاهير الرجال كغلادستون وفيكتور هيجو وداروين وروزفلت وبريان وروِدان وباستور وإديسون وفورد كانوا من أقوياء الأبدان وإن لم يكونوا فى ممارسة أعمالهم السياسية أو الأدبية أو الشعرية فى حاجة إلى قوة العضل المفتول والصحة البدنية قرينة القوة العضلية . وإن لم يصدق المثل

القديم القائل بأن العقل السليم فى الجسم السليم الصدق كله ، فإن الرجل يشعر بالسعادة ويتلذذ بها اذا كان قويا صحيحا معافى بريئا من العلل أكثر مما لو كان مريضا ضعيفا ضئيلا ذاويا ممعودا ممرورا .

الشرط الثالث ـ أن يكون الرجل مثقفا ثقافة حديثة صالحة لفهم الحياة وهى ثقافة علمية عملية . فالرجل الذى يرجى له العيش والنجاح فى هذا القرن يجب عليه أن يدرك قيمة الثقافة العلمية الحديثة وثقافة الحاضر والمستقبل ، فالعلم بأدق معانيه Science هو الذى خلق هذا القرن ومهد له سبل الحياة ، والعلم هو الذى أعان الإنسان على العيش والسعادة وتفهم العوامل المجهولة ومكافحة الموت والأمراض والعلل الاجتماعية والاستبداد والظلم الفردى والجماعى . والعلم هو الذى غير وجه العالم ونقل الثروات الضخمة من أناس الى غيرهم ، وهو الذى خلق ارستوقراطية من العمال ورؤساء الأعمال وقضى على إمارات الالتزام والاحتكار . وإذن يجب أن يكون الرجل الطامح للنجاح مثقفا ثقافة علمية صناعية ، متجها نحو مستقبل الميكانيكا والكهرباء ، فالصناعات بأسرها تستهويه والطائرات والسيارات والغواصات والدبابات سوف تلعب الدور المهم فى حياته ، والراديو والتليفزيون والعلاج بالكهرباء والأشعة والقضاء على نظرية الزمان والمكان وتطبيق نظرية أينشتين سوف يكون لها

المكان الأول فى فكره وعقله . فقد ودع الطبيعة الجرداء التى تبدو فى عناصرها الأولية إلا فيما يحتاج اليه من غذائه وشرابه ورياضته وتدريب نظره على بعض معانى الجمال .

الشرط الرابع - مكارم الأخلاق - إن الأخلاق ترتقى بارتقاء العلوم . وفى الغالب لا يفوز فى مضمار الحياة إلا الرجل ذو الأخلاق الدمثة والمعاملة الهينة اللينة ، والذى يعرف أقدار الرجال ويظهر الاحترام للسيدات ويشفق على الأطفال . لا يعلم الفلاسفة وعلماء الاجتماع بالدقة ماذا يصيب المعتقدات الدينية فى العصر القريب منا ، وهل يكتفى الناس بآدابها ، أم يعملون على تكوين آداب مستقلة عن الأديان ولا تقل عن آدابها وقد يظنون هذا مرجحا ، لأن العصر الحديث يقتضى إزالة الفوارق فى المعاملات الاجتماعية . وإذن لابد من الاتفاق على نظام أدبى يلائم كل فرد دون أن يجرح عواطف الآخرين[1] .

ومادمنا فى بحث أخلاق الناجح فعلينا أن ننصح له بوضع نظام خاص لحياته المادية من حيث المأكل والمشرب والمسكن . فيجب عليه أن يتجاهل وجود المخدرات والمسكرات والمنبهات بأنواعها من تدخين الحشيش الى شرب القهوة أو الإفراط منها . فقد أثبت العلم الحديث

---

(١) إن دين الإسلام كفيل بملء هذا الفراغ لأنه مؤسس على مكارم الأخلاق .

ضررهما جميعا . والرجل الطامح للنجاح يجب أن يكون صاحيا متيقظا بعيدا عن الغيبوبة والضعف والتخدير ، ليتمكن من القبض على ناصية الحالة فى بيئته وبيته ومجتمعه فلا طباق ولا تمباك ولا دخان ، ولا كيف ولا شاى أسود ولا أبيض ، فإن هذه السموم لا تزيد المواهب العقلية ولا تنشط الذهن ، ولا تشحذ الفكر ولا تقتل الهموم ، والرجل الذى يغرق همومه فى كأس الخمر يغرق حياته وحظه ومستقبله قبل إغراق همه ، وقد جاء فى بحث مهم عن هتلر أنه شديد الحيطة فى غذائه وشرابه فلا يأكل اللحوم ولا يشرب الخمر ولا ينغمس فى الشهوات .

أما الأمانه والوفاء والصدق وحب الإنسانية وفعل الخير فهى من البديهيات التى لا يصح أن نلفت النظر اليها لأنها من المؤهلات الطبيعية للنجاح .

الشرط الخامس ـ سعة الأطلاع ـ اذا اجتمعنا بشاب أوروبى فى العشرين من عمره تدهشنا سعة اطلاعه . فقد وضع علماء كثيرون من الإنجليز والفرنسيين والألمان جداول فياضة بأسماء الكتب سواء أكانت مائة أو أقل أو أكثر وهى التى يجب على كل شاب مهذب أن يقرأها ، وأهم ماوصل الى علمى بيان لورد آفبورى وكتاب هنرى بازيل وكتاب بروكلمان الألمانى ، ولم نجد للأسف كتابا عربيا أو بحثا قيما فى هذا الموضوع .

فوجب إذن على الرجل الذى يريد أن يستتم هذا الشرط أن يستعين بما هو مطبوع فى كتب الإفرنج الى أن يتاح له جدول عربى . ونذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ إدوارد فانديك نجل المأسوف عليه كرنوليوس فنديك ألف كتابا جليلا اسمه « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » ولا عيب فيه إلا أنه مضى عليه أكثر من خمسين عاما . وقد ألم بطائفة عظيمة من الكتب القديمة القيمة وخليق بالمجمع العلمى بدمشق والمجمع اللغوى الملكي بمصر وبلجنة النشر والترجمة وبادارة دار الكتب المصرية أن يتعاونوا معا على وضع مثل هذا البيان لينتفع به الشباب العربى .

الشرط السادس ـ الرياضة البدنية ولاسيما مايتصل منها بحسن الرماية وركوب الخيل والسباحة كالصيد والطراد والسباق[1] ، فإن هذه الرياضات فضلا عن أنها تقوى البدن فإنها تربى عاطفة الشجاعة فى النفس وتقضى على الخوف من الموت ـ وليس فى صدور الناس عاطفة مهما صغر شأنها وضعف فعلها إلا وتستخف بالموت وتكسر شوكته وتزيل رهبته من النفوس . والرجل المؤمل فى النجاح أحوج مايكون لاحتقار

---

(١) من نتائج التطور الحديث اعتماد الرجل على الميكانيكا فى الدراجة البخارية والسيارة والطائرة حتى يخيل للبعض أن الفروسية والرماية والسباحة والمنازلة لا قيمة لها . ولكن أمم أوروبا لاتزال تعلمها لأنجب أولادها ، وهى وحدها التى تكونهم .

المـوت ، واذا نظرنا الى الموت الذى يرهبه كل الناس لوجدنا الانتقام ينتصر عليه والمحنة تحتقره والشرف يتمناه والحزن يجرى اليه والخوف يسابق عليه . وأى عمل من الأعمال فى حياة الرجل الناجح لا يعرضه للموت وأى أمر يعطل نجاحه سوى الجبن وحب الحياة .

الشرط السابع ـ ومن عدة النجاح السعادة الداخلية ، وهى تنطوى على تأسيس بيت وأسرة وشعور بمسؤولية العناية الأهلية نحو الصغار والكبار . وتذوق مرارة الحياة وحلاوتها . ولكن يجب على الرجل الذى يريد النجاح أن يسعى جهده فى تحسين غرائز النسل وترقية مزاياها الفطرية فيهتم بدرس النواميس الثابتة المختصة بالوراثة والتعمق فى دراستها ، وأن يبحث بحثا تاريخيا فى قيمة الخدمة التى خدمت بها طبقات الهيئات الاجتماعية أوطانها وعائلاتها وذريتها ، ليطبق ذلك على طبقته وأن يبحث بحثا مطردا فى الأحوال التى نشأت العائلات الكبيرة فيها وأثرت ، وأن يحقق حالته عند زواجه ليتبين الأسباب فى إثراء الأولاد وأن لا يخضع دائما لعاطفة الحب التى تتغلب على غيرها من العواطف حتى يظن أنه من الحمق تحويلها عن مجراها ولكن الحقائق المعروفة لا تؤيد هذا الظن لأن مايعد انحطاطاً فى بعض الأفراد ليس انحطاطا فى قواها العقلية ولكنه نقص فى تفهم القواعد الاجتماعية .

الشرط الثامن ـ الحذر من الاستغواء بما يراه ويسمعه ويقرأ عنه من أن النجاح رهين بالحذق المجرد عن الخير والشرف والابتعاد عن النبل، وأنه موقوف على أهل السلاطة والوقاحة الذين رفعوا عن وجوههم براقع الحياء واتخذوا من الجرأة المذمومة وسيلة لاقتحام المجالس وغشيان الأماكن وإظهار الكبرياء ومحاولة التساوى بالعظماء والاستخفاف بأقدار الرجال وظن الخجل البريئ في كل الأحوال سببا من أسباب الفشل .

الحذر الحذر من الاعتقاد بصحة المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الواسطة . فهذا نوع من التعاليم الإباحية الفاسدة الإجرامية التى تخرب النفوس والعقول وتقضى على الكرامة وعلو الهمة وتجعل صاحبها مبتذلا مذموما .

إن الفضيلة التى تعلمناها فى الكتب وسمعناها من الشيوخ هى نفسها التى سادت وستسود . وقد يعتورها ضعف أو فتور ولكنها لن تموت ولن تزول .

وإننى أكتب هذا الفصل الأخير وقلمى يتعثر ، فإننى أرى وأسمع من حولى ومن جميع الناحيات أصواتا تؤيد العكس وتزعم أن جميع التعاليم الفاضلة والآداب الكريمة كالقناعة والعفة والطاعة والصبر والخضوع والانحناء ، إن هى إلا قواعد وضعها الأقوياء بمهارة وحذق

لإخضاع نفوس الضعفاء واستغلالهم الى آخر الدهر ليكونوا سادة والآخرين رقيقا لينا هينا مطيعا . وحتى برتران روسل السكسونى الهادئ يؤيد ذلك ويؤكده ويطبقه على الدين والتعليم والسياسة . ويرتكن الى مؤلفات « وستمارك » فى تاريخ نشوء الحضارة . ولكن الإنسان يشعر فى نفسه بعاطفة الخير فيغلبها على الشر ويميل الى حسن الظن الى أن تنجلى الغياهب .

القاهرة سنة ١٩٤٢ — محمد لطفى جمعه

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مؤلفات محمد لطفى جمعه

أولاً : المؤلفات المطبوعة :

العنوان	المطبعة	السنة
١ - فى بيوت الناس (قصص) - نفد .		١٩٠٤
٢ - فى وادى الهموم (رواية) - نفد .	مطبعة النيل	١٩٠٥
٣ - تحريرمصر(سياسة - مترجم) - نفد	مطبعة النيل	١٩٠٦
٤- محاضرات فى تاريخ المبادىء الاقتصادية والنظامات الأوروبية (اقتصاد ونظم الحكم) - نفد .	مطبعة النيل	١٩١١
٥ - الحكمة المشرقية (يضم ثلاثة كتب هى : حكم فتاح حوتب وروضة الورد للشيرازى والتعليم الراقى للمرأة اليابانية) - ترجمة ودراسة - نفد .		١٩١٢
٦ - حكم نابليون (مترجم) - نفد	مطبعة البيان	١٩١٢
٧ - ليالى الروح الحائر (أدب) - نفد	مكتبة التأليف	١٩١٢
٨ - الأمير « لميكافللى » (ترجمة ودراسة) - نفد .	مكتبة التأليف	١٩١٢
٩ - مقدمة قانون العقوبات ومبادىء العلوم الجنائية (قانون - مذكرات فى القانون الجنائى لطلاب السنة الثانية من قسم الحقوق بالجامعة المصري) - نفد .		١٩١٧

العنوان	الناشر	السنة
١٠ – تاريخ علم الاجتماع (اجتماع) – نقد .		١٩١٩
١١ – مائدة أفلاطون (دراسة فلسفية – مترجم) – نقد .		١٩٢٠
١٢ – الشهاب الراصد (نقد كتاب « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين) – نقد .	مطبعة المقتطف والمقطم	١٩٢٦
١٣ – تاريخ فلاسفة الإسلام (فلسفة إسلامية) – نقد .	مطبعة المعارف	١٩٢٧
١٤ – الشيخ محمد عبد السلام (سيرة متصوف مصرى) – نقد	مطبعة حليم	١٩٢٧
١٥ – حياة الشرق ودوله وشعوبه وماضيه وحاضره (سياسة وتاريخ) – نقد .	دار إحياء الكتب العربية	١٩٣٢
١٦ – سجل أشهر القضايا العالمية (قانون – عدد واحد) – نقد .	مطبعة حجازى	١٩٣٤
١٧ – بين الأسد الإفريقى والنمر الإيطالى (سياسة – بحث تاريخى اجتماعى فى المشكلة الحبشية – الإيطالية) – نقد .	مطبعة المعارف	١٩٣٥

سلسلة مسامرات الشعب (روايات مترجمة):

العمل	الناشر	السنة
١٨ - الساحر الخالد- عدد ٤٠ مسامرات الشعب - نفد		
١٩ - الانتقام الهائل - عدد ٤١ مسامرات الشعب - نفد		
٢٠ - الكنز الدفين لكونان دويل - عدد ٤٧ مسامرات الشعب - نفد		
٢١ - الجسد والروح - عدد ٤٨ مسامرات الشعب - نفد .		
٢٢ - ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله (سيرة الرسول ﷺ- الجزء الأول) - نفد .	مطبعة الحلبى	١٩٤٠
٢٣ - ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله (الجزء الأول مضاف إليه باقى الأجزاء كاملة) - نفد	مطبعة النهضة المصرية	١٩٥٩
٢٤ - نظرات عصرية فى القرآن الكريم (تفسير)	مكتبة عالم الكتب بالقاهرة	١٩٩١
٢٥ - مخطوطات مسرحيات محمد لطفى جمعه - الجزء الأول - المسرحيات		

المؤلفة (قلب المرأة - خضرٌ أرضك - في سبيل الهوى - يقظة الضمير - الأم المتعبة) - إصدار ودراسة نقدية تحليلية للدكتور سيد على إسماعيل الأستاذ بكلية الدراسات العربية بجامعة المنيا ٠	مطبعة هلال بالمنيا الناشر مكتبة زهراء الشرق القاهرة	١٩٩٧
٢٦ - قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد - تراجم مصرية وأجنبية ٠	عالم الكتب بالقاهرة	١٩٩٨
٢٧ - نحو أدب روائي عالمي جديد (عولس لجيمس جويس - أدب ونقد)	عالم الكتب	١٩٩٨
٢٨ - مع الكتب في سبيل المعرفة - تاريخ تكوين عقل (أدب ونقد)	عالم الكتب	١٩٩٩
٢٩ - الفلاكة والبوهيمية في الأدب القديم والحديث (أدب)	عالم الكتب	١٩٩٩
٣٠- مباحث في الفلولكلور (أدب ومأثورات شعبية)	عالم الكتب	١٩٩٩

ثانيا : تحت الطبع :

- الأيام المبرورة في البقاع المقدسة (رحلة الحج والزيارة النبوية في عهد الملك عبد العزيز آل سعود) - أدب رحلات ٠

- تذكار الصبا أو ذكرى ١٩ مارس (جزآن - مذكرات وسيرة فى الرحلة والسياسة والأدب والفنون)٠
- شاهد على العصر (مذكرات محمد لطفى جمعه ١٨٨٦ - ١٩٥٣) ٠
- عايدة (رواية)٠
- مختارة (رواية)٠
- الفتى العادل (رواية)

رقم الإيداع ٩٨ / ٩٣٤٧
I. S. B.N. 977 - 232 - 146 - 7



مطبعة السلام الحديثة

١٠ش عبد السلام منسى
المتفرع من الشهيد أحمد حمدى
مدكور - فيصل
ت : ٥٨٣١٩٣٠

